أودور آفا أولافسدوتير

ترجمة: محمد أحمد صبح

أمطار الخريف

رواية

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

كتاب Kitab

أمطار الخريف

عنوان الكتـــاب: أمطار الخريف

اســـم المؤلـــف: أودور آفا أولافسدوتير

اســـم المترجـــم: محمد أحمد صبح

المـوضـــــــــوع: روايـــة

عدد الصفحات: 280 ص

القيـــــــــــاس: 14.5 * 21.5 سم

الطبعـة الأولى: 1000 / 2016 م - 1437 هـ

ISBN: 978-9933-536-59-6

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى بموجب عقد مبرم مع الناشر الأيسلندي

Copyright ninawa zulma

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

سورية ـ دمشق ـ ص ب 4650

تلفاكـــس: 2314511 11 963+

هاتـــــف: 2326985 11 963+

E-mail: info@ninawa.org

ninawa@scs-net.org

www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،

بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

الروائية الإيسلندية

أودور آفا أولافسدوتير

أمطار الخريف

This edition has been produced with a subsidy by the spotlight On rights programme in abu dhabi

تم إصدار هذا الكتاب بدعم من برنامج «أضواء على حقوق النشر» في أبو ظبي

ترجمها عن الفرنسية

محمد أحمد صبـح

L'EMBELLIE

AUDUR AVA ÓLAFSDÓTTIR

أودور آفا أولافسدوتير

تعرف جيداً فرنسا وعاصمتها باريس، لأنها درست هناك تاريخ الفن، وهي اليوم مديرة متحف جامعة أيسلندا ومعيدة. وتعيش بمدينة رايكيافيك التي ولدت بها سنة 1958. روايتها الأولى «روزا كونديدا» تحكي قصة عاشق للحدائق والورود سيتخلى عن كل شيء ليلتحق بحديقة ورود لدير قديم وفي جيبه بذور الوردة التي كانت تحبها أمه المختفية، وقد لقيت هذه الرواية نجاحاً باهراً في أيسلندا وكذلك في فرنسا وفازت بعدة جوائز أدبية ، منها «الجائزة الثقافية (دي في)» 2008، الجائزة الأدبية النسائية وجائزة صفحة المكتبات «الاختيار الأوربي» 2010. الاستثناء هي روايتها الثالثة، ويبقى القاسم المشترك في كتاباتها هو تلك الدعابة الخفيفة والسخرية المبتسمة. وحتى حين تعالج مواضيع عسيرة فهي تفعل ذلك بتفاؤل كبير، ببشاشة وخفة دم، الشيء الذي يعطي لأيسلندا المعاصرة ذلك الوجه المشرق. هكذا إذن، فليس من المصادفة أن يحظى مواطنو أيسلندا بالمرتبة الأولى في التصنيف الدولي للشعوب الأكثر سعادة.

صفر

عندما أعود بالذاكرة إلى الوراء، من دون مراعاة تامة حقاً للتسلسل الزمني، أجدنا هنا متلاصقين أحدنا بالآخر. أمسك به من الكتفين، وسط الصورة الفوتوغرافية، ويمسك بي من مكان ما أسفل من ذلك لِقصره؛ وخصلة من شعري الكستنائي الغامق تنسدل على جبهتي الشاحبة؛ بينما يبدي ابتسامة عريضة ويقبض على شيء ما في قبضته الممدودة.

أذناه تبرزان قليلاً من رأسه الكبير، وجهاز تقوية السمع لديه، الغريب لِقدمه، يشبه لاقط لموجات الراديو الكونية. وعيناه اللتان تبدوان أكبر بكثير مما هما عليه بفعل زجاج النظّارة تعطيانه نظرة خاصة، فالناس في الشارع يتلفّتون لدى ملاقاتنا؛ إذ يتفحّصون الصغير، وبعدما ينظرون إليّ قليلاً، يعودون للتحديق فيه. بينما نجتاز ساحة اللعب ونحن نمسك أحدنا بيد الآخر، حتى أغلق الباب الحديدي وراءه. وعندما أساعده في الصعود إلى المقعد المخصّص للأطفال وأقفل حزام الأمان، ألاحظ أن هناك من يراقبنا من السيارات الأخرى.

تظهر في خلفية الصورة سيارتي القديمة بعلبة السرعة اليدوية. والسمكات الحمراوات الثلاث الطافية في صندوق السيارة الخلفي - لم يكن قد عرف بعد - على كيس النوم لشخصين الذي تحوّل إلى إسفنجة. وعليّ أن أشتري لحافين جديدين من التعاونية، إذ لا يليق بامرأة في الثالثة والثلاثين من عمرها أن تتقاسم كيس نومها مع صبي لا يمتّ لها بصلة - فهذا لا يجوز. ولن يشكّل هذا الشراء مشكلة لأن علبة السيارة الداخلية مملوءة بأوراق البنكنوت الجديدة التي خرجت لتوّها من البنك. ولم ترتكب أية

مخالفة مع ذلك، فيما عدا النوم مع ثلاثة رجال خلال مسافة ثلاثمئة كيلومتر من الطريق الدائري غير المسفلت أكثره، على الشريط الساحلي الأكثر ضيقاً بين الجبال الجليدية والشاطئ الرملي حيث تكثر الجسور ذات الاتجاه الوحيد.

لا شيء يبدو كالمعتاد، في هذا اليوم الأخير من تشرين الثاني - يوم معتم على الجزيرة؛ نرتدي كلانا كنزة صوفيّة، وكنزتي بيضاء بقبّة عالية، أما كنزته فجديدة خضراء فاتحة، مشغولة باليد مع زخرفة وغطاء للرأس. ودرجة الحرارة مماثلة للحرارة في لشبونة بالأمس، كما تقول نشرة الأخبار، ويُتوقّع المزيد من الأمطار وارتفاع الحرارة. ولهذا لا ينبغي لامرأة وحيدة مع طفل أن توجد من دون سبب وجيه في الطرقات، في نواحٍ معتمة وخالية من السكّان، أو بجوار جسور وحيدة الاتجاه، لأن الطرقات غالباً ما تكون مغمورة بالمياه.

لستُ مغرورة إلى الحدّ الذي أنتظر فيه ظهور عاشقٍ جديد عند كلّ جسر وحيد الاتجاه، لكني لا أستبعد تماماً احتمالاً كهذا. وبالنظر جيداً إلى الصورة، نتبيّن في الخلفيّة، على بُعد خطوات من الصغير ومنّي، شاباً في نحو السابعة عشرة ذا وجه مبهم قليلاً، لطيف القسمات تحت قبّعته الصوفيّة ويمكن القول إن حبّ الشباب لديه قد بدأ بالزوال لتوّه، مظهره يوحي بالنعاس، وعيناه مغمضتان نصف إغماضة، وهو يستند إلى مضخّة البنزين.

وإذا ما تَفَحَّصت الصورة بدقّة، فلن أُدهَش إذا ما ظهر ريش على العجلات وبقع من الدم عليها، مع أن ثلاثة أسابيع مرّت منذ أن هجرني زوجي مع فراش السرير الزوجي، ومعدّات التخييم وعشرة طرود من الكتب - هكذا كان التسلسل. ولكن لنُبقِ في أذهاننا أن المظاهر خادعة أحياناً، والحقيقة، على عكس الصورة، تعجّ بالمعاني.

1

الحمد لـلـه، لم يكن ذلك طفلاً!

أفكّ حزام الأمان وأسرع خارج السيارة لتفحّص الطائر. يبـدو أن الإوزّة كاملـة مـن قطعة واحدة، فقد صُرعت بإتقان، الرقبة رخوة، والـصدر مـضرّج بالـدم؛ وأخـشى قلبـاً محطّماً تحت الريش الملوّث بالمازوت.

أفلتت أوراق من ملفّاتها عنـدما دُسْـتُ المكـابح فجـأة، وهـي تـرجمات بمختلـف اللغات متناثرة على أرضية السيارة؛ بينما ظلّت كومة من الوثائق سـليمة عـلى المقعـد الخلفي المثقل بالأغراض.

إن المشوّق في عملي - وهي ميـزة لا أتـردد في الإشـارة إليهـا لزبـائني - هـو أننـي أوصله إلى المنزل. فأستقلّ السيارة حتى أحمل بنفـسي المقـالات المـصحّحة، والمـذكّرات والترجمات، وكأنها أطباق معكرونة مطهوّة على الطريقة التايلانديـة. وقـد يبـدو هـذا طريقة قديمـة، لكـن النـاس يحبّـون جـسَّ الأوراق وقـضاء بعـض الوقـت مـع شـخص مجهول، استشَفَّ في وقت ما جوهر حيـاتهم الروحيـة. والأفـضل هـو طـرق البـاب في اللحظة التي تسبق العشاء بالضبط حينما تكون المعكرونة قد نضجت ولا ينبغـي لهـا أن تبقى في الماء دقيقة أكثر، أو عندما يكون ربّ البيت وضع البـصل عـلى النـار بيـنما ينتظر السمك مـع التوابـل، ولا يلتفـت إلى إطفـاء النـار تحـت المقـلى قبـل أن يذهب ليرى من يطرق الباب. وبناء على تجربتي يتم الأمـر سريعـاً: فالنـاس لا يحبّون تلقّـي الزيـارة مـع روائـح الطـبخ، ولا يميلـون أيـضاً إلى الحـديث وهـم بجواربهم أو حتى بأقدام حافية في مواجهـة امـرأة مجهولـة وسـط كومـة مـن

الأحذية في مدخل ضيق، وحولهم أطفال مهتاجون - فهي الظـروف المثاليّـة في رأيي حتى تسدَّد الفاتورة على الفور بأقلّ قدر مـن احـتمال المـساومة. ومـا إن أخبرهم بأنني لا أقبل بطاقات الائتمان حتى يسارعوا إلى كتابـة شـيك واسـتلام البضاعة.

وعندما يأتون إلى ستوديو العمل الصغير الذي أستأجره بالقرب مـن المينـاء، يمكـن توقّع أن يستفيضوا في اسـتعادة تعليقـاتي، وإقنـاعي بنوايـاهم الحـسنة، وبخـبرتهم في الأمر، وأن يشرحوا لي لِمَ صاغوا أفكارهم بمثل تلك الكيفية. ولم تكـن مهمّتـي البتّـة أن أعيد الكتابة بل تصحيح الأخطـاء في الطبـع التـي تُرتكـب نتيجـة للتـسرّع، كـما لفـت انتباهي أحد زبائني وهو يسوّي نظّارته وربطة عنقه ويلمس خصلات شعره أمام مرآة المدخل. فالهدف لم يكن، كما أضاف، تبسيط فكرٍ معقّـد أكـثر مـن الـلازم، لأن المقـال موجّه لقرّاء مطّلعين على الموضوع. مع أنني لم أقم بأيّة ملاحظة حول استعمال صـيغة الجر في **تقريره حول مشروعات السدود**، بينما كنت أتساءل من وقت لآخر عـمّا إذا لم يكن بالمستطاع استبال بكلمة **تأمّلي** التي تكرّرت أربع عـشرة مـرّة في الـصفحة ذاتهـا، صفة أكثر ملاءمة. لكنني لم أعبّر مع ذلك عن وجهة نظري بـصراحة، مكتفيـة بـالتفكير فيها لاستعادة نشاطي، وعندما ننتهي من المـشكلة، يأخـذ بعـض الرجـال في التحـدّث قليلاً عن أنفسهم ويطرحون عليّ بعـض الأسـئلة، عـمّا إذا كنـت متزوجـة عـلى سـبيل المثال. وقد حدث لي مرّتين أو ثلاث مرّات أن صنعت لهم خبزاً محمّصاً. ولابدّ أن أشـير إلى أنني لست مَن كتب الإعلان، بل صديقتي أودور على إثر نوبة واضحة مـن جنـون العظمة. لأن المبالغة ليست من عادتي.

أنا على استعداد لتدقيق التجارب الطباعيّة، وتحسين رسائل الليسانس والمقالات حول أيّ موضوع مهيّأ للنشر في مجلّات أو جرائد متخصّصة. وأنسّق خطابات الحملة الانتخابيّة، بصرف النظر عن الحزب المعني، وأُزيل الأخطاء اللغويّة، كما أصحّح الأخطاء في الاقتباسات الفلسفيّة أو الشعريّة في خطابات التهنئة، وأرفع من مستوى رسائل التعزية، وأحفظ عن ظهر قلب الأقوال المأثورة للشعراء المحليين السابقين.

وأيضاً، الترجمة من اللغة الإيسلندية إلى إحدى عشرة لغة، بما فيها الروسية والبولونية والهنغارية، عمل سريع ومتقن، التسليم في المنزل، والكتمان مضمون لكل الأعمال.

ألتقط الطائر الذي صدمته ولما يزل دافئاً، وكان ذكراً كما لاحظت، ومن تصاريف القدر أنني انتهيت لتوّي من قراءة وتصحيح مقال حول حياة الإوز العاطفيّة والوفاء المطلق الذي يحمله الذكر لرفيقته طوال الحياة، فأبحث بعيني عن الرفيقة الناجية في سرب الإوز. وكانت آخر الطيور تجتاز الطريق الزلق وهي تنقنق، ناشرةً على الإسفلت أجنحتها البرتقاليّة. وحسبما أرى، ما من واحدة خرجت عن الصف بحثاً عن رفيقها؛ وبين الطائر الذي أمسك به وأفراد القطيع ما من شَبَه لعلاقة زوجية فرض نفسه عليّ. وما يثير في نفسي الدهشة، وأنا واقفة هنا وسط الشارع وممسكة برقبة طائر سمين، هو أنني لا أشعر باشمئزاز ولا بذنب. إذ أعدّ نفسي في الحقيقة شخصاً ذا قلب طيّب، أحاول تجنّب النزاعات، ويصعب عليّ رفض الالتماسات الصادرة عن حساسية ذكرية، وأشتري كل بطاقات اليانصيب الخيري التي توضع في صندوق بريدي. ومع ذلك، وفي السوبر ماركت

وأمام بسطة الجزّار، تعتريني الاستثارة كما في الأيام التي تسبق عيد الميلاد وأنا أتخيّل التوابل والأطعمة المرافقة، متسائلة عمّا إذا كان أثر عجلة **غـوديير** سـتظهر مـن خـلال المرق.

حسناً، أتمنّى لكم عاماً سعيداً مسبقاً، سأقول لضيوفي وأنا أدعوهم إلى هذا العـشاء غير المنتظر، في مساء يوم مظلم من تشرين الثاني، من دون أن ألقي المزيد من الـضوء على المناسبة.

أقطع بعض الصفحات من مقال مُمِلّ جداً حول ثيرموديناميـك الأجـسام الموصـلة وأضعها في صندوق السيارة الخلفي، قبل أن أضع عليها الطـائر بحـذر. لم أكـن فتحـت الصندوق منذ وقت طويل ويبدو أنّه يعجّ إلى آخره بمعدّات اشتريتها لمـساندة الرحلـة الرياضيّة للمعوّقين الصغار. ويا لسعادتي لأنني لم أختر شراء القريدس الذي كان اقـتُرِح عليّ أيضاً.

لن تعرف الإوزّة المصير ذاته لأنني سـأعمل منهـا مفاجـأة مطبخيـة سـارّة لزوجـي شخصيّاً. ولكن لابدّ عليّ أولاً أن أمرّ على حي ميلار للقيام مرّة أخرى بما كان ولا يجـب أن يكون.

2

أركن السيارة بالقرب من البناية وأنطلق مسرعة حتى الطابق الثالث؛ وأصعد على الدرج أربعاً أربعاً. ولا أكترث أثناء صعودي إذا ما فُتح بابان أو ثلاثة بمقدار فتحة صندوق بريد لتنبعث منها رائحة بيت العائلة الجدّ منظّم، ولا أهتمّ لو أن أحداً استطاع تعقّب خطواتي لأنّ ما أستعدّ لارتكابه للمرّة الثالثة في ثلاثة أسابيع ليس من عاداتي. بل هو استثنائي تماماً خلال زواجي. ولدى خروجي عمّا قليل مسرعة، سأقول في نفسي إنني لن أعود أبداً، ولهذا لا أكترث بالأبواب الموارية ولا بالمتلصّصين، فأنا أتحرّق شوقاً إلى وضع يديَّ الملوّثتين بالدماء على عنق عشيقي، ودغدغة قفا عنقه بأطراف أصابعي تاركةً عليه خطوطاً حمراء قانية، والانتهاء بأسرع ما يمكن والذهاب لشراء مستلزمات الإوزّة قبل إغلاق الدكاكين. وتتمثّل المهمّة الأصعب في خلع جزمتي بينما ينحني عند العتبة وأمدّ له رجلاً. لقد خلع نظّارته، ويديم النظر إليّ كلّ هذا الوقت. لقد أرخى الستائر إلى ثلاثة أرباعها بينما كانت شمس تشرين الأول الشاحبة تغيب وراء قمّة سيلتجارنارن راسمة على جسدينا حزوزاً. مثل حماري وحش التقيا خلسة عند نبع ماء، أحسّ برائحة مسحوق الغسيل تنبعث من الأغطية التي بدّلها. كلّ شيء بالغ النظافة؛ إنّه نوع الشقّة التي أستطيع مغادرتها في حالة الحريق أو الحرب من دون أسف على أي شيء أو حمل أي شيء. شيء واحد يصرخ ضمن الديكور: إنها سُتر مزخرفة مليئة بالغبار تخفي لفيفة الستائر الخشبية.

- إنها أمّي التي صنعتها، وأعطتني إيّاها عند طلاقي، قال وهو يتنحنح.

من المؤكّد أن المحيط يتنوّع حسب الوضع والمشاعر التي تنتابنا، مع أنني لست مستعدّة لمناقشة مفهوم الجمال أو الرفاهية هنا والآن. ولا يمكن القول حقاً أن ثمّة سبق إصرار في وجودي جالسة هنا عاريةً تماماً على طرف السرير، لأنّ ذلك ليس مرتبطاً بأيّة خطّة، لكنها الظروف التي أعيشها في هذه اللحظة. ولا يهمّني أبداً أنّ الشقّة قبيحة ولا لون لها؛ كما لا تهمّني أخطاؤه الإملائية ولا كلامه البذيء وغير اللائق أحياناً، لأنّ قبضته متينة ومباشرة. ومن دون أن يكون لديّ الكثير من المعلومات حول الموضوع، أعرف مع ذلك أن ما من علاقة بين الجنس واللسانيات فلقد تعلّمت هذا على الأقل.

في بقعة الدم على الصفحة الأولى، هناك ريشة صغيرة، ولكن ليس لي أن أتساءل عمّا إذا كنت سأسلّمه المقال قبل أو بعد، إذ أعرف من التجربة أنّ من الأفضل الانتظار، وليس مناسباً الخلط بين العمل والحياة الخاصّة. فبعدما نمنا معاً في المرّة الأولى، بدت عليه الدهشة عندما مددت له يدي بالفاتورة مع الضريبة على المبيعات مبيّنة عليها.

بعد إنجاز المهمّة، أساعده في ترتيب السرير وفي هذه الأثناء يبوح لي بإخلاص بشيء لا ينبغي لامرأة التصريح به في أيّ حال. وعندئذ ألاحظ للمرّة الأولى وشماً غريباً أسفل ظهره، وشماً على شكل شبكة عنكبوت - وهو شيء لابد أن يثير الدهشة لدى رجل في مثل وضعه الاجتماعي. وجواباً على سؤالي يكتفي بالقول بأنّه كان لا إرادياً.

ويمدّ لي يده بسروال أبيض من الدانتيل وهو يمسك به بالإبهام والسبابة، قائلاً:

- أليس لك؟ وكأنما يمكن أن يكون لأحد غيري.

أنا على عجلة من أمري للعودة إلى البيت، وإذا به بعد أن غسلت يـديَّ بـصابونته المعطّرة، قد هيّأ المائدة، وحضّر الشاي، وقلى البيض، ودهن شرائح الخبز بالزبـدة مـن أجل السلمون المدخّن. وهو لا يزال عاري الصدر وحافي القدمين، واقفـاً ينظـر إليّ وأنـا آكل بينما يرتدي قميصه.

- لقد رأيت سيارتك هذا الأسبوع وتوقّفت إلى جانبك، قال. ألم تلاحظي وجودي؟

- كلا، لم ألاحظ.

- فلم تلاحظي إذن أن زجاجك الأمامي قد نُظِّف.

- كلا، لكنني أشكرك مع ذلك.

- أتعرفين أن موعد المراقبة قريب جداً لسيارتك...

وبعدما ازدردت شطيرتي، وبينما أسـتعدّ لـشكره وإعطائـه قبلـة لأنّنـي لـن أعـود، يسألني عمّا إذا كنت أفكّر فيه كثيراً.

- كل ثلاثة أيام أو أربعة، قلت.

- وهذا يعني خمس فواصـل لـست مـرّات في ثلاثـة أسـابيع، يجيـب الاختـصاصي المطلَّق حديثاً الذي لم يقفل إلا زرّاً واحداً من قميصه، أنا أفكّر بك أكثر ولاشـك، لنقـل ستين مرّة في اليوم وعندما أستيقظ ليلاً، أتساءل عـمّا تـصنعين، أرقبـك عنـدما تـدهنين جسمك بالكريم بعد الحمّام، وأتـساءل كيـف يكـون المـرء أنـت. ومـن ثـم في المـساء، أتخيّل أنّك لن تدخلي السرير قبل أن ينام زوجك.

- إن زوجي ليس في البيت مساء غالباً هذه الأيام.

فيسألني عندئذ عمّا إذا كنت سأطلب الطلاق.

- كلا، لم يخطر هذا على بالي، قلت.

لأنني أحبّ زوجي على الأرجح، لكن هذا لم يقله. بل فاجأني عندئذ بقوله إنها ستكون آخر مرة.

- آخر مرّة، ماذا؟

- آخر مرة ننام فيها معاً. فمن المؤلم جداً تركك في كل مرة، إذ أشعر بأنني على حافة جرفٍ هارٍ وأنا حسّاس للدوار.

أمست العتمة مقلقة عندما، للمرة الثالثة في ثلاثة أسابيع، أهبط الدرج أربعاً فأربع في بنايته. هذه المرة أغادر نهائياً، فقد انتهى كل شيء، ولن أعود لفعل ما فعلت أبداً. وأتعجّل الوصول إلى بيتي، حتى لو لم يكن أحد ينتظرني فيه على الأرجح. وأصغي في السيارة إلى **أغنية الربيع** لمندلسون، تنبعث من المذياع. والأسطوانة مهترئة ومتشققة ولا يبدو أن المذيع منتبه إلى هذا، أما أنا، فأعرفه، حتى من دون أن يظهر عليّ الإصغاء.

3

حتى لو لم تتمتع أية امرأة بحياة منتظمة كنوطة الموسيقا، فثمة احتمال قدره تسعة وتسعون فاصلة تسعة في أن نهاري سينتهي في البيت، في سريري، برفقة زوجي. ومع ذلك، أجد نفسي، على غير توقع، بينما أستعجل العودة إلى البيت، وأنا أقوم بمناورة بصعوبة وراء مقود سيارتي القديمة في موقف السيارات الضيق لبيتي السابق في الشارع الذي كنت أسكن فيه منذ عامين، لا أتعرف الستائر وأتذكر فجأة أن ليس لدي مفاتيح بوابة المدخل، وأنني غيّرت البيت مرتين من دون أن أبتعد كثيراً مع ذلك. وفي لحظة الانطلاق، ألاحظ لعبة طفل معلّقة في الغرفة التي كان فيها حاسوبي؛ ولكي أتأكد، أنتظر حتى يمر رجل أمام النافذة، حاملاً على صدره رضيعاً. أعرف على الأقل أنه ليس زوجي ولا طفلي. فليس لدي أطفال.

ولا أزال في السيارة عندما يرنّ جوّالي، إنها صديقتي، عازفة بيانو ومُدَرِّسة للموسيقا. أم عزباء، أودور لديها ابن في الرابعة من عمره، أصم، وهي حامل في الشهر السادس، إنها تمضي أمسياتها جالسة على سريرها تعزف على الأكورديون، وتميل كثيراً، عندما تحين المناسبة، إلى احتساء الكونياك.

تقول لي بأنها لا تستطيع الكلام طويلاً، إذ إنها مشغولة مع تلميذ مشاكس وأب أكثر مشاكسة أيضاً، مضيفة بصوت خافت، بأنها أخذت موعداً مع بصّارة أو بالأحرى محضّرة أرواح. وتطلب منّي إذا ما كنت أريد الإفادة من هذا الموعد في مكانها. وأسمع صوت بكاء وراءها، من دون أن أستطيع تمييز من يبكي أهو طفل أم بالغ.

بناءً على فكرة سخيفة، وقعت صديقتي على بـصّارة منـذ عـامين. ومنذئـذ، وهـي عالقة في شراك القدر، لا شيء مما يحدث لها يأخذها على حـين غـرة. وعـلى كـلٍّ، فـإن مجيء الطفل لم يكن مفاجأة.

عمري خمسة عشر عاماً وأنتظر دائماً أن يختفي الطفل الـذي في بطنـي. أنـا لا أفكّـر فيه. وكأنني أخفيه بعدم التفكير فيـه. حتـى يتوقـف عـن الوجـود. لقـد بحثـت في أحـد الكتب وأعرف أنه لم يعد سمكة صغيرة بطـول سـنتيمترين ونـصف وأطـراف كالزعـانف، وأنه بدأ في اتخاذ مظهر إنساني وأن له أصابع في القدمين. ولن أستطيع عن قريب ارتـداء بنطـالي المـزركش بالأزهـار في جـواربي. وسـأخفيه تحـت سـترتي الـصوفية ذات الأزرار النحاسية حتى لا يعير أحد الانتبـاه إليـه، ولا يعـرف شـيئاً. ومـن ثـم سأمـضي إلى العـالم الفسيح. عندما تنتهي المدرسة.

وما كل هذا إلا خيال محض.

أودور تعرف تحفظاتي إزاء القدر.

- ماذا تعنين بقولك «لا أفضّل»؟ فهناك قائمة انتظار لعامين، قالـت وكأنهـا تتوجـه بأسلوب رصين وعقلاني لطفل ذي نزوات. يبدو أنهـا الأفـضل في نـصف الكـرة الـشمالي كله، وكانت موضوعاً لبحوث في أمريكا، بدراسة للدماغ مع ما يعتريها من رجفة وهـم لا يفهمون الأمر، ولا يجـدون أي تفـسير أو أي منطـق. عليـك أن تكـوني عنـدها بعـد عشرين دقيقة بالضبط، وأن تذهبي في الحال. وسيكلفك هـذا ثلاثـة آلاف وخمـسمئة كورون، وما من بطاقة اعتماد، ولا وصل. وإذا ما تركت الفرصة تمر فلن تعود قريباً.

ولا تتمكن صديقتي من الكلام أكثر من ذلك.

- سأكلمك ثانية لمعرفة الأخبار، تُوَشْـوِشُ صـديقتي بـصوت أجـش قبـل أن تنهـي المكالمة.

4

ها أنا بعد عشرين دقيقة في زحمة السير، في طريقي مرة أخرى إلى بيت غير معروف. ففي هذا الحي المبني حديثاً، أقيم الديكور بسرعة: سماء جد عالية، وأرض ممتدة في كل اتجاه، ومناطق مستنقعية ولا شيء لتلوذ به المساكن. واستغرق منّي العثور على البيت غير المكتمل وقتاً طويلاً، والطرق لأنها لا تزال قيد الإنشاء، لا يتميز أحدها عن الآخر، من دون إنارة ولا أرقام ولا أسماء. إنها الفوضى التي تسود. ومع ذلك فقد شُرع في إنشاء كنيسة. لكن ما لفت نظري في النهاية إلى العنوان المقصود، كومة من خشب البناء في ممر، هيكل متقن حيث رتبت الأخشاب الأقصر في شكل غريب، كنوع من شبكة العنكبوت المكسورة التي لابد أنها اقتضت الكثير من الحساب. هناك أيضاً صقالة أمام الواجهة، والأرض مملوءة بالحصى، ولاشك أنها تتوفر على الكثير من الأعشاب البرية في الصيف.

إنها لا تشبه الصورة التي كانت لديّ عن بصّارة، بل تذكِّر بالأحرى بفتاة إيطالية جذابة من سنوات الستينيات. إنها جينا لولو بريجيدا بالذات التي تظهر فجأة على الباب من دون أن أطرق، بهيّة، عمرها غير محدد، ترتدي فستاناً ضيقاً واسكربينة. وما يميّزها تماماً عن الناس العاديين، عينان ثاقبتان لهما بؤبؤان صغيران، كرأسي دبوس في محيط من الزرقة.

الداخل عارٍ تقريباً، فهنا وهناك لمبة في طرف سلك، وبعض الأزهار البلاستيكية، وصورة للمسيح بشعر مجعد جميل وعينين مليئتين بالدموع. ويُرى على الحائط أيضاً رسم بقلم الرصاص لهيكل سقف من التراب

مرتفع على تروس. وعلى الرغم من العتمة المتزايدة في الخارج، فالنور يملأ الشقة. وصوت المرأة لا يُنقص شيئاً من جاذبيتها.

وتملّكني السحر، فأصبحت أفكاري شفافة. وتسمّرت على الأريكة، بينما ترتخي عضلات عنقي. أضع رأسي على وسادة مطرّزة وأسألها عمّا إذا كان يزعجها بقائي ممددة عوضاً عن الجلوس قبالتها.

تخلط باستمرار أوراق لعب مُتعبة تصفُّها على الطاولة، وتجمعها، وتشاكل بين أرقام ورسوم بيانية للأحداث، وتقابل ماضيَّ بحاضري. ومن الواضح أنها تقرأني كما تقرأ كتاباً مفتوحاً. فأتضايق لكوني مُعرَّضة بهذا الشكل. لكنها لا تشير مع ذلك إلى أية خيانة زوجية ولا إلى الإوزّة الميتة في صندوق سيارتي الخلفي، ولا تقول كلمة عمّا يبدو أنه مكتوب على جبيني، أو عن المادة الغريبة التي قد تكون لازالت في، وأخشى أن تسيل على الأريكة.

وعوضاً عن ذلك تقتصر على الطفولة وعلى أشياء لم تعد لديّ عنها أيّة ذكرى ولا معرفة، إذ تذكر الكثير من الحوادث المخجلة وتكرّر قصة المطاطة المقطوعة لسروال زهري اللون.

- قد يكون سروالاً، تقول، بلون القشدة، لكنه قد يكون بيجاما أيضاً. ولا أفهم أبداً مقصودها.

- أقول فقط ما تبيّنه لي أوراق اللعب، تذكّري جيداً.

ثم، ومن دون تمهيد، تلتفت إلى المستقبل.

- هنا، كل شيء يجري حسب الرقم ثلاثة، ثلاثة رجال في حياتك على مسافة ثلاثمئة كيلومتر، ثلاثة حيوانات ميتة، ثلاثة حوادث صغيرة أو

بالأحرى ثلاثة حوادث عارضة لا تصيبك مباشرة، وحيوانات ستشوّه، لكن رجالاً ونساءً سيعيشون.

ومن الأريكة، أشير لها بصوت واهن إنني امرأة متزوجة، وكدليل على هذا أرفع يدي بصعوبة، وأنا أداعب باليد الأخرى خاتم الزواج بين الإبهام والسبابة، لكنها لا تلقي بالاً لهذه المعلومة، ولست متأكدة من أنها سمعت.

- ستحصل أشياء ليس للناس أية فكرة عنها، فسيكون هناك الكثير من المياه، وبعض الشهوة، والانغلاق، والمزيد من المياه.

- أي نوع من المياه؟

- إنها لن تتوقف عند الكاحلين، وهذا كل ما أستطيع قوله لك، فمن المستحيل معرفة أكثر من ذلك الآن، لكن يمكن الكلام مع ذلك عن حيوان بحري ثديي ضخم على البر.

وتتوقف هنيهة، ويرين على الغرفة سكون عميق.

- هناك حمل ثلاثي، تواصل، من الممكن أن يكون أحدها ثالوثياً.

ماذا تريد أن تقول؟

- لقد رزق شقيقي بثلاثة توائم من طريق التلقيح الصناعي، وعمرهم سنتان الآن، قلت أخيراً.

- لا أتكلم عنهم، ترد بجفاء، بل عن ثلاث نساء حوامل، وثلاثة أطفال منتظرين، ثلاث نساء سيلدن الشهر القادم.

- هناك حقاً أودور، صديقتي.

من الواضح أنها لا تولي أي اهتمام للمعلومات التي أزودها بها، كما لا تهتم بشخصي أيضاً لحسن الحظ، تبعدني بحركة من يدها، كمراهق ملحاح، بينما يستمر الحديث مع مُخاطَب غير مرئي.

- ثم هناك فتىً طويل، مراهق، وخليج ضيق، وشاطئ رملي، ونباتات قطبية، ومصب نهر، وفقمات على البعد...

والتقاط الأنفاس من جديد.

- ثمة مكسب غير منتظر، مال وأسفار. أرى طريقاً دائرياً، وأرى أيضاً دائرة أصغر. لن تظلّي كما أنت، لكنك في النهاية تقفين ممسكة بالنور بين ذراعيك.

هكذا جرت المقابلة، ومهما كان يعني كل هذا، فقد قالته بالضبط هكذا: ممسكة بالنور بين ذراعيك.

- والخلاصة، تختم بأسلوب محاضِرة خبيرة، هناك سفر، ومكسب، إنها الثروة والحب، مع أن من الممكن حصول بعض الغرائب في الأمر. ومن غير الممكن في المقابل رؤية أي من الرجال الثلاثة سيكون.

ألاحظ وأنا أنهض، أن أوراق اللعب كلها مبسوطة على الطاولة وأنها رتبتها حسب مخطط خاص يُذَكِّر بمخطط أخشاب البناء في الخارج: نوع من شبكة عنكبوت بخطوط مكسورة.

وفجأة يخطر لي أن أوجّه سؤالاً:

- أأنت من رتّب الأخشاب في الخارج؟

فنظرت إليّ بتمعّن، وبؤبؤاها كرأس الدبوس في محيط السائل الأزرق.

- إن معالجة قطع الخشب ليست عمل الرجال. راقبي تسلسل الدوافع، لكن لا تدعيها تقودك إلى الخطأ، إن الانتباه إلى الدوافع يستغرق وقتاً، ولو كنت في مكانك فلن أدع نفسي تنجذب إلى مستنقع وسط الضباب. تذكّري أن المظاهر ربما تكون خادعة.

في لحظة تهيئي لمصافحتها، إذا بها تضمني إلى صدرها قائلة:

- لن تكون فكرة سيئة أن تشتري بطاقة يانصيب.

ويريد ابناها، وهما مراهقان طويلان، مرافقتي إلى السيارة التي لا أذكر مكانها الآن؛ إذ يبدو أنني تركتها على مسافة كبيرة. إنهما يمشيان إلى جانبي بخطوات ثابتة، وكأن عليهما مهمة يقومان بها. ونسير مدة طويلة، بل ويبدو أننا نراوح مكاننا، ومع ذلك فلا أذكر أنني سلكت هذا الطريق في المجيء. وفي اللحظة التي بدأت أحدّث نفسي بأنني في الضياع فعلاً، إذا بالسيارة أمامي، بالقرب من حاجز كسر الأمواج حيث لا أذكر البتّة أنني تركتها. وكالعادة فهي غير مقفلة، وكومة الأوراق في موضعها، مع أنني لا أستطيع التأكيد أن كل الأوراق موجودة. كما لا أهتم بالتحقّق من وجود الإوزّة في الصندوق الخلفي. ولدى استئذاني في الانصراف، أكتشف أن الشقيقين توأمان. وأثناء السير يعتمدان على الرجل اليمنى؛ ونظرتهما غريبة، والبؤبؤ كرأس دبوس أسود في محيط سائل أزرق، وفي لحظة انطلاقي وبينما كنت أستعد لإشارة صغيرة بيدي، وإذا بهما وقد اختفيا.

5

هو في البيت. أتباطأ على العشب المتجمّد قبل الدخول، لأتأمّل بيتي المضاء. وأتردّد مع الإوزّة في يدي، متسائلة إذا ما كان يبدو عليّ، وإذا ما كان سيلاحظه. ومن مكاني أنظر إليه يتنقّل من غرفة إلى أخرى، من دون هدف كما يظهر، وهو ينقل بعض الأغراض من مكانها، ويطفئ اللمبات ويعيد إشعالها خلفه. وأمرّ من ثم من نافذة إلى أخرى لهذا البيت المضاء، وكأنني أمام بيت للعرائس من دون واجهة، لألملم قِطع حياة زوجي.

هاهو بعدما أفرغ الغسالة، يقف في الغرفة، وكل الغسيل بين يديه؛ إنه لا يفعل هذا في العادة. كما أنه لا يهتم بالإصلاحات، لكن يبدو أنه استبدل اللمبة فوق باب المدخل وأصلح باب خزانة الحائط في المطبخ. وفجأة يتحوّل إلى النظر من النافذة، في الظلام، وأشعر بأن عينيه تحدّقان فيَّ، وهما تتفحصانني طويلاً، وأنه يتساءل عما إذا كانت رابطة تربطني به، وعمّا إذا كنت سأدخل أو أتلكّأ في الحديقة. كان عاري الصدر، وهو ما لابد أن يُشعره بالبرد مع الغسيل المبتل بين ذراعيه، إلا إذا كان شعر صدره يقدّم له بعض الحماية؛ وعندما ينحني على السرير، أتخيّل للحظة أن أحداً نائم فيه ولا أراه، وأنه سيستلقي هو أيضاً إلى جانبه. وينتصب عندئذ فجأة، ممسكاً بسروالي السماوي الرطب وهو يَمُطّه ويُمَلِّسه بحذر بيديه الكبيرتين. ثم يُعلِّقه على المَنشر الذي نصبه قرب السرير؛ وألاحظ ملاقط الغسيل في أطراف الملابس الداخلية. إنه غائب عن البيت غالباً ولا نتحدث معاً كما في الماضي، لكن لي زوجاً طيباً وأعرف أن هذا خطأي: إذ لم أمر على السوبر ماركت للتسوّق.

6

من الواضح أنه رتّب المطبخ، ولكنه ترك صحناً لي على المائدة مع الشوكة والسكين مع الفوطة. ومرتدياً قميصاً وربطة عنق، وكأنه متوجّه لاجتماع عمل مهم، استعمل قفازات زرقاء لإخراج صينية اللوزانية من الفرن. ولم يجلس إلى المائدة معي قائلاً إنه يريد التحدّث إليّ، إذ يجب أن نتحدّث بعضنا إلى بعض، وأن الأمر صار ضرورياً، ولهذا يسير على البلاط في خطوط مستقيمة، من المائدة إلى الثلاجة ومن الثلاجة إلى الفرن، من دون أن أتمكّن من تبيُّن خطّة موجِّهة. يداه في جيبه ولا ينظر إليّ. أجلس على مقعد المطبخ، مستقيمة الظهر، وأنا لا أزال بوشاحي.

- لم يعد الأمر على ما يرام.

- أي أمر هو الذي لم يعد على ما يرام؟

- لا شيء، أقصد، كل شيء، ماضيك في الخارج الذي أُستَبعد منه. في البداية كنت أشعر أن الغموض الذي يحيط بك مثير للاهتمام، أما الآن فيثير أعصابي، أشعر بأنني لا أصل إليك، فأنت دائماً منزوية، تفكّرين في شيء آخر غيري، ومقبول أن يحتفظ المرء بخصوصيته، لنقل خمسة عشر بالمئة، ولكن لديّ انطباع جليّ بأنك تحتفظين منها بخمسة وسبعين بالمئة لنفسك حصراً. إذ إن العيش معك يعني أن يظلّ المرء في مستنقع وسط الضباب من دون توقف، يتلمّس من دون أن يعرف ما سيجد أمامه. ماذا أعرف، في النهاية، عمّا فعلتِ خلال تسع سنوات في الخارج؟ أنت لا تقولين شيئاً عن حياتك قبلي وهذا يعطيني الانطباع بأنني مُستَبعد.

ألاحظ أنه يتكلّم عن المستنقع والضباب كمحضّرة الأرواح.

- لم تطرح عليَّ أسئلة قط.

- أنت لا تفصحين عن أيّ شيء عنك، أنت ككتاب مغلق.

أشعر بالألم يعتصر قلبي.

عندما كنت في السابعة، أرسلوني للمرة الأولى وحيدة إلى الريف في شرقي البلاد مع زُوّادتي، أي ثلاث عشرة ساعة بالحافلة في طريق مليء بالحفر وبالغبار الذي يصرّ بين أسنان الركّاب، في شمس بداية حزيران الباردة. والتجديد الباهر، ذاك الصيف، كان خدمة المضيفات في الحافلة، وهو ما أثار إقبال الكثيرات، لأن المضيفات كنّ يرتدين، كمضيفات الطائرات، طقماً وجوارب من النايلون وقبّعة مستديرة مربوطة تحت الذقن. والدور الرئيس لمضيفة حافلة، عدا جلوسها بأناقة على وسادة محشوّة إلى جانب بدّال السرعة، في مواجهة الركّاب، والتحدّث إلى السائق، يمكن تلخيصه بتوزيع الأكياس المخصّصة للتقيّؤ. فعندما انتهيت من التقيّؤ في الكيس البنّي، رفعت يدي كما أفعل في المدرسة وجاءت المضيفة لتطوي طرف الكيس قبل أن تحمله إلى المقدمة. وقد رأيت كيف تضغط بطرف اسكربينتها على قضيب قصير قرب باب كان يُفتح عندئذ محدثاً ضجة تشبه ضجيج آلة الكوي في مصبغة، وبحركة لطيفة من ذراعها، كانت ترمي الكيس الورقي في حفرة إيسلاندية. أما السائق الذي لم يكن يتنازل عن الخمسة والخمسين كيلومتراً في الساعة، فقد كان مسروراً لعدم إزعاجه في حديثه مع آنسة الوسادة. ولدى تذكّري كل ذلك، يبدو لي محتملاً أن لا تكون المضيفة مرتدية قبعة بل لِفاعاً بالأحرى. وكنت أظن عندئذ أنها والسائق زوجان أو كانا خطيبين، وأنا متأكدة الآن أنها تخرّجت لتوّها من الثانوية التجارية بينما كان الرجل يقود حافلته منذ عشرات السنين.

هاهو يجول من جديد في المطبخ طولاً وعرضاً، يحلّ عقدة ربطة عنقه الخضراء الجديدة، وكأنما نقص الهواء في نهاية صيف خانق يسبب له ضيقاً في التنفس. إنه يخرج بالطبع من عند الحلاق ويرتدي قميصاً لم أره عليه قط.

- يمكن أن نأخذ على سبيل المثال طريقتكِ في اللباس.

- كيف ذلك؟

- بناء على ما يقوله الآخرون لي، فإن نساءهم يشترين ملابس داخلية من **أنت وأنا**.

- أنا كما أنا وأنت كما أنت ونحن كما نحن، ولست نساء الآخرين وأنت لست هم.

- هذا بالضبط ما أعنيه مع كلامك المفكك: فلا يمكن أبداً التحدّث معك.

- أنا آسفة.

- إن الرجال أكثر حساسية لهذه الأشياء مما تظنّين. إذ يمكن أن يكون المرء حييّاً، لكنه يفكّر فيها مع ذلك.

- أود جيداً أن أصدّق هذا.

ويبدو عليه الشعور بالإهانة.

- ثم هناك شيء آخر. إذ يكفي لمس القاطع حتى تحترق اللمبة، فليس عادياً أن أشتري لمبات كلما ذهبت للتسوّق: لحم مفروم ولمبات، فخذ خروف ولمبات، لقد أصبحت رجل اللمبات لدى عاملة الصندوق.

- ينبغي ربما إجراء فحص للتمديدات الكهربائية.

ويعود من جديد إلى المشي ذهاباً وإياباً.

- وكأنما لا تريدين أن تكبري، إنك تتصرّفين أكثر الأحيان كطفلة على الرغم من الثلاث والثلاثين سنة، تقومين بأفعال غريبة، طائشة، فلاختصار الطريق، تجتازين حديقة أناس مجهولين تماماً، بالقفز على السياج أو عبر الأعشاب. وعندما تُدعَيْن، تدخلين من الباب الخلفي، أو حتى من باب الشرفة، كما فعلت عند سفيرير، وهو ما يمكن أن يُفهم لو أنك كنتِ ثملة.

- كان باب الشرفة مفتوحاً على الحديقة ونصف المدعوّين في الخارج.

- تقضين وقتك في النسيان، وتصلين الأخيرة عند مضيفينا، ليس معك ساعة، ثم إنّك تختارين الطريق الأطول للوصول إلى أي مكان.

- لا أدرك قصدك.

- كما عندما تسلّقت إلى منتصف السارية مع العلم الإيسلندي بين ذراعيك.

- حسناً، لقد كنا مدعوين، وقد اشتبك الحبل، وما كان أي شخص يعرف كيف العمل، وكان العلم المنكس متدلياً بشكل محزن، كفأل وشيك بنوبة الربو التي أصابت سفيرير فيما بعد، مساء ذكرى ميلاده بالضبط.

- وهي المرة الوحيدة التي سُرِرت فيها لأنك ترتدين البنطال وليس التنورة. ويعلم الله كم تمنيت أن تشتري طقماً مع تنورة.

- كان من السهل أن تطلبه مني مباشرة.

- وهل كنت فعلته من أجل خاطري؟

- لست متأكدة من ذلك، إذ كنت أظن أنك تحرص على شعوري بالراحة.

- ألم أقل لكِ؟

- أشعر بأن طبعي نزق أحياناً.

- نزقة، بالتأكيد، إذ يمكن دائماً صياغة الأشياء بأناقة.

ويتجه سريعاً إلى غرفة المعيشة ليعود وبين يديه معجم اللغة الإيسلندية في مجلّدين؛ ويأخذ في تقليب صفحات المجلّد الأول بعصبية.

- كلمات، كلمات، كلمات، بالضبط، فكل حياتك تدور حول تعريف الكلمات. حسناً، ها هي، **نزق**: حاد، اندفاعيّ، متحمّس، متسرّع، غير واعٍ، متطرّف، غريزي، طائش. ألا تودّين أن تقولي لي ما المعنى بالهنغارية؟

ويتعدّى غضبه كثيراً الذريعة التي تسببت به.

وبينما أنا جالسة على المقعد بقرب المائدة، ألمح فراشة تحوم حول آلة تحميص الخبز - وهذا جدير بالملاحظة في هذا الوقت من السنة-، وها هي تحطّ الآن قريبة جداً مني على الحائط وتبقى ساكنة، من دون أن تحرّك جناحيها الفضيين؛ وإذا ما نفخ المرء عليها بعض الهواء الدافئ، فسيدرك بوضوح أنها لا تزال على قيد الحياة. أبتلع ريقي مرتين وأسكت.

- لقد كانوا زملائي في العمل، وكانت نينا ليند هناك أيضاً، إنها تتذكر الحادث جيداً. ترى ما كان شعوري عندئذ، في رأيكِ؟

- من هي نينا ليند؟

- إن شعرك أقصر من شعري، قال وهو يمر بيد ضجرة على شعره.

وأخرج اليد الأخرى من جيبه.

- ثم؟

- ثم هناك أصدقاؤكِ.

- ما بهم أصدقائي؟

- كهذه الأودور، إنها مسلّية في بعض الجوانب، لكنها فائرة تماماً، مع هذا الجنين الثاني من دون أب على كاهلها.

- إنه شأنها.

- شأنها وليس شأنها. منذ عام انتقلنا إلى هنا ولم نُفرغ بعد كل الطرود. وكأن البيت لا يهمّكِ كثيراً.

- ينبغي أن نجد الوقت لهذا معاً.

- إن لديك تصوّراً غريباً للزواج، وهذا أقل ما يقال، تخرجين للجري ليلاً، ولا يُهيَّأ العشاء في الساعة ذاتها أبداً. وفيما عدا الصقليين، من غيرهم في رأيك يأكل اسكالوب العجل في الحادية عشرة مساءً؟

ويوم ثلاثاء، أعود إلى البيت، فأجدكِ قد حضَّرتِ مأدبة من أربعة أطعمة من دون أية مناسبة - مأدبة عشاء نويل في شهر تشرين الأول؟ بينما أحاول المرور بين الأحذية الرياضية حاملاً بيزا مُتَبَّلة، لأجد على الأقل شيئاً آكله. ومن قام بالتسوّق هذا المساء؟ فما من نظام في حياتكِ، ولا يمكن الاعتماد على شيء. من الصعب العيش مع هذه التقلّبات وهذه المبالغات المستمرّة.

- أنت نفسك تعمل غالباً إلى ساعة متأخرة من الليل، أو تكون مسافراً في الخارج، ولم تُمضِ هذا الشهر إلا أربع ليالٍ في البيت.

- أخيراً، أنت تتحدثين بإحدى عشرة لغة تعلّمتها بسهولة، كما تقول أمك، فماذا تفعلين بكل هذه المواهب؟

- أستعملها في عملي.

- كان من الممكن لطفل أن يغيّرك، ويدوِّر الزوايا. ولكن أي أم تسمح لنفسها بالسلوك مثلك؟

وكان لابد من الوصول إليها، المناقشة حول الطفل. لكنني واقعية، وإذن على وفاق معه: إذ لم أخلق حقاً لأكون أماً، لتنشئة كائنات إنسانية جديدة، ولا أعرف شيئاً البتّة عن الأطفال، وليست لديّ أيّة أهليّة يقتضيها الاهتمام بهم. ولا أشعر بعاطفة عذبة إزاء مشهد الأطفال الصغار؛ بل أشتم رائحة حموضة وأتمثّل ضجيجهم الدائم، ولثّاتهم المتورمة، والمريلة المبتلّة، والوجنات الدَّبقة، والذقن المحمرَّة، واللعاب على الذقن. وعلى كلٍّ فليست حرارة الأمومة هي ما يلتمسه الرجال فيَّ، ولا ثدييَّ اللذين يجذبانهم خصوصاً.

علاوة على أن العالم يغصّ بالأطفال، والسيارات على طرق البلاد مملوءة بهم، وأُعاين هذا بنفسي. ففي كل محطة بنزين، يترك آباء ثلاثة أو أربعة أطفال بسن ما قبل المدرسة يفلتون؛ إذ يجب إعطاؤهم المقانق والمثلجات، وبعد هذا يُحشرون من جديد في السيارات، ملطّخين بالشوكولاته حتى الأذنين، تفوح منهم رائحة الخردل. والأبوان متعبان، لا يتكلّم أحدهما مع الآخر، إنهما لا يجدان نفسيهما، ولا يريان النباتات القطبية ولا جبل الجليد بسبب الأطفال المرضى في السيارة. وفي الغابة، على أرض التخييم، يختفون في كل وقت وما من وسيلة لتصفّح المرء معجم المُترادفات بهدوء أمام خيمته لأنه دائماً متحفّز، كما أتخيّل. فبعض أصدقائنا لم يناموا ليلة كاملة منذ سنوات، ولا يمارسون الجنس إلا على عجل من وقت لآخر، وعندما يأتي أحد الزوجين لأخذ الآخر من العمل، لا يقبّل أحدهما الآخر كما في الماضي. ويشيح بوجهه للنظر من النافذة. وهذا أعرفه، لأنني رأيته، وليس هناك إلا القليل من الأزواج الذين يقاومون واقع إنجابهم للأطفال.

- ينبغي على الأقل أن تنظّمي أمورك بشكل أفضل، وإلا فلن تصلي إلى شيء، لو كان لدينا طفل، يعلن في مواجهة خزانة المكانس.

وبتركيز المرء انتباهه إلى الدرجة القصوى، يتمكن من قراءة صفحتين على التوالي. إلا أن سكوناً مشبوهاً يسود حول الطفل: إذ ثمّة شيء عالق ولاشك في حنجرته. ولهذا ينبغي الذهاب للتحقّق كل أربعة أسطر. فالأم مشغولة دائماً إمّا بخلع كنزة الصغير، وإما بإعادة إلباسه الكنزة، وإلباس **باربي** جواربها واسكربينتها، وبالبحث عن مفاتيح باب المدخل بينما الصغير نائم على الذراعين. وليست هذه طريقتي حقاً. فأستغل المناسبة لأردّ عليه بجملة من سيناريو صحّحت مسودته:

- تظهر إحدى صفات العلاقة الغرامية الضعيفة عندما يعتقد الناس أن عليهم إنجاب الأطفال.

وعليّ أن أقر أن هذا، قرأته، لأنه من غير الممكن أن يعيش المرء كل شيء شخصياً. لكنني أضيف إليه لمسة شخصية صغيرة:

- ولكن من الممكن ربما تبنّي - خلال أعوام - صينية صغيرة على سبيل المثال، فهناك ملايين من الصغيرات الفائضات عن الحاجة في الصين.

- حقاً، عندما لا تتكلمين كما في سيناريو أو كتاب لتنمية الشخصية، تتصرّفين كأنّك تعيشين في رواية، وكأنك لا تتكلمين باسمك، وكأنك لست هنا.

- أنا لست أنا كارنينا على رصيف محطة، على كل حال.

- لا أفهم قصدك.

- أنا لا أقرأ حقاً كل ما أصححه، كما لا آخذه على عاتقي.

- لكن تذكري شيئاً، إن الرجال ليسوا مهيئين جميعاً منذ الصباح لتذوّق الدقائق اللغوية مع فطور الصباح.

- ماذا تريد أن تقول؟

وينهض ويضغط بإبهامه على زجاج النافذة بشكل عفوي، إلى جانب جناح الفراشة تماماً.

- ليس من السهل دائماً معرفة ما يدور برأسك. إن الآخرين يتحدثون وهم يُخرجون شرائح الخبز من آلة تحميص الخبز، على سبيل المثال: الخبز جاهز، أتريد مربّى أم جبناً؟ إن الناس يتحدثون عن أشياء بسيطة. أشياء تهم زواجهم، خذي الغسيل مثلاً، فهل تساءلت عما إذا كانت لدي رغبة في الكلام عن الغسيل؟ فأنت لست مستعدة أبداً للحديث عنه. إذ غسلتِ مؤخراً قمصاناً لي مع سراويل لك حمراء، صحيح أنني كنت أهديتك إياها، وعلى كلٍّ فلا أذكر أنني رأيتك قط ترتدينها. وليس هذا كل شيء.

- حقاً؟

- كلا، أريدك أن تعلمي بأنني تحدثت إلى مستشار في الحياة الزوجية، وهو من رأيي.

- في أي موضوع؟

- أنتِ، وقد كانت له تجربة مماثلة مع زوجته الأولى.

وبينما أنا جالسة بهدوء على مقعدي، أرفع إلى شفتي كأساً من الماء، أتوقّع تقريباً ما سيقوله، وأن لدي فكرة عنه وتترافق هذه الفكرة بشعور بأنني سبق لي رؤيتها، من دون توقع للخاتمة، حسنة أو سيئة.

- ثم هناك نينا ليند.

- من تكون؟

- إنها تعمل في المكتب، في المقسم، وهي تهتم الآن بالفوتوكوبي. وستدرس الحقوق. ويغوص الصوت ويختفي في فتحة القميص، وتخرج بعض الشعرات من العراوي.

- حسناً، إنها تنتظر مولوداً.

- وماذا بعد؟

- حسناً وأنا أيضاً، معها.

- أهي التي كنت تقول عنها إنها تلاصق كل الرجال خلال حفلة عيد الميلاد في العام الماضي؟

- لم تعد كذلك الآن. عليكِ أن تعلمي أيضاً مع معارفك الواسعة - يقول بتهكّم - بأن انتقاداً غير مبرر من رجل قد يمثّل إعجاباً خفيّاً، فالرجال ليسوا ضد النساء اللواتي يتمتّعن ببعض الخبرة. ويجب عليّ أن أعترف بأنني تمنّيت لو أنّك اكتسبت خبرة أوسع في هذا الميدان.

ألاحظ عرضاً أنه استعمل مفهوم السعة مرتين. ولو كنت أصحّح مسودة لشطبت الاستعمال الثاني آلياً، من دون أن أطرح أسئلة عن النص.

- وأنتِ لا تعرفين حتى المغازلة، ولا تلاحظين شيئاً عندما ينظر الرجال إليك. ويضيق الرجل ذرعاً عندما تبدي امرأته للعالم أنها غير حساسة للاهتمام الذي يوليه العالم لها.

إن الأمر أقوى مني، إذ لا أستطيع أن أمنع نفسي من ملاحظة أنه يستشهد بالعالم مرتين.

- بالإضافة إلى أنها تغيّرت، فانتظار مولود يغيّر المرأة.

- متى موعد الولادة؟

يتنحنح مرتين.

- بعد ثمانية أسابيع تقريباً.

- ألا يبدو حملاً قصير المدة بالأحرى، كما هو لدى الخنازير الهندية؟

- بدأ الحمل منـذ بعـض الوقـت، ولـيس الأمـر كـما لـو أننـي قمـت بخطـوة غـير محسوبة، إذ لا يتعلّق الأمر بنزوة عابرة، على الرغم مما يمكن أن تظنّي.

وجهه محتقن ويداه غائصتان في جيبه.

- كيف تعرّفتما على بعض؟

- بالقرب من آلة تصوير الوثائق على ما أذكر.

- متى؟

- لنقل إن الأمر أصبح أكثر جدية بعد حفلة عيد الميلاد.

يتحرّك حول الثلاجة، ويخرج منها علبة حليب ليملأ كأساً. لم أكن أعلم أنه يـشرب الحليب.

- يا إلهي، منذ متى هذا الحليب؟ نحن في 25 تشرين الأول وقد انتهـت صـلاحيته منذ أيلول.

- ماذا لديها أكثر مني؟

- المسألة ليست في أن لديها حتماً شيئاً أكثر منك، لكنها في عدّة جوانب أكثر أنوثة، مع ثديين، وغير ذلك...

- وأنا، أليس لدي ثديان؟

- ليست المسألة في أن لديك ثديين أو لا، لكنها، عـلى سـبيل المثـال، لم تـذهب إلى كوبهاغن من قبل، ولديّ انطباع في أنني أعلِّمها بعض الأشياء.

- هل ذهبت معك إلى كوبنهاغن مؤخراً؟

- في الواقع، نعم. وكما كنت أقول، لقد كان كل هذا في حالة اختمار.

- وإلى بوسطن أيضاً؟

- لقد كانت فرصة لزيارة ابنة عمها.

يشغل نفسه حول النبتة الخضراء على دعامة النافذة، ويملأ كأساً من الماء ليسقيها، ثم يضغط على التراب حول الساق بأصابعه، ولم أره قد يهتم هكذا بنبتة في الأصيص.

- أتحبّها؟

بتأنٍّ ينهي انشغاله بالنبتة ويغسل يديه المتسختين بالتراب في المغسلة قبل أن يجيب.

- نعم، تقول إنها تحبني ولا تستطيع العيش من دوني.

وعندئذ تعود إلى ذاكرتي بعض الإشارات التمهيدية: عندما أخذ فجأة يترك في الشقة رسائل هنا وهناك، كاتباً «لن أنساك أبداً» على ظهر فاتورة الكهرباء غير المسدَّدة، بينما يعرف تماماً أنني الوحيدة التي تقوم بمهمة تسديد الفواتير. وعلى كلٍّ، فلم أنتبه إلى العبارة إلا في البنك، عندما ختمت أمينة الصندوق وقد احمرّ وجهها الورقة مرتين. أو هذه الكلمات المتقاطعة التي كان يصنعها ويتركها بالقرب من الهاتف: عمودياً من خمسة أحرف، **أحب**؛ أفقياً من تسعة أحرف، **ندم**؛ عمودياً من خمسة أحرف، **جبان**، ثم **اشتهى، أضاع، نذل.**

- إنها خيبة أمل كبيرة بالنسبة لي، أن الأمور لم تجرِ على ما يرام بيننا، أريدك أن تعرفي هذا.

نجحت في ازدراد لقمتين من اللازانيا بالسبانخ وأجتهد في التقاط الثالثة بشوكتي.

بعدما أنهيت ابتلاعها، أرتّب وشاحي وألفّه حول عنقي.

- شكراً للطعام. متى تغادر؟

- أنا ونينا ليند، نفتّش عن شقة، وسنتفقد واحدة غداً. وحتى ذلك الوقت سـأكون عند أمي.

في ضوء كـل مـا جـرى في هـذا اليـوم ذاتـه، مـن الواضـح أن المـصادفات تميـل إلى التزاحم. فهذا اليوم انفصل رجلان عني، وأشعر بـأنني كـسجين أعـان زمـلاءه الـسجناء على الهرب بإعارتهم ظهـره. لكننـي لازلـت قـادرة عـلى أن أدهـش نفـسي بنفـسي، إذ أستطيع إصلاح نفسي.

- كنت سأطهو إوزّة في نهاية الأسبوع.

- إوزّة، أين عثرت عليها؟

- في جمّادة أمي.

- أنا مشغول تماماً للأسف.

- هيّا، فعلى كل إنسان أن يأكـل؛ ولـيس هـذا كـما لـو أننـي أطلـب منـك ترتيـب الغاراج.

- حسناً، سيكون ظريفاً أن نتعشى معاً.

- ليس لدينا إلا اعتبار هذا كوجبتنا الأخيرة، مأدبة نويل.

ولا يقاوم الإغراء.

- سآتي على كل حال، فمن الحماقة إضاعة فرصة أكل إوزّة.

7

لا أدّعي أنني أحبّ الطهو، لكن من يعرف القراءة يستطيع الطهو، وهذا كل شيء. ويتمكّن المرء من تصفّح كتاب للوصفات باللغة الأصليّة، وحيداً في سريره، مساءً. إذ أعثر على محطة إذاعية مقبولة، وأضبط صوت الموسيقى حسب رغبتي، وآتي بالإوزّة من الشرفة وأشرع في العمل.

إنه مغنّي راب، لا يزال طفلاً أو يكاد، الذي يأخذ في لعن أمّه. وهكذا يمكن للمرء التنبؤ بنكران ذريّته للجميل، فأقدّر أكثر من أي وقت مضى كوني من دون أطفال. إن الصبيان في هذا السن بَشرتهم حسّاسة، وينبغي أخذ موعد لدى طبيب الجلدية ستّة أشهر مسبقاً، ومعالجتهم بكريم الكورتيزون الذي سيفاقم من طبعهم الاحتجاجي. إنهم يكبرون بسرعة، ويستيقظون معكّري المزاج، ولا يهتمّون بتهوية غرفهم؛ وإذا ما رتّبوا أسرّتهم، يشعرون بأنهم اعتنوا بالمنزل شهراً كاملاً؛ ويحتفظون بمعاطفهم الواقية في حفلات الميلاد، ولا يفكّون من غرفهم حبال زينة نويل المضيئة مع أن عيد الفصح يكون قد مضى، ويجمعون الأحذية الوسخة تحت أسرّتهم.

الطبخ، يعني أن يتثقّف المرء وهو يقرأ، إنني لا أتذكّر أبداً الوصفات، لكنني أتّبع التعليمات بدقّة، بحيث أتقن الأطعمة الأكثر صعوبة التي تستغرق وقتاً طويلاً، والموسيقى في أذنيَّ. فعندما أحضِّر دجاجة بالليمون والزيتون، أضع **صحراء**، للشاب خالد، وعندما أصنع الحساء باليقطين، إنه **بينتوب بيركفن**؛ ولعرانيس الذرة المشوية، روبن غونزالس، وعندما

أشرع بـ**الباكلاه على الطريقة الليفورنيه** إنه جيانماريا تيستا؛ أما دفورجاك أوليست فيشغلان أذنيَّ عندما أحضر الكريب بالجوز؛ ومع أنني لست من معجبي شتراوس إلا أنه يناسبني عندما أحضّر أطعمة ألمانية؛ وتترافق يخنة الخروف الإيسلندية ببعض مقطوعات بيارني ثوريستينسون؛ وأضع مع البورتش أو ملفوف موسكو المحشو المتتاليات السيمفونية لبروكوفييف. وقد لا يكون هذا خارقاً للعادة، لكنني لست أوّل من يعمل الملفوف المحشو.

وإذا ما سُئلتُ: ولكن كيف صنعت هذا؟ يكون جوابي: لقد بحثت عن **الإوز** في الفهرس، وقرأت الوصفة ثم اتّبعتها؛ حتى أن صوراً كانت تبيّن الطريقة، مرحلة فمرحلة، مع يدي رجل ثابتة ونظيفة. وما من علاقة بين المهارة في الطبخ والأهليّات الأخرى في الحياة؛ إذ لا حاجة، على سبيل المثال، أن يكون المرء لطيفاً مع الأطفال، أو مع أيٍ كان بصورة عامة، ليكون طاهياً جيداً.

وضعت الطائر على حافة المغسلة وإذا بجرس الباب يُقرع. إنها جارتي في الطابق الأسفل وهي تحمل بين ذراعيها قطة البيت.

- إنني أفهم ما تشعرين به. فها نحن إذن اثنتان مطلّقتان في البناء.

فأسألها كيف عرفت؛ لأنني عرفته أنا نفسي لتوّي ولم أتكلّم عنه لأحد.

- أعرفه منذ هذا الربيع، تقول وهي تداعب قطّتها. إنه أمر حسن أن يُصَرَّح به أخيراً، تقول وهي تمدّ للمرة الرابعة كأس الشيري الفارغ. وعلى كل، لا ينبغي الاكتراث إذا ما وجد الرجال أنها فتاة جميلة، فليس لديها شيء غير عادي.

وقـد انخفـض مـستوى الـشراب في الزجاجـة عنـدما تـستأذن بالانـصراف. فأستطيع الانهماك تماماً بالطائر. ومن الواضح أنه يجب البـدء مـن البدايـة، أي الوجه الخارجي، نتف الريش، كما يقول الكتاب. كيف السبيل إلى هذا؟ أهتـف لأمّي التي تخبرني بأنها كانت ستكلّمني لتوّها، لأنهـا عـثرت عـلى حـذاء التـزلّج القديم العائد لي.

- سيعود جديداً عندما أُلَمّعه.

أما فيما يتعلّق بنتف ريش الإوزّة فرأيها أنه شأن شخصي: ريـشة فريـشة أو بمـلء اليدين، وهو ما يؤدي النتيجة ذاتها، لأن القصد تعرية جلد الإوزّة. ثم حرق ما يتبقّـى من الوبر لجعلها مقبولة. ورجتني أمّي أن أسلِّم على ثورستين.

- فقد ساعدني على نقل خزانة مؤخراً، ويبدو لي أنه نَحُل هذه الأيام، تقـول وهـي تقفل الخط.

لست متأكدة من أنها على خطأ وأقفل الخط بدوري.

ويُظهر الحيوان وهو عارٍ طبيعتـه كطـائر. وبمـا أنـه لـيس لـديّ أدوات فعّالـة، كشعلة اللحام، أو موقد غـاز، أجمـع مـا لـديّ مـن شـموع، وأشـعل كـل الـشموع الموجودة على الطاولة، الحمراء والمذهّبة والمعطّرة، وأشرع في العمـل. والفراشـة لا تتحـرّك عـلى الجـدار، حتـى عنـدما يقـترب عـود الكبريـت منهـا، إذ تظـلّ سـاكنة وأجنحتها مطويّة.

خطر لي أيضاً أن أفاجئـه بـدعوة ضـيوف آخـرين، وشـكّلْتُ القائمـة عقليّـاً، متخيّلة دعوة اثنين من زملائه الـذين، بعـد الـتروّي، لا يتوافقـان مـع المناسـبة، وصديقة له شغوفة بالفروسية، ومتخصص بالأعمال مـع الـشرق الأوسـط وهـو

صديقي منذ الطفولة، إضافة إلى ممثلة من معارفنا، وأخيراً عازفة البيانو، صديقتي الوفية أودور. ولن أدعو أية أرملة، لا أمّه ولا أمّي، لأن العشاء ليس للتآلف بل هو آخر وجبة، حيث ستنحاز هذه أو تلك لابنها أو ابنتها.

تتدلّى الرقبة من حافّة الطاولة، إنها إوزّة غير عاديّة، تم اصطيادها بطريقة غير معتادة، ربما مبعوجة قليلاً، مع كتف مخلوع بالطبع، لكنها ليست مشوّهة كثيراً، أكثر من إصابتها برصاص صيّاد. وهكذا لن تنكسر أضراس المدعوّين وهم يلتهمون هذا الطائر من دون رصاص في الجناح الذي سيكون في غاية الطراوة، لأنه لن يضطر للفرار من وجه الصيّادين لمسافة طويلة ولا حتى لإفراز الأدرينالين قبل لحظة صدمي له فقد كان من المستحيل على الإوزّة توقّع الصدمة.

وما يمكن أن ينقص سيعوّض بالحشوة. إذ لا يجب التقتير في التوابل، ولكن من دون تعدّي الحدود - وهو مفهوم لا يدركه كثير من الرجال. فأنا لا أتعدّاها، حتى وإن لم أكن بعيدة عن ذلك، إذ لن يصل بي الأمر إلى حد تسميم زوجي، لأجعل من الطفل الوشيك الولادة يتيماً. كلا، فالطفل بحاجة إلى أب، والولد بحاجة إلى والده.

لقد ضحك الطبيب. ما من أب، هه؟ وصُنِع هذا لوحده؟ كما حدث مع مريم العذراء قديماً؟ حقاً، إنك فتاة ماكرة، ستصيرين امرأة جد فاتنة مع الأيام. لو تستطيعين فقط البقاء هادئة للحظة من دون أن تتلوّي باستمرار مثل الدودة.

أتساءل في هذه الآونة: هل يتذوّق زوجي الطعام الفاخر؟ وهل اختياره لي دليل على سلامة ذوقه.

إن إحدى المزايا الكبرى لزوجة رجل يسافر كثيراً إلى الخارج لأعماله، هي توافر مؤن في بار الصالون لإصلاح طبخة غير ناجحة أو مرق. ثم إن الكحول قبل المأدبة يخفف من حدّة حكم المدعوّين ويزيد من ثقة تلك التي تنشغل بالطهو، على أن لا أبالغ في احتساء هذه الجعة المصفرّة بالليمون.

لم تبق الإوزّة مدة طويلة بحيث تفسد، وهذا واضح. إذ أتفحّص جلدها بحثاً عن بقع بُنّيّة قد تشير إلى أن الطائر كان مريضاً. ولن يؤدّي هذا إلى التسبّب في الموت، بل إلى بعض الإسهال الشديد.

من الأفضل بعد التفكير، تقطيع الأجزاء البيضاء، وعمل مرق كثيف دسم لإخفاء آثار العجلات. لكنه سيرى الخطوط على اللحم عندما يُبعد قليلاً غطاء المرق الرقيق. وسيكون هذا مثل العثور على اللوزة في الرز بالحليب يوم نويل. وعندئذ سألفت انتباهه، وسأجعله يرفع عينيه - ليس نحوي بالضرورة - وسأقول له:

- حسناً، سنة جديدة سعيدة سلفاً، وشكراً لسنوات زواجنا الأربع، إضافة إلى مئتين وخمسة وثمانين يوماً وسبع ساعات.

أفتح الطائر، وأنزع منه قلبه الدامي، مندهشة وأنا أنعم النظر في أحشائه، القلب من الصغر بحيث يملأ قبضة طفل حديث الولادة.

ألثم راحة اليد الصغيرة المدمّاة وألوّن شفتيَّ بلون الدم الأحمر القاني. فهكذا كان بيرغيسفين، رفيقي في المدرسة الابتدائية، بشفتين حمراوين، أما أنا فكان شعري كستنائياً طويلاً، وحدث مرّة أن قال له مدرّس التربية الدينيّة أن لديه شفتين للتقبيل. فاحمرّ وجه بيرغيسفين، وهو ما زاد من تدفّق الدم إلى شفتيه. كان مدرّس التربية الدينيّة رجلاً متزوجاً، وكان يبدو لنا أن

من الواضح أنه كان يمزح لمصلحة فتيات الصف. بعد هذا الكلام، كنّا نعرف، نحن رفيقات بيرغيسفين في المدرسة، أن الشفاه لا تصلح جميعاً للغاية ذاتها. وهكذا تتعلم امرأة فجأة ما يمكن توقّعه من الحياة.

فصل الأصابع الصغيرة عن القلب بالإمساك بها واحداً واحداً، كما تسحب قابلةٌ وليداً ملطّخاً بالدم من أمه ذات الخمسة عشر عاماً لتسليمه للتبنّي، من دون أن تتمكّن وهو يصرخ، أن تميّز إذا ما كان ذكراً أم أنثى. البعض يقولون إن بكاء الذكر أكثر رقّة من بكاء الأنثى، وأولئك الذين ليس لديهم أي شعر على الرأس، تغص رؤوسهم بطاقية صغيرة سماوية اللون. لكنه، على العكس، يُظهر ناصية داكنة. والمرأة تأتي من شرقي البلاد، ولم تعد فتيّة، لا أراها إلا هنيهة، ورأسي مخبّأ تحت وسادتي. من غير المؤكّد أن تسمع أصوات البكاء، فالممر طويل جداً، إضافة إلى أن آلة صنع القهوة الكهربائية تأزّ، وأن تغريد طير الزقزاق الواصل حديثاً من نصف الكرة الجنوبي يدخل من النافذة. لأنه الربيع، ويفوح عطر المرأة التي تمضي، حاملة الطفل. وهي جالسة في خلفية السيارة، ممسكة بالرضيع المُدَثّر بغطاء أزرق؛ وزوجها وحيد في الأمام.

أستطيع بالتأكيد الرجوع إلى كل أشكال التنويعات المحلية لوصفات الدجاج والحمام أو البط، ونقع الإوزّة، ودهنها بالزبدة، وتتبيلها بالفلفل المطحون والزعتر القطبي أو تركها تُشوى بهدوء في الفرن، في حرارة منخفضة، والذهاب في هذه الأثناء إلى حوض السباحة وإلى حمّام البخار، ثم المرور إلى المكتبة لمعرفة ما إذا كانت طلبيتي قد وصلت. وأفكّر أيضاً باتّباع وصفة إيرلندية تقوم على ترك الطائر مع البصل والحشوة في قدر على

نار هادئة لأربع ساعات، لإزالة آثار الجريمة، قبل شيّها. وفجأة، أكتشف الحل: إذ أقوم بالجمع بين عدّة وصفات، مازجة بين طعوم مختلفة.

إن العقبة الرئيسة، وحجر الزاوية فعلاً في فن الطهو، هو تقطيع البصل. ولا يماثل حساسيتي إزاء البصل أي شيء يمكن أن أشعر به في ظروف أخرى. ومجرّد وجود البصل غير المقشّر على الطاولة يجعلني أبكي. أنزع خاتم الزواج وأضعه على طرف المغسلة وراء أحشاء الطائر. أُشهر السكين فتمتلأ عيناي على الفور بالدموع، ولم أعد أرى شيئاً، وأتابع عملي على غير هدى، أتلمّس البصلة الثانية ثم الثالثة.ومنذ وقت طويل لم أعد أبصر سطراً من الكتاب؛ فألتجئ إلى غرفة الطعام باحثة عن باب الشرفة حيث لا يزال الثوم المعمّر في أصيصه في شهر تشرين الأول.

«أنت حساسة أكثر من اللازم بشؤون الحياة»، قالت لي مرّة جارتي في الطابق الأسفل، وهي تلاحظ ما تعانيه عيناي من البصل، بينما كنت تائهة في الخارج على الأرض المعشبة، وأنا أحاول جمع أفكاري عن الحياة. وهي الأشياء التي يقولها النساء بعضهن لبعض. وحتى النساء اللواتي ينمن مع زوجِك، وبعد بعض الوقت يكلّمنكِ بالهاتف ليقلن: «إنه ليس كما كنت أظن، آسفة». بل ويرغبن في لقاء بالمقهى لتأسيس نادٍ للقراءة.

8

عند فتح زوجي الباب، مع ربطة عنق جديدة، كنت قد فتحت زجاجتي النبيذ اللتين نوينا شربهما في أول مناسبة كبرى - في المستقبل القريب، فيلاحظ على الفور الرائحة الغريبة التي لا يتوصّل الطائر المتبَّل جيداً الذي يشوى في الفرن إلى إخفائها. فهناك بعض الرّيش في المطبخ وفي الحمّام، وحتى في السرير، كما رأيت فيما بعد مساء، وأيضاً قطرات من الدم هنا وهناك على الأرضية. إذ كانت المهمة عسيرة.

نجلس إلى المائدة عادة وجهاً لوجه حتى نشعر بقرب أحدنا من الآخر، لكننا هذه المرّة جالسان على الطرفين، لأننا سنطلّق من جهة ومن جهة أخرى لمزيد من الاحتفاء. فنحن جد بعيديْن أحدنا عن الآخر، وشتّان ما بين المصالحة والانفصال. على الطاولة المغطّاة بقماش أبيض تنتصب شموع جديدة في شمعدانها النحاسي، وثمّة ستة أنواع من المرافقة: بطاطا مشوية، ملفوف أحمر مخلّل، فاصولياء خضراء، جزر مهروس، سلطة مكوّنة من ثمار حديقة أودور.

وخطرت لي فكرة أنها المناسبة الأخيرة للاستفهام عما كان أُهمل إلى ذلك الوقت.

- كيف حال أمّك؟

- جيد، شكراً. وأمّك؟

- جيد جداً.

- شكراً على كل شيء، يقول بانفعال ظاهر.

وما إن يطلب الكلام، فسأعطيه له، لأنني امرأة وأعرف السكوت في الوقت المناسب. لكنه لم يحضّر أيّة كلمة.

- شهية طيّبة.

- أريدك فقط أن تعلمي بأنني لن أنساكِ أبداً.

لم يقل إنه يحتفظ بي في أعماق بطينيه الأحمرين في قلبه، لأنه لا يصوغ الأشياء أبداً بهذا الأسلوب. وأشكره وأنا حريصة على عدم الإجابة **وأنا أيضاً**، إذ لا يقول المرء في لحظات كهذه حتماً ما يفكّر فيه.

- من دون أن أدّعي أن إوزّتك كإوزّة أمي تماماً، فإن فيها شيئاً خاصاً، وشخصياً.

- أشكرك.

- لقد كانت معرفتي بك متعة حقيقية... أعني زواجي بك... والعيش معك... لكن الأشياء تتحوّل أحياناً على خلاف ما كان متوقّعاً، ولقد كنتِ أيضاً مشغولة مؤخراً... ولم نشاهد بعضنا بعضاً كثيراً...

وقف وألاحظ عندئذ إلى أي حد هو طويل القامة. ويمدّ لي يده وهو منحنٍ فوق الطاولة بعلبة صغيرة ملفوفة بورق مذهّب أخرجها من جيب سترته الداخلي، فأحتسي كأسين قبل فتحها - إذ احتسيت في يوم واحد حصّتي السنويّة من الكحول.

وكانت ساعة يد.

- أشكرك، ما كان لزوم لهذا، فليس لديّ ما أقدّمه لك.

- في الساعة تقويم، وسترين في وقت واحد الساعة والأشهر التي تمضي، فامرأة مطّلعة تساوي اثنتين، يضيف مبتسماً.

للساعة علاوة على التقويم، ميناءان، كُتب على الأكبر منهما **الوطن** وعلى الأصغر **محلّي**، باعتبار الساعة المحليّة هي ساعة المكان الذي نوجد فيه في وقت ما. وهكذا يعمل كل ميناء حسب وقته.

- مثلك نوعاً ما، يقول مع شيء من الحرارة في صوته.

صحيح أنني لا أقتني ساعة؛ ولا أعرف دائماً الوقت بالضبط، لكن البوصلة الموجودة في السيارة أتاحت لي دائماً فرصة الاهتداء في الطريق.

أنا جالسة إلى الطاولة وهو واقف ورائي، ويده تلمس كتفي لمساً خفيفاً بينما يشرح لي طريقة عمل الساعة. أشعر بضعف متزايد ويبدو لي فجأة بأنه لا يزال أمام هذا الزواج فرصة، تتمثّل هذه الفرصة في كوني نجحت في إخفاء معرفتي بقراءة الساعة. فهنا تكمن قوّتي في هذه اللحظة: التوصّل إلى إخفاء معرفتي بقراءة الساعة، لأنني امرأة وهو زوجي.

- وهكذا يمكن أن يكون لك الوقت الذي يعجبك على أحد المينائين، وقت فراغ، وقت لكِ، يقول بصوت عذب. ويبيّن الميناء الآخر الساعة لنا نحن عامّة الناس.

«تستطيعون اختيار الساعة» صاح البائع الجوّال الذي استرعى انتباهي للحظة بينما كنت أتباطأ في سيري أمام بسطته، إنها مذهلة السهولة التي يتوصّل الرجال بها إلى جعلي أغيّر رأيي، وخداعي ببضائعهم الرديئة. «خمسون أورو، يقول، ستون مع البطاريات، إنها تدوم ستة أشهر». وكان

مظهره مقنعاً. ستة أشهر، لقد كان بإمكانه قول عامين؛ فربّما رأى سلفاً أنني لن ألبث أن أمرّ ثانية من هنا.

- هل لديكِ مشروعات؟

- أفكّر في أخذ عطلة صيف متأخّرة، قلت، من دون تفكير. أعرف الساعة الآن على كل حال، أقول وأنا ألوّح بالساعة الذهبية في يدي.

- ألاحظ أنك نزعت خاتم الزواج؟

حقاً لقد نزعت خاتم الزواج لحظة تفريغي للطير، وما هي إلا نظرة للمغسلة النظيفة حتى أتأكد من إنه لم يعد هناك، وأنه اختفى مع أحشاء الإوزّة وقشور الخضار، غداً، عندما أستعيد نشاطي، سأفتّش في الزبالة، وسأقوم كالباحث عن الذهب، بتفحّص الأحشاء من جديد، ولا يبدو عليه التأثّر بهذه القصّة، فهو يفكّر في شيء آخر.

- ماذا لو ذهبنا للاستلقاء قليلاً؟

9

أنا في غرفة النـوم، والـساعة ذات التـوقيتين في معـصمي، لآخـر اخـتلاط لـسوائلنا الجسدية. السرير مزدوج، فهو سرير لامرأة ولرجل توافقـا جيـداً، لامـرأة لثمـت بطنـه ولرجل ضمّها بين ذراعيه، ولثم هو أيضاً نهديها وأكثر. وهنا أيـضاً، وبيـنما أنفـخ لطـرد ذرّة من الغبار من صرّتي، أتحقّق للمرة الأخيرة مما أعرفه جيـداً. فمـن دون أن أصـف هذا بتأنيب الضمير، لم أسعَ لإخفـاء أنَّ أفكـاري ذهبـت للحظـة إلى نينـا لينـد؟ وعـلى الرغم من إمكان اعتبار الشيء كتكرار أو مراجعة أخيرة، إلا أنه يظلّ خيانة من زوجـي لأم طفله المستقبلية، وأنني عشيقته الجديدة.

وبعد قليل، نستذكر خدوش فـترة الـشباب والنـدوب المتبادلـة؛ والحـال أنـه عـلى الرغم من أربع سنوات ومئتين وثمانية وثمانين يوماً من الزواج، لم ألاحـظ الندبـة التـي لديه تحت عظم الكتف وعبثاً اسـتفهمته بكـل الطـرق الممكنـة والـدهاء الـذي أقـدر عليه، إذ لا يريد البوح بما حصل له.

- الأمر سواء الآن، ليلة سعيدة.

- ليلة سعيدة.

ويدير لي ظهره، فأتساءل كيف أمنعه مـن النـوم وأبحـث عـن قـول شيء يجـذب انتباهه.

- ليلة سعيدة.

- لقد سبق لك أن قلتِ لي ليلة سعيدة.

- نعم، لقد كانت لديّ الرغبة في أن أقول لك ثانية ليلة سعيدة، فلم أكن متأكدة من أنك سمعتني.

- بلى، بلى، سمعتكِ وقلت لكِ ليلة سعيدة.

- ليلة سعيدة.

رأسه تحت الوسادة، وساق تخرج من السرير، مع شعر في كل مكان ما عدا باطن القدم، واللحاف يغطّيه إلى نصفه، ملابسه مكوّمة على الأرض، وثنية الكوي على سرواله تدلّ على أن أمّه عادت إلى غسل ملابسه الداخلية. ضميره مرتاح، هذا الرجل، النائم إلى جانبي وذراعه الشعرانية على بطني، وحينما يستغرق في النوم أزيح ذراعه حتى آخذ راحتي. الآن ونحن على وشك الطلاق، حان الوقت كي أتعرّف على زوجي. أنظر إلى تعبيره وهو يتحلّل، وقسمات الوجه تذوب في غياب للشكل الأصلي، والفم مفتوح قليلاً. أتفحّص ما تبقّى من الصبي الصغير وهذا يكفي، بالفعل، لتحقيق الرغبة بالطفل لديّ. أتأمّل الصدر والشعر عليه. من يدري إذا ما كان قلب طفل ينبض داخله؟ ويزمّ فمه قليلاً ويبدو لي أنه يرى حلماً مزعجاً، مع أن التنفّس الثقيل لا يُظهر شيئاً. أحاول أن أتذكّر ما تمكنّا من فعله خلال السنوات الخمس الأخيرة، مع صعوبة ملء كل ثنايا الماضي. إذ أعرف، حتى من دون ذكريات دقيقة، أنه لم يستعمل قط المكنسة الكهربائية، ولا أنا على كل حال، فليس لدينا سجّاد. وكل الذكريات تقريباً تنتهي إلى السرير. الحياة الزوجية لديّ، الجسد الحسن والرائحة الطيّبة؛ من حيث إن البيت ليس إلا غلافاً للجسدين وليس موضعاً للتعبير عن تصوّرات الحياة وأشياء أخرى. وبعد هذا لابد من ملء الغسالة الآلية والطبخ لإعطاء الجسد ما يحتاج إليه.

ويتراءى لي مع ذلك وهو يحمل الشاي إليّ باهتمام، إنه يخرج من المطبخ بخطوات حذرة، والشراب الأصفر الفاتح في البورسلان اللامع، مع جسمه الضخم المنحني على الفنجان ذي الأزهار الزرقاء، وركبتيه المرخيتين، وكتفيه المنخفضين، لفرط عنايته بوضع قدم أمام الأخرى، وكأنها كان يحمل بيضة الحياة بين يديه، أو يحمل الجسم الزلق لمولود، فكل كيانه متجمّع حول المهمّة التي عزم على تأديتها كما يجب. وفيما عدا ذلك، إنه الصباح، ونحن في سبيلنا للفراق، وبعد هذا على الفور، نتمنّى بعضنا لبعض ليلة سعيدة: وفي هذا تناقض بين الاثنين، وقد أتمكّن في أسوأ الحالات من تذكّر ربع ساعة هنا، وربع ساعة هناك، لكن ليس أكثر. وإذا ما أجبرت، وحُبِست بين أربعة جدران لقاعة صف قديمة، لتأدية عقوبة كتابة تقرير عن أربع سنوات ومئتين وثمانية وثمانين يوماً من الحياة الزوجية، فسأتوصّل ربما إلى جمع وقائع وكلمات قد تكفي لملء جدول من ثلاثين يوماً فقط، فكم عدد الصفحات التي ستملؤها المخطوطة؟ إذ سترد دائماً الكلمات ذاتها. فلا يمكن القول إن الحياة الزوجية تُفيد في الإبداع اللغوي.

أرفع اللحاف برفق، كما يُكشَف طفل وليد في مهده، لرؤيته وهو منكمش، في وضع الجنين، بجوربيه الصوفيين الصغيرين. وأضع يدي مبسوطة على البطن الدافئ، فيطلق آهة مكتومة ويدير ظهره، وهو يصدر الصوت العريض والخفيض لبوق الضباب من سفينة مغادرة إلى بلاد بعيدة.

إنني أحتجزه الآن كاملاً في ذاكرتي قبل أن يغادر، أتفحّص عنقه، وعظام كتفه، وظهره، وخاصرتيه، وعجيزته، وفخذيه، وركبتيه، وبطتي

ساقيه حتى باطن قدميه، من دون أن يشعر، ومن دون أن يستيقظ. أتجوّل خفية في أماكن مختلفة، وأدرس هذا الجسد كخريطة مجسّمة، أكتشفه وأسجّله فقرة فقرة، وأدوّن كل ما أرى، وألتقطه في تفصيلاته الصغيرة، وأحصي كل شعرة في جسمه وأستحوذ على أقلّ شعرة في رأسه: فستكون تحت تصرّفي حتى اليوم الذي تزول رغبتي بها، حتى اليوم الذي لا أعود أتذكّر فيه ملمس جلده، لأن جسداً آخر يكون حلّ محلّه ربّما.

ثمّة صوت جديد يتسلّل إلى غرفة النوم، مبهم في البداية، ثم يتضخّم ويتنوّع ليصير طنيناً واضحاً ومستمراً، ما من شك ممكن، إنهما ذبابتان كبيرتان على الأقل تحوِّمان حول السرير الزوجي. وفي اللحظة ذاتها، تحطّ إحداهما على رأس الرجل، وتغمد قوائمها في غمازة الذقن، وتتجوّل بين شعيرات اللحية. فأبعدها بحركة منّي، لكنها تحطّ من جديد على الجبهة، والوجنة، الأنف، الذقن، أنفخ عليها، أحاول إبعادها عن وجه زوجي من دون أن أوقظه. أمدّ يدي نحو ديوان الشعر الموضوع على طاولة السرير، **رأس المرأة**، لأستخدمه كمروحة لطرد الذبابة، برفق، مثل مغنّية أتعبها إلحاح أحد المعجبين في أوبيريت. لكن الذبابة تزداد نشاطاً، فأصنع من الكتيّب أسطوانة وأسحقها من الضربة الأولى على الشفة العليا، حيث لم تعد إلا بقعة سوداء لا شكل لها تحت الأنف، لكن الضربة أيقظته، إنه يقفز على قدميه، آخذاً رأسه بكلتي يديه، كما يَرِدُ في تعليمات الأمان ضمن الطائرات في حالة هبوط اضطراري.

- هل ضربتني؟

- اعذرني، فقد كانت هناك ذبابة على شفتك، وقتلتها.

- ذبابة، نهاية تشرين الأول؟

ينظر إليّ غير مصدّق، مظهره متردّد، وهادئ مع ذلك ومسترخٍ، قسماته مبهمة، كرجل من دون بيجاما، بصدره الشعراني. وقد أخذ يتمالك نفسه، ويتراخى ليعود إلى النوم سريعاً. أستلقي بجسمي كله على الجسد الدافئ، وبحذر، أتمدّد بغية تغطية الرجل بكامله، لكنه يتجاوزني من كل ناحية. إنه لا ينبس ببنت شفة، تنفّسه عميق ومنتظم. وفجأة يستيقظ جزء منه، أشعر بنشاطه قبالة بطني، فيتوقف عندئذ عن التنفس للحظة وأمتنع، أنا أيضاً، عن التنفّس. ولا يحدث شيء حتى يضمّني بين ذراعيه.

عندما يعود إلى النوم، أشرع في ضبط الميناء الآخر - الحر الذي يسير حسب الرغبة - طبقاً لوجداني. والحق أن ضميري في هذه الليلة من تشرين الأول أكثر ثباتاً من قلبي، ولهذا أضبط المينائين على الساعة ذاتها، ويشيران كلاهما إلى الساعة الثالثة وسبع عشرة دقيقة عندما أستلقي متكئة على ذراع زوجي، وكأن شيئاً لم يحدث، ثم أتخلّى كالعادة عن الوضع المتصلّب لكتفي بشد الذراع إليّ وإدارة ظهري للنائم. وترافق ذراعه الثقيلة هذه الحركة.

وعندما أستذكر كل هذا، لا يمكنني القول حقاً إنه كان سيئاً معي قط.

10

أستيقظ إلى جانب شخص مجهول لكنه قريب مني، أتحرّك بحذر في السرير، متلمّسة النهار الطالع المتوعِّد. لقد كدت أنسى وأنا تحت اللحاف أننا لم نعد متحابّين. عيناه مفتوحتان، ويظهر خلال الثلاثة أرباع الساعة التي تلت أنه نسي هذا هو أيضاً. عندما أنسلّ من السرير، عاد إلى النوم؛ أمدّ يدي إلى ساعتي الجديدة فأرى أن ساعة ضميري توقفت عند السابعة وخمس دقائق. إذ في هذه الساعة وُلدت، منذ ثلاثة وثلاثين عاماً وثلاثة أسابيع بالضبط. وأنظر إلى الساعة كأنها قلب الإوزّة الذي توقّف عن الخفقان.

كلّ شيء في وقته، للنوم وقته، وللحب وقته، وللطلاق وقته. وللجري وقته أيضاً. أغادر على أطراف أصابعي الدفء الزوجي لأفتح الباب على برودة الشروق، وحذائي الرياضي في يدي. جارتي في الطابق الأسفل في موقف السيارات، طفلها على ذراعها، وإبريق من الماء الغالي في اليد الأخرى. إنها تصبّ من الماء الغالي على مغلاق الباب وعلى صقيع الزجاج الأمامي لتحدث ثغرة تسمح لها بمشاهدة طريق الحضانة. وينفلت بخار الماء الغالي مع التنفّس في الضوء المعتم الذي يلوّنه للحظة بلون رمادي حليبي قبل أن يذوب فيه.

- لا أفهم كيف خطرت لي فكرة إقفال السيارة في ممرنا، تقول وهي تشير لي بيدها. وإبريق الماء الغالي ينتصب على غطاء المحرّك.

- يُتوقّع بعض الدفء والمطر، أقول، كأنني أريد تنشيط الأمل في قلب جارتي بطقس أفضل.

ما إن التزمت الرصيف حتى أقبل كلب الطابق الأسفل للقائي فرحاً، ويقدّم قبضة مقوده الموضوعة في فمه لي، وهو محتار على أي قائمة يرقص لفرط سروره. أداعبه من دون الإمساك بالمقود، لأنني هذه المرة سأجري وحيدة، فيبكي من ورائي ويدور حول نفسه مضطرباً بالقرب من باب الحديقة.

آخذ في الجري على الأرض التي تفصل بين اتجاهي الشارع، والوجوه في السيارات صامتة تنم عن السأم، وتنعكس أضواء الغمازات على جليد البرك الصغيرة في مفترق الطرق.

أتجاوز وأنا أجري صفاً من إحدى عشرة سيارة تنتظر عند الإشارة الضوئية، وما من أحد يقبّل أحداً في الهواء البارد، ولا حتى أولئك الذين يضعون سياراتهم في حظيرة مُدَفّأة، مع أن الناس طيبون بصفة عامة وقت استيقاظهم ولا يزالون كذلك عند الانطلاق بسياراتهم، والنعاس يداعب عيونهم اللامعة بالحلم، وهناك البعض منهم، على سبيل المثال، الذين شرعوا في السعي إلى شجار مع جيرانهم أو التشاجر مع أزواجهم قبل الساعة الثامنة صباحاً، كما أتخيّل. على الأقل طالما لم يكن لديهم أطفال، وغالبيتهم في سيارات لكن الراجلين يجرّون أقدامهم على الجليد، منحنين إلى الأمام، من دون أن يرفعوا كعب الحذاء ولا مُقدّمه: كأنهم على مزالج صغيرة، ينزلقون من ثلاثة إلى ستة سنتيمترات في كل خطوة.

كانت البوابة الرئيسية مقفلة فأكفي نفسي عناء البحث عن سبل أخرى للدخول، ومع أن سور السياج مكتوب عليه **تحت المراقبة**، لم يكن عسيراً

عليّ أن أتسلّقه كما هي عادتي، حتى أتسلّل إلى حديقة الأموات، وأهبط بالقرب من قبر أمين صندوق البلدية وأرملته. فها هو شيء لا يقلّده زوجي السابق، لأنه ليس من الذين يتسلّقون الجدران. لديّ المتعة الحصرية بالحديقة، في سلام وأمن، مع صحبة كريمة - العديد منهم كانوا منفردين. وعندما نظرت من قرب إلى شاهدة القبر، اكتشفت أن الزوجة ظلّت أرملة طوال ما يقرب من ستين عاماً. ولم يبد لي مستحيلاً أن تكون سنوات زواجهما أربع وأن يكون أولادهما ثلاثة.

طبقة رقيقة من الثلج تغطّي كل شيء لكن نعل الحذاء يعلق بالأرض جيداً فأشرع في الجري على حصى الممر في ضوء الكشافات، كسجين يقوم بدورته اليومية حول الفناء وراء جدران منيعة يعلوها سلك شائك، ويبدو لي أنّ حرّاساً مسلّحين بالمدافع الرشّاشة يقفون على الأسطح المعدنية المتعددة الألوان. ولا يزال مركز المدينة غارقاً في الظلمة لكن شعاعاً بنفسجياً ضئيلاً يتّسع في السماء.

عندما أدلّ على الطريق أجانب يتفحّصون مخططاً بالقرب من المقبرة، أو يمعنون النظر في الجوار من دون رؤية أي دكّان للتذكارات أو مقهى يشير إلى قرب مركز المدينة أو أي محور يقود إلى المدينة، بينما تهبّ الرياح من الشمال، أقول لهم بالإنجليزية: **نعم، إذا ما كنتم ترغبون في الذهاب إلى مركز المدينة، يجب عليكم المرور بالمقبرة أولاً. ثم تذهبون إلى البحيرة، فعلى كل إنسان أن يذهب إلى مقبرة في حياته، هذا صحيح، تنعطفون إلى اليمين ثم إلى اليمين أيضاً ثم إلى الشمال - ولكن فقط بعد مروركم بالمقبرة. نعم، هذا صحيح، إنها ريكيافيك**. إذ يلزم لكم مقبرة لاجتياز الحياة.

وبينما يستأنفون طريقهم، الأجانب، وأتابعهم بعيني، أراهم جميعاً من دون استثناء يتجنّبون المقبرة، كما لو أنهم يفتقدون أي اهتمام بالموت وأن ما يكفي لسعادتهم هو النظر في كل اتجاه، من فوقنا نحن الآخرين الذين نعيش في هذه الدنيا، وكأنّهم يظنّون بأن ثمّة شيء ما يُرى في الأعلى.

لديّ خط مستقيم طوله نحو مئة متر على طول الدرب، بشرط أن أقفز فوق قبر أو اثنين غطّاهما العشب وتُركا منذ وقت طويل. وأدور فيما بعد على حافة قبر صغير حُفِر حديثاً بين مدفنين لأخوين بالغين؛ إنه وليد خديج دفنوه هذا الأسبوع بالقرب من أعمام له. أعود بخطّ متعرّج بين الأشجار قبل أن أكرّر ستة عشر شوطاً على أثري، من دون توقّف، متسارعة في كل شوط، حتى ينقطع نفسي وسط المقبرة، حتى أشعر حقاً بنبض قلبي في رأسي وأذنيَّ، ولديّ عندئذ الإحساس بكوني شخصاً حيّاً في حديقة الأموات. فما من شك هنا أنني على قيد الحياة.

يبدو لي بغتة أنني لم أعد وحيدة، فالثلج يتصدّع ورائي، وينكسر غصن ولمّا يطلع النهار. أحسّ بأنفاس ثقيلة ولاهثة بالقرب منّي، على إثري، ثم إلى جانبي، ويمسني بجسمه الدافئ، ولسانه الرطب في راحة يدي. ولشدّة تعلّقه يضغط عليّ إلى حد إسقاطي على قبر غرانيتي ترقد تحته أم وابنها. إنه ماكس الكلب، صديقي في الطابق السفلي، هجين، لا هو كلب رعاة ولا كلب حراسة.

لقد اصطحب الكلب معه وأفلته في أثري. أما هو فكان مستنداً بهدوء إلى تمثال الشاعر الوطني، وطرف سيجارته يتوهّج.

- توقّفي للحظة، فإني أودّ التحدّث معك.

وفي عنق زوجي السابق ربطة عنق جديدة مزيّنة برسم أصفر لميكي، وأسرع الخطو، فماذا يريد منّي وسط الأموات؟

- شوط أخير، قلت.

يمسك بكمّ كنزتي ما إن أخرج من العتمة وأنا أجري. أنفاسي ساخنة وسريعة، وأحسّ بطعم مالح في فمي وهناك دم في البلغم الذي أبصقه بين حذائي الرجل الواقف على ساقيه المتباعدتين.

وأنحني إلى الأمام، قبالة الشاعر الوطني، ويكاد شعري يلامس الثلج، ثم أنتصب، وأتمطّى إلى الأعلى وأضع يدي على جبيني. أصابعي تمسّ مسّاً خفيفاً الوجه الرمادي المتجمّد، وتهبط من الأنف إلى الذقن، فالجذع، ثم الفخذين والركبتين، وأنا ألامسه بأكمله من فوق إلى تحت، إنه يرتدي معطفاً طويلاً وبنطالاً بثنية ظاهرة، ملامح الوجه محفورة بدقّة، وتضيع نصف ابتسامة جامدة في الوجنتين منذ ملتقى الشفتين، إنه من البرونز، والشاعر الوطني فارغ من الداخل، متصلّب وبارد. ترى هل كرّس لعشيقته حبّاً متّقداً كذلك الذي وعدها به في بعض الرباعيّات ذات القوافي الملتهبة؟

يمدّ زوجي عندئذ يده كأنه يريد مداعبة وجنتي، فأتراجع خطوة إلى الوراء.

- كما لو أنك تستيقظين من دون أي تعبير، إذ لا يتوضّح وجهك قبل الظهيرة، وأحياناً في نهاية اليوم. فمن المشوّق، من بعض الوجوه، العيش مع مثل هذه المرأة.

- ولكن؟

- لكن في هذا كثير من الريبة لرجل عادي.

لا أقول شيئاً، ناظرة إلى الفجر الذي ينتشر فوق أسطح البيوت.

- آه، نسيت أن أسألك، هل يناسبكِ إذا ما أخذت المرتبة والسرير؟ بسبب ظهري.

- موافقة.

- سأتحمّل مسؤولية الخيانة الزوجية، فهذا سيُسَرّع الطلاق.

- موافقة، أقول وأنا ألقي بنفسي على الأرض فوق العشب الأبيض وهو يطقطق.

وهكذا تتخذ القرارات الكبرى سريعاً، وفي المقابل لم ننجح بعد، خلال خمس سنوات من الحياة المشتركة، في الاتفاق على لون جدران المدخل.

- سأعرض الشقّة للبيع.

- لا بأس.

ويتردد قليلاً على الحصى المغطّى بالثلج.

- هل يزعجكِ أخذ معطفي للتنظيف؟ إنه معلّق في الممر.

11

يقول زوجي السابق إنه علم بالخبر، ويهتف منتصف الليل، إذ يريد أن يعبّر لي عن مساندته الشخصيّة.

- أيّ خبر؟

- الطلاق.

- لقد علمته من دون شك قبلي، مثل كل الناس.

يهتف ثلاث مرّات متلاحقة من جوّاله، ليُعلمني في المرة الأخيرة إنه يضغط بمرفقه على زرّ الجرس ويسألني عمّا إذا كنت حقاً سأتركه في الخارج. أذكّره بأنني لست من أغلق الباب في وجهه، وأنه قال منذ أسبوع هو نفسه إنها المرة الأخيرة، ومهما يكن من أمر فلن أفتح الباب، وإذا ما كان حريصاً على رؤيتي، فيجب عليه أن يكون صاحياً وأن يحصل ذلك نهاراً، على البحيرة على سبيل المثال، بأحذية التزلّج، أقول مندفعة، من دون أن أعرف من أين خطرت لي هذه الفكرة. على الأرجح بسبب حذاء التزلّج الذي ذكرته أمي بالهاتف.

إنها فرصتنا الأخيرة للتزلّج لأن الأرصاد الجويّة تعلن عن ذوبان للجليد بعد نهاية الأسبوع. وأشياء كثيرة ستتغيّر عندئذ. فقد حصلت منذ وقت طويل على حذاء جديد للتزلّج؛ وأحتفظ به في المكتب وأنزل إلى البحيرة أحياناً للتزلّج قليلاً حينما أتعثّر بكلمة خلال الترجمة.

ولأنهي المكالمة، أضيف:

- سأكون هناك غداً بدءاً من الساعة السابعة عشرة تماماً.

- سأعمل أي شيء من أجلك، يقول، حتى التزلّج من دون شراب، تعلمين أنني أحبك.

- ستقول لي هذا غداً، من دون شراب، قبالة الجزيرة الصغيرة.

كان حذاء التزلّج الذي ردّته لي أمي مصحوباً ببنطال مكوي جيداً كانت خاطت في أسفله من قبل شريطاً موَرَّداً، وهكذا لا أزال قادرة على ارتداء بنطال الأربعة عشر عاماً المُوَرّد.

- في المساء السابق لولادتك، ذهبت للتزلّج مع صديقتي، وقد عملنا ثلاث أو أربع دورات، الواحدة متأبّطة ذراع الأخرى. كنت أرتدي معطفاً صوفياً أحمر رافعة شعري.

إنها تخلط، بالطبع، مع الحفلة الراقصة التي ذهبت إليها منذ أشهر، لكنني لا أقول شيئاً.

- عندئذ شعرت بالجوع فجأة، لأنني لم أكن أكلت إلا رزاً بالحليب في العشاء، وفي نهاية الدورة الرابعة، اشتدّ بي الإحساس بالجوع فقرّرت العودة إلى البيت وحيدة لأكل جبن أبيض وشرب كأس من الحليب. ولو اخترت التزلّج ثلاث دورات أخرى، لكنتِ أتيتِ إلى الحياة على البحيرة المتجمّدة، وسط المدينة.

بتحدّث المرء مع أمّه، يستطيع الإفلات من الحاضر والرجوع إلى زمن أكثر أصالة، أشعر بالضيق في السائل الآمنيوسي وعيناي منتفختان.

- لقد توجّعت كثيراً عندما ولدتك، واستغرقت ولادتك ستاً وثلاثين ساعة، وخمساً فقط لأخيك. وبعد ولادتك، لم أستعد صحتي إلا بعد أربعة أشهر، جسمياً فقط، أعترف بأنني، من بعض النواحي، أكثر قرباً من أخيك، وهو يهتف لي أكثر منك أيضاً.

12

بعد خمس دقائق، سأعلن الحداد على زوجي السابق، ولا يعني هذا أنني صدّقت ولو للحظة أنه سيأتي. وعلى كلّ فما من أحد على الجليد، مع ذوبانه المتزايد. الأطفال على حلبة التزلّج، ينصتون إلى قناة 957 ف.م في المذياع، وهم يلعقون مصّاصات مثلّجة خضراء وبنفسجية، والثقب في الجليد حيث يمرح البط آخذ في الاتّساع؛ وعند كل دورة أنزلق أكثر فأكثر بالقرب من الماء.

ها أنا واقفة على الجليد اللامع، عندما يصل بهدوء بمعطفه الصوفي الطويل، يحمل حذاء التزلّج على كتفه، كما في البطاقات البريدية لجبال الألب منذ قرن، حتى في لفاعه المخطّط بالأحمر والأبيض. وتحت المعطف، هو بالبذلة وربطة العنق. منذ وقت طويل، امتدّ الظلّ إلى الجليد بالقرب من الجزيرة الصغيرة، لكن شوارع المنطقة السكنية المجاورة تضيء المكان قليلاً. وقد ترك محرّك سيارته دائراً على حافة البحيرة كما ترك الأضواء لإضاءة طريقه على الجليد، فليس لديه وقت، دقيقة بالكاد. إنه يأتي ببساطة لاصطحابي، إذ ينوي أخذي إلى بيته لمواساتي.

برؤيته من بعيد، بالجوارب على بعد خطوات من سيارته، لم يبدُ عليه طول القامة. ها هو يجلس على الجدار المحيط بالبحيرة لوضع حذاء التزلّج وربطه، إنه يتقدّم الآن بحذر على الجليد، وهو ليس مبتدئاً كما أظنّ، إذ لديه التقنية اللازمة لاتّباعي، حتى وإن كان حذاء التزلّج لديه جديداً كسيّارته الزرقاء على ضفّة البحيرة.

لم أهيّئ نفسي لهذا، فدأب وصلابة هجوم زوجي السابق على الجليد يثيران فيَّ مشاعر متضاربة. ولست متأكدة من القيام بأي شيء في هذه اللحظة. وعلى كلٍّ حالٍ، فهي تجربتي الأولى كزوجة توشك على الطلاق. وفي المقابل، إذا ما أظهر نيّة طيّبة إزائي، مصحوبة بحساسيّة ذكوريّة وبقوّة في الإقناع، فسيصعُب عليّ أن أظلّ غير مبالية.

الجليد أمامنا بزرقة فضيّة وأنا على استعداد للانطلاق وعمل بعض الأشكال وتغضين سطح البحيرة بزخرفة دقيقة في ضوء أنوار السيارة. وسأتمتّع هنا أيضاً ببعض التفوّق التقني، مع أنني أشعر بأنه يقترب خلفي كالبدر على بحر من الجليد، إنه يسعى للوصول إليّ لاهثاً، وأشعر بتنفّسه في الظلام ولا أعرف ما أقوله له، ولا أعرف أيضاً إذا ما كنت سأصحبه إلى بيته لأنني أجهل أيضاً إذا ما كنت أحبّ زوجي السابق؛ وهكذا أحاول أن أتقدّمه بشوط، ولو كان لديّ الخياران مكتوبين على صفحة امتحان، لاكتفيت بشطب أحدهما.

بإلقاء نظرة خلف كتفي على الجليد المحزَّز باللون الأبيض، أرى ارتسام شكل يُذَكِّر بالتقاء خط الحياة وخط الرأس في راحة يدي، وبوساطة حذاء التزلّج، سأتمكّن بسهولة من مواصلة رسم رسالة هامة إلى شريكي، وحتى الانزلاق صوبه، ناحتة في الجليد خط قلب مُقَوَّس.

وعوضاً عن ذلك، أنطلق في اتجاه الثقب في الجليد، وبينما السمّاعات في أذنيَّ والموسيقى بأعلى صوت، أضيِّق من دوراتي مقتربة من الماء المطلق. إنه يحاول مناداتي بالهاتف؛ وهاهو الرنين في جيب بنطالي.

شخصياً، يمكنني بسهولة تجنّب ثقب الماء هذا، والمسألة هي معرفة ما إذا كنت أقوم بتعريضه للخطر باقترابي من الماء، أو إذا ما كنت أسعى إلى

خلق إثارة من دون جدوى، لربح الوقت، لأنني لا أعرف ما سأقول له، وحتى لو كنت أعرف كثيراً من اللغات، أكثر من اللازم ربما، لم أتمكّن بصورة خاصة من استخدام الكلمات، على انفراد، في مواجهة رجل. ومع وعيي بأن جملة تتطلّب عادة فاعلاً وفعلاً ومفعول به، ولابد من أحرف جر أو عطف لإعطائها كل معناها، إلا أن مهارتي لا تبلغ ذلك الحد، إذ لا أتوصّل للعثور عليها، وقول الكلمة المناسبة، الكلمة التي يُعتَدّ بها، بل ولا أتوصّل إلى قول كلام لا مفرّ منه لرجل مثل «احترس» و«أحبك». بهذا الترتيب.

في اللحظة التي لم يعد أمامنا سوى الثقب الأسود وأصبح اتخاذ قرار أمراً مستعجلاً، يظهر الفرق واضحاً بيني وبين زوجي السابق؛ فأبطئ وأهيّئ نفسي للانعطاف جانباً، ورسم نصف دائرة؛ أما هو فيكبح انطلاقته فجأة، ماراً قريباً جداً منّي إلى الحد الذي لا أتوصّل فيه إلى تجنّبه إلا بانعطاف يكاد يأخذني إلى الجسر.

يمسك بي في اللحظة التي أثني ركبتيَّ للانطلاق تحت قنطرة الجسر ويلفّني بلفاعه، فأشعر بتنفسه الدافئ على جفنيَّ، ويستحمّ كل شيء في ضياء مُحمَر وأنا، على الرغم من كل شيء، امرأة يخفق قلبها رعباً، وهكذا أستطيع الذهاب معه.

- لم تعد لديك رغبة في رؤيتي؟ يقول لاهثاً.

- بلى، لديّ رغبة في ذلك، لكنها لحظة صعبة نوعاً ما، ثم إنني أوشك على السفر، أقول لأن فكرة السفر خطرت لي في هذه اللحظة بالضبط.

يسأل عمّا إذا كان بإمكانه مصاحبتي، فأرد بأن الأمر مستحيل.

- هل بإمكاني المجيء لرؤيتك، إذن؟

- إنه بعيد جداً، وراء القطب، أقول وأنا أفاجئ ليس رجل حياتي فقـط، بـل نفـسي أيضاً بهذه الخطّة غير المتوقّعة.

أضيف إنني سأغيب لمدّة طويلة، وكأنني أودّ تأكيد وزن وجديّـة كلامـي، حتـى لا يكون ثمّة تراجع ممكن.

- ولكنني سأرسل إليك مع ذلك بطاقات بريدية.

فيقترح عليّ عندئذ عشاء من المعكرونة.

- ويمكن، بعد ذلك، الذهاب إلى السينما.

أردّ بأنّه من المبكّر، في رأيي، الذهاب إلى السينما برفقته.

- وإذن يمكن الذهاب في حصة الساعة العاشرة.

13

يقف زوجي على الدرج، وراء كومة من الطرود. أعدّ منها عشرة، بالحجم ذاته، على أكثرها اسم الشركة التي يعمل فيها: طرود مأمونة من الورق المقوّى ذات قاع متين. إنه يأتي دائماً متهيِّئاً جيّداً للمهمة التي سيؤدّيها، دقيقاً دائماً ومنظّماً. أما أنا فيمكن أن آتي مع ثلاثة صناديق كرتونية من المهملات، أحصل عليها من الدكّان القريبة، تفوح منها رائحة الموز والبسكويت، غير ملائمة على كل حال لنقل الكتب. وأساعده في التعبئة، واقفة وراءه، بينما يسحب الكتب من الرفوف. ومن وقت لآخر، نفتح كتاباً على الصفحة الأولى لرؤية ما إذا كان مُعَلَّماً باسم أحد منّا؛ وغالبية الكتب التي أهداها أحدنا للآخر لم تكن قُرِأت منّي أو منه. وكان بمقدوري التأكيد بأن بعض الكتب من حقّه، لكنني أكتشف في الداخل إهداء منه لي.

وكتب الأسفار موضوعة على الرف السفلي، صفاً كاملاً - فأفضل زبائن وكالات السفر ليس لديهم أطفال، وعناوين مشترياتنا بالغة الدلالة: **مكتشفو القطب، المناطق الشمالية، مغامرات غروإنلاندية، سنواتي في سيبيريا، ألاسكا المجهولة**، فكل نصف الكرة الشمالي ابتُلع في الطرود. ومع أنني لست ضد العالم الجليدي الأبيض إلا أنني أفضّل أن أكون حافية في حذائي مع أقلّ ما يمكن من الأمتعة. فمن الناحية المناخيّة، كان ينحاز دائماً إلى البرد، أما أنا فإلى الحر، وبينما يتأمّل جبال الجليد المخضرّة، أتصفّح كتاباً حول الحياة الحيوانية في جزيرة صغيرة بالبحار الجنوبية، تَرَكه على الرف. لكنه العكس فيما يتعلّق بالاغتسال، فأنا أفضّل المياه الفاترة في الدوش، بينما

يفضّل حمّام المياه الغالية، وهذا وحده يكفي لغياب الأطفال. فميزة المرأة هي قدرتها على السيطرة على غير المتوقّع.

يتصفّح أحياناً كتاباً أو يفتح واحداً بالمصادفة ويشرع في القراءة صامتاً وهو يحرّك شفتيه، وهو شيء لم أره قط يفعله.

- أنصتي إلى هذا، يقول.

ويقرأ لي بصوتٍ عالٍ مقطعاً من ذكريات قديمة لمستكشف من غروإنلاند، العراك مع الدبّ الأبيض، فالقراءة لي، شيء لم يفعله قط، إنه يتغيّر، وهو رجل آخر، إنه ينتظر طفلاً.

أتظاهر بأني لا أراه وهو يأخذ كتباً كنت تلقّيتها في حفلات توزيع الجوائز، لأنني كنت مبرزة في كل شيء، لأنني لم أكن جيدة في شيء بصورة خاصة، لأنني وجدت صعوبات في تفضيل شيء على آخر، لأنني لم أعرف بالضبط ما كنت أريد في تلك الحقبة من حياتي، وهو في الحقيقة شيء لم يتغيّر ربّما كثيراً.

في المساء، عندما كان الأمر يتعلّق بأشياء، لم يكن عليّ أو على أخي معرفتها، كان أبي وأمي يتحدّثان باللغة الدانماركية، إذ كانا معروفين بالفعل في الدانمارك، ضمن الجامعة الشعبية. (لابد أنه عاشق ممتاز، إنها تجد فيه شيئاً على كل حال) هي الجملة الأولى التي أتذكّر أنني تعلّمتها في هذه اللغة. وفي سن الخامسة والنصف، كنت أستطيع تقريباً تصفّح مجلّة (بو بدر).

وعندما كنت في السادسة، جززت يوماً عشب جارنا بجزازة يدويّة. لقد كان أستاذاً للغة الألمانية يعطي أحياناً دروساً خاصة في بيته لتلاميذ راسبين في امتحان نهاية السنة، وعوضاً عن قسيمة شراء للحلوى من الدكان

المجاور، كنت أطلب منه إعطائي درسين بمثابة أجر - لأنني جززت العشب أمام ووراء المنزل، فاقترح عليّ إذن حصتين من خمس وأربعين دقيقة، الثلاثاء والخميس عند غروب الشمس بعد مغادرة تلاميذه الآخرين. كان التدريس يجري في المطبخ وعندما وصلت للمرّة الأولى، كان وضع البطاطا للسلق. كان يعيش وحيداً ويعرف أن بإمكانه الاعتماد على كريّات السمك التي كنت آتي له بها من أمي.

وما إن جلست على وسادة الكرسي إلى جانبه والكتاب مفتوح على غطاء الطاولة المشمّع، حتى أشار لي إلى صورة ولد صغير ذي شعر أشقر، يرتدي بنطالاً قصيراً بحمّالات، يقوم بتنظيف حديقة، (Das ist ein kind)، كانت الجملة الأولى التي تعلّمتها بالألمانية. وقد بدا لي غريباً أن تعني الكلمة نفسها، Kind (خروف بالإيسلندية وطفل بالألمانية) شيئين مختلفين في هاتين اللغتين، وأن يستطيع الناس استعمالها من دون اكتراث بصحّة كلامهم. فبما أن الكلمة ذاتها تعني شيئين مختلفين، يمكن لشخصين أن يكونا على حق أو على خطأ في الوقت نفسه والموضوع ذاته. وقد عرفت هذا، منذ السابعة.

كان الدرس يشرف على النهاية والبطاطا تُسلق في القدر، والبخار يتصاعد منها ليغطّي زجاج النوافذ، عندما أشار أستاذ اللغة بأصبعه إلى صورة امرأة عارية كانت تغتسل في نهر، لم تكن في الكتاب، بل في مجلّة، ولم أجد أيّة صعوبة مع ذلك في إدراك العلاقة بين الصورة والنص، (Das ist ein Feau)، قال.

ثم أضاف باللغة الألمانية دائماً: (Ein heisse Purp) وتعني حرفياً: دمية ساخنة.

ظننت أن الطرود العشرة ستكفي لكل الكتب التي نمتلكها، لكن بقي منها الكثير، نصفها تقريباً.

- هل أستطيع أخذ هذا أيضاً؟ لقد نفِدَ لدى الناشر.

- افعل، أرجوك، أقول، حتى وإن شعرت لهذا بشيء ما.

- ينقص من هذا الكتاب بعض الصفحات، يقول.

- أعرف، فأنا التي انتزعتها.

- هل انتزعتها؟

- نعم، انتزعتها.

- انتظري، انتظري، هل سمعت جيداً؟

- نعم، فهذا الكتاب لي، وأنا التي اشتريته وانتزعت منه بعض الصفحات بعد قراءتها؛ إذ كنت أودّ إعطاءها ثمّ غيّرت رأيي.

- ولِمَ لم تنتزعيها كلّها؟

- لم أقرأ الكتاب كلّه، بل ما يكفي فقط.

- لِمن كُنتِ تودّين إعطاءها؟

- لم يعد لهذا أهميّة الآن، أقول.

فيبدو عليه الانزعاج.

وأنا لم أعد أذكر بالضبط كيف حدث هذا، وإذا ما كنت صدمته سهواً وأنا أمدّ يدي لاسترداد معجم المترادفات الذي كنت اشتريته لتوّي وصرَّه خطأ مع أن الكتاب شديد التخصّص ولا يفيده في شيء، أو أنه استدار بأحد الطرود فجأة ليتجنّبني.

- معذرة، أقول.

- كلا، إنها غلطتي، يقول.

وفي اللحظة ذاتها، تسمع صفارات الإنذار في الخارج، من المعروف أن ظروفاً خارجية مختلفة، مثل صفارة سيارة الإسعاف أو الضوء الدوّار لسيارة الإطفاء يمكن أن يتسببا في تقارب شخصين في مواجهة ارتياب خارجي عنهما وإثارة أسئلة عديدة تبدأ بمن، كيف، لماذا، كم، ما العمر، داخلي أم خارجي. والقشعريرة التي تسبّبها فكرة جريمة مجهولة أو جروح ناتجة عن حادث يمكن أن تقرّب الناس بعضهم من بعض، والتعاطف مع الضحيّة قد يدفع زوجين سابقين للوقوع أحدهما في أحضان الآخر. وفي ساعة الغروب هذه، ما من أطفال يلعبون في الخارج. فلنتخيّل بالأحرى أن الأمر يتعلّق بعجوز يعجز عن فتح بابه، ولم يعد يعرف كيف يتعامل مع مزلاج الأمان للخروج، أو انزلق على بلاط الحمام المبتلّ بعد مرور مساعدة التدبير المنزلي.

ومهما كان من أمر، ومن دون مقدّمات، وجدنا أنفسنا عاريين على الأريكة الجلديّة. وتمّ كل شيء بسرعة. وبعد هذا ساعدته في لصق الطرود، وهي بالفعل عشرة طرود تمثّل نصف كتب المنزل - فزوجي منضبط ودقيق، ثم نوصي من بعد على وجبة تايلندية تناولناها بشوكتين من البلاستيك، مباشرة من علبتها الكرتونية.

- هل توافقين على أن آخذ الأريكة؟

- طبعاً.

وهكذا ستجلس نينا ليند عليها ومعها كيس الشيبس لمشاهدة المسلسل الدانماركي الجديد، حب وخيانة زوجية، من دون أن تخطر على بالها سوابق الأريكة وإسهامها في متع الحياة الزوجية المتعدّدة. ولا تعلم أيضاً، بالطبع،

أنني المترجمة المعتمدة للمسلسل، فما مـن مـشكلة إذن في أخـذه للأريكـة والكنبتـين المحشوتين - فلست أنا من اختارها، لأنني أفضّل البساطة.

- ولكن طاولة الأريكة؟

- طبعاً، فهي مع المجموع.

- وماذا لو أخذت خزانة الصحون؟

- نعم، فلا أحتاج إليها.

- هل استمعتِ إلى تنبؤات الأحوال الجوية لنهاية الأسبوع؟

- كلا، لماذا؟

- أفكّـر أنـا ونينـا، بجولـة في الريـف؛ إذ إنهـا آخـر فرصـة للتمتّـع بـألوان الخريف.

ولم يحـدث، حتـى الآن، أن عـبَّر زوجـي الـسابق قـطّ عـن رأيـه في ألـوان الفصول.

- أظنّ أنهم يتنبؤون بطقس دافئ وماطر، أقول، منتبهـة فجـأة إلى أن كلامـي مـع الناس يتلخّص في جوهره بنقل التنبّؤات الجويّة.

- هل بإمكاني أخذ كيسَيْ النوم؟

- لقد نسينا تعريضهما لـلـهواء هذا الصيف.

إذ لا زال كيسا النوم موصولين أحدهما بالآخر بالسحّاب حتى يكونـا كيـساً واحـداً لاثنين، منذ السفر إلى المخيّم الصيف الماضي، وهكذا سيردّ الكـيس الكبـير رائحتـي لـه، وبقايا الطحالب ورائحة الطحالب، وبقايا منّي.

- هل بإمكاني أخذ الأكياس، إذن؟

- ألن تذهبا إلى الفندق؟

- سنترك مسألة الإيواء ربما للظروف.

لا أفهم كيف يمكن حصول ازدحام على الفنادق في تشرين الثاني، فحتى الطيور العابرة غادرت الجزيرة منذ وقت طويل، وبعدما حمل الطرود إلى سيارة شركته، يمدّ لي يده، فأشدّ عليها متمنية له سفراً سعيداً.

- شكراً جزيلاً، يقول، لن أنساكِ أبداً.

وهي المرة الثالثة في ثلاثة أيام، فينبغي تنبيهه إلى أنه يكرّر نفسه.

- سآتي لآخذ الباقي بعد نهاية الأسبوع.

وضع خاتم زواجه على الرف، على رزمة الفواتير غير المدفوعة، ويقول من الباب الموارَب.

- لقد تركت زجاجة ما بعد الحلاقة التي أهديتنيها في الحمّام، حتى لا تنسيني تماماً، فالرائحة هي ما يذكره الإنسان أطول وقت ممكن، فحتى على فراش الموت، عندما يمضي كل شيء، تبقى الرائحة.. آه، ثمّة شيء آخر، هل يزعجك وضع ما بقي منّي بسلّة الغسيل في الغسالة الآلية؟

14

أما في المستقبل، فسيعتمد غسيل الملابس على ضميري الشخصي بعد هذا الغسيل الأخير. إذ من السهل نسبياً فرز الملابس الداخلية النظيفة على الرفوف، فهي ثمانية أزواج في الخزانة، أربعة للرجل، وأربعة للمرأة. لكنها مهمة أخرى عندما يتعلّق الأمر بمحتوى سلّة الملابس الداخلية الوسخة، ملابسي الداخليّة المكدّسة مع قمصانه، وسروال رجالي مع تي شيرت لي، وجوارب متناثرة هنا وهناك، أي الأشياء التي تُغسَل معاً، لأنها أولاً من اللون ذاته إضافة إلى كوننا متزوجين، ونشكّل وحدة. لكن هناك أيضاً جوانب رماديّة: فما العمل، مثلاً، بأغطية الفراش المطرّزة بالحرفين الأولين من اسمينا تحت جناحي حمامة بيضاء؟ هل يجب عليّ أن أطلب من أمّي فتق العمل الذي وضعت فيه كلّ روحها؟

ويتملّكني إحساس بالجوع، فألقي نظرة في الثلاجة، وتقابلني بقية إوزة مع ملحقاتها. وبما أن هذه الوجبة لا تبدو لي مناسبة لامرأة وحيدة وهي في نقطة تحوّل جديدة من حياتها، أقرّر الذهاب للسوبر ماركت للتسوّق.

لا يمكنني القول إنني من النوع الذي يبكي في الطريق العام، وهو شيء أكثر إثارة للشفقة حيث أجد نفسي، أمام رف الخضار، وأنا أملأ كيساً بالفليفلة، بعيدة عن وعاء البصل، أنا هنا أروز بيديَّ فليفلة صفراء وفليفلة حمراء. وأترك يداً تنزل والأخرى ترتفع، ممسكة بالفليفلتين متوازنتين على راحتيَّ، مثل إلهة عارية تسعى إلى الحقيقة مع ميزانها. وكانت نيّتي أن أضعهما في الفرن مع زيت الزيتون والملح، ويرفع رجل عينيه من الفطر

لينظر إلي، كما لو كنت هذه الآلهة نفسها بعينيها الدامعتين وراء نظّارة القراءة. وتجسّ امرأة عجوز بيديها النحيلتين بعض ثمار الموز الناضجة. فتنتهي إلى اختيار اثنتين مُنَقّطتين تضعهما في السلّة إلى جانب مرطبان صغير من الجبنة البيضاء.

في اللحظة التي أغلق فيها كيس الفليفلة، اتّخذت قرارين مهمّين. من جهة، الحصول على عدسات لاصقة لرؤية الرجال المنتشرين هنا وهناك في المحل بوضوح، ومن جهة أخرى، السفر مؤقتاً إلى أماكن بعيدة، كما أعلنت مرتين. والحقيقة هي أنني لم آخذ قط عطلة حقيقية في الصيف. وما من مانع يقف أمام ذهابي للمدّة التي تروق لي؛ إذ أستطيع حمل عملي معي، وتغيير طريقتي والتوقّف عن الطبع، والتوقّف أيضاً عن التسليم في المنزل. وأتأكّد الآن أن مكتب عملي بالقرب من الميناء لم يكن إلا ذريعة للفُرجة على الحوض الجاف والمراكب.

15

قرّرت ما سأفعل عندما ستتراجع سيارة نقل الأثاث القهقرى للخروج من الممر، وأصبح وحيدة في الشقة الشبه فارغة. سآخذ حمّاماً.

أنتظر خمس دقائق إضافية قبل أن أفتح الحنفية وأخلع ملابسي. خزانة الحائط العليا فارغة، فأدوات الحلاقة من صابون وماء الكولونيا للرجال أفرغت منها، لكنه ترك مع ذلك فرشاة أسنانه وزجاجة ما بعد الحلاقة.

أتصرّف الآن بكلّ وقتي، وبإمكاني أن أعمل ما أريد. أشعر بأنني وحيدة حقاً؛ وسيكون الحمّام جاهزاً في الحال. أضيف ماء ساخناً إلى حوض الاستحمام وأصبّ فيه خليطاً مكوّناً من محتوى زجاجات أهدتها لي صديقاتي - وخاصة أودور - في مناسبات مختلفة: زيوت مهدّئة، أملاح حمّام منشّطة، عطور إكليل الجبل والبابونج والخزامى والياسمين، وسآتي بقنينة الكونياك وأضعها على حافّة حوض الاستحمام.

إن الساعة الأولى، في مقتبل حياة جديدة، تناسب الاسترخاء في حوض الاستحمام، وترك الماء يغمر قفا العنق، ويداعب الوجه، ثم الرقبة، وكل الجسم. والاكتفاء بالغوص في حوض الاستحمام وإبعاد كلّ فكرة، وكلّ صورة. فأيّ أم ستتمكن، في الساعة التي تغلق غالبية الحضانات أبوابها، من الاستلقاء في حمّام ساخن طافح بالرغوة، وعيناها نصف مغلقة، بهدوء، على أرضيّة محايدة؟ إن حرفاً من خمسة عشر سنتيمتراً يفصلني عن العالم الخارجي، وعن الحروب ومشاهد الخلافات الزوجية.

ومن وجهة النظر هذه، أنا امرأة من دون علامات فارقة ولا ندوب ظاهرة، فيما عدا شامة صغيرة على بشرتها الشاحبة، شعري كستنائي،

وعيناي خضراوان، كما هو مبيّن في جواز سفري، وبما أنّه ليس عليّ مساعدة طفل في تنظيف أسنانه أو ارتداء بيجامته، ولا أن أقرأ له فيما بعد القصّة ذاتها للمرة التاسعة والسبعين، فبإمكاني أخذ حمّام آخر بعد ساعتين، أو البقاء ممدّدة هنا. لكن السؤال الذي يجب عليّ طرحه، هو معرفة ما إذا كان سيتأسّف أحد عليّ إذا ما قرّرت البقاء تحت الماء. وأيضاً: هل يمكن لامرأة فتيّة أن تغرق نفسها في حوض استحمامها من دون إنذار، وهل من المعقول الموت نتيجة لفرط السعادة في حوض استحمام طافح بالرغوة؟ وهو، هل سيشعر بالحزن؟ وهل يفوتني شيء ما؟

أتذكّر رؤيتي للبطّات وهي تنزلق على الماء تتبعها فراخها الواحد خلف الآخر، وأنا أعلم اليوم أن البطّات تعتني بصغار بعضها البعض الآخر؛ فقد تكون الواحدة أمّاً للاثنين الأولين وزميلتها أمّا للتالين.

لكنني لم أكن أعرف هذا، فلم يكن لديّ إلا عامين، أو أقل؛ كنت من الصغر بحيث كان يُعدّ عمري بالأشهر، وقد سمعت أمّي منذ مدّة ليست بالطويلة تقول إن عمري كان اثنين وعشرين شهراً. وكان يجب على شقيقي الذي كان في السادسة أن يراقبني، لكنه مشغول بشيء أكثر أهمية، هو صيد سمك الرمل، ولهذا أنا وحيدة أرتجف على بلاط حافة البحيرة، في وسط المدينة، في حذائي من قياس 23، الأوسع من اللازم بالفعل، لأنه حذاء شقيقي، مثل البنطال الأزرق الذي أرتديه. ثم أستلقي على بطني وأمدّ يدي لمداعبة الريش الناعم، وعندما كنت أرى الفراخ تسبح أمامي، يحدّق أحدنا في عيني الآخر، كنت أبعد ما أكون عن اعتبار هذه الكرات الصفراء أصغر منّي. إذ تتّصف بكل مميّزات أسرتي، فهي شديدة الصغر مثلي، ناعمة كأمّي وزغبيّة الملمس مثل أبي. إنني أشعر بتقمّص وجداني عميق إزاءها، حتى

وإن لم أعرف معنى هذا التعبير إلا بعد سنوات عديدة؛ ومع كوني شقيقة لأخي، إلا أنني لا أجد من المستحيل كوني واحدة منها، فنحن جميعاً من أسرة واحدة، فراخ البط وأنا. ولكوني بنتاً صغيرة، أتمكّن من فهم الكائنات الحيّة الأخرى ووضع نفسي مكان أي واحد منها، وأستطيع التكيّف والاندماج مع محيطي المباشر، فلست متميّزة عن العالم وليس العالم متميّزاً عنّي، ولم يدخل الزمن إلى نفسي وما المسافات إلا تجاعيد على سطح الماء، ولهذا أصدر صيحات البط ذاتها. ولهذا أقرّر الانضمام إلى أصدقائي وإلقاء نفسي في المياه العميقة. أمشي للحظة على الماء المخضرّ لكنني أغطس بسرعة. وتحت السطح ترى قوائم البط تنشط أكثر فأكثر.

وليس إلا في اللحظة التي بدأت أغرق، وأجرّب الموت للمرّة الأولى، وفي اللحظة التي تشرّبت حفاضتي القماشية مع بنطالي بكمية كبيرة من الماء الموحل، أتحقّق من أنني لست بطّة، وأنني من نوع آخر.

أنا الآن وحيدة ومسؤولة عن نفسي، فعليّ التوصّل إلى جذب انتباه الذي يحاول صيد أسماك الرمل لوضعها في سطل. ومستقبلي كامرأة هو بين يدي شقيقي.

مع أن عمري لا يعد إلا بالأشهر، إلا أنني أدرك ما هو في صميم علاقة الرجل بالمرأة. أولاً، عليّ إثارة اهتمام الصيّاد، ثانياً، اكتساب إعجابه، ثالثاً، عمل ما يجعله يقوم بالفعل المناسب. وبينما أبتلع الماء الموحل وسط المدينة، عارفة أنه ما من فائدة في استخدام بعض الكلمات التي أعرفها رسمياً، يظهر لي عامل جديد هام في العلاقات الإنسانية، متمثّل في معرفة البعد بين الاهتمام والفعل، وأن الإعجاب قد يدفع في بعض الحالات إلى انعدام المبادرة وحتى إلى الجمود، فتوقعات الآخر من دون طائل تفضي إلى الخيبة

وأخيراً إلى الانهيار والموت. وعلى الرغم مما يبدو هذا غريباً اليوم، فقد كنت أعرف عندئذ، وأنا في الثانية من عمري بالكاد، أنني سأكون امرأة، امرأة ذات شأن.

- إنه يصيح كبطّة حقيقيّة، يقول الشرطي الذي ينتشلني من الماء.

وفي اللحظة التي يحملني بين ذراعيه، تنبثق نافورة ماء موحل مُخضَر من فمي لترشّه هو وزميله.

- لقد ابتلع الكثير من الماء، لابد أن يُغرِق السيارة.

حينئذٍ، أدرك وأنا متعلّقة بكتفه كخرقة رخوة، أن هناك عالم وراء المنازل الملوّنة حولنا وهنا يكمن مستقبلي. وأبعد ما يكون عن فوضى لا شكل له، فالكون يظهر على شكل طبقات متعدّدة، كالدوائر التي تُغضّن سطح الماء، وأكتشف أنني داخل هذه الدوائر. فيما بعد، سأسافر بعيداً لأغلق العديد من الحلقات.

- إنها بنت وليست ولداً! يقول الزميل وهو ينزع عنّي البنطال المبتل.

يلفّني ببطانية صوفيّة بنّيّة قبل أن يحملني إلى داخل سيارة الشرطة الدافئ، وأثناء هذا الوقت، كان أخي الوحيد يلعب في مقدّمة السيارة بالكلبشات والعصا.

يغمرني الماء إلى نصفي في حوض الاستحمام، من دون أن أتعذّب، أو أتعذّب قليلاً. لقد قمتُ بكلّ ما يجب عليّ تقريباً وأستعدّ لأخذ العطلة في تشرين الثاني، فما يمكن لامرأة أن ترغب به أكثر من ذلك؟

وفي اللحظة التي كنتُ فيها ممدّدة ويداي على ركبتيَّ اللتين تبرزان كجزيرتين صغيرتين في البحار الجنوبية، وبينما أعمل الفكر لإيجاد الوسيلة

لجعل حياتي بسيطة ومفهومة - بالضبط في اللحظة التي أظنّ أنني قادرة على توجيه نفسي وسط المحيط -، يرنّ جرس الهاتف.

جعلني الكسل أخرج من البحر الكاريبي، قبل الرنّة الثامنة، وما من شخص غير أمّي يترك الهاتف يرنّ طويلاً هكذا. «ربّما تكونين في غرفة الغسيل تنشرين الغسيل»، يمكن أن تقول.

ليست أمي على الهاتف، بل رجل من جمعيّة الصمّ، ليس أصمّاً ويخاطبني باسمي ويسألني عمّا إذا كنت أنا نفسي بالفعل.

- لقد تبنّينا منذ بعض الوقت صيغة جديدة تقوم على اتصالنا المباشر مع الرابحين في يانصيب جمعيّة الصمّ، يتابع.

ويشرح لي أن أرقام سحب الخريف قد شُخصنت لأوّل مرّة وتكوّنت مع بداية أرقام الضمان الاجتماعي، والهاتف، ورقم لوحة السيارة لأصحاب البطاقات، ولهذا يسرّه أن يعلمني بأنني صاحبة البطاقة الرابحة الثانية من يانصيب الخريف لجمعية الصمّ، وجائزتها تتمثّل في شاليه صيفي كامل مع مطبخ أمريكي، وشرفة وأدوات الشواء، مبنيّ بكامله من قبل الحرفيّين الصمّ. وبما أن الشاليه جاهز للتركيب، يمكن نقله إلى أيّ مكان في البلاد، فهل يمكنني المجيء لاستلامه بأسرع ما يمكن، قبل الخامس عشر من الشهر، في أقصى تقدير؟

أنا راكعة، والسماعة في يدي، وخط من الماء يلمع ورائي على أرضية الممر، فقد ذهبت طاولة الهاتف الصغيرة مع شاحنة النقل.

ليس مستحيلاً أن تكون هذه البطاقة في حوزتي، لأنني أشتري كل بطاقات اليانصيب التي تُعرَض عليَّ، لثلاثة أسباب رئيسية: لأن من يقف

على عتبة الباب مُزرقّ من البرد؛ وهـو مـن الحداثـة بحيـث لا يجـب أن يظـلّ وحيداً في الظلام؛ أو أنه يثير الـشفقة لـسبب مـا، أن يكـون كفيفـاً، أصـمّاً أو في مقعد متحرّك أمام دكان. ومن ثم، أنـسى البطاقـات مـن دون اكـتراث بـسحب الأرقام الرابحة.

صار ماء الاستحمام فاتراً عندما أغوص فيـه مـن جديـد، لكننـي لا أفكّـر في تسخينه بينما أتحسّب للموضع المناسب لبيـت عطـلات مـع كـل المـستلزمات، ولحياتي الجديدة، فلا يجب السخرية من القدر: إذ في اليوم ذاته، فقدت بيتـي، وعوضاً عنه، ها أنا أحصل على كوخ خشبي جديد، يتناسـب والحـق يقـال مـع أرض إيـسلندية أكـثر مـما يتناسـب مـع الغابـة المداريـة أو الحـاجز المرجـاني لمشروعاتي المستقبلية.

وعلى الرغم من القشعريرة، أظلّ ممدّدة في حـوض الاسـتحمام، والـسعادة تناقصت، وأتمكّن الآن من تمييز جسمي عبر الرغـوة والقبـول بـرأي أمـي التـي تجدني نحيلة.

أرى آفاقاً جديدة تنفتح، ومخططات سفر جديدة. فعليَّ ربما اكتـشاف الجزيـرة في الـشتاء، والإفـادة مـن الـضياء المتنـاقص، وإطالـة اليـوم القـصير جـداً، والـسير بعـض الخطوات خارج السيارة من وقت لآخر، في أحضان الطبيعـة البكـر، بـل والـذهاب إلى شرقي البلاد. إذ لم أعد إليه منذ سبعة عشر عاماً، فلسبب أو لآخر لم تكن لديّ الفرصة للمرور به ثانية. ولم تسنح لي الفرصة أيضاً لتكرار الخرجات إلى حقول الحمم البركانيـة ولا إلى الكثبان في الجزيرة؛ واكتفيت مع زوجي السابق بالتخييم ليلتين في السنة حيث يروق له وأنـا مـستلقية في كـيس النـوم المـزدوج تحـت الخيمـة في مواجهـة النباتـات

المُسوَدّة، مع القنينة والمشواة التي لا تزال ساخنة أمامه، انتظاراً لسكوت طيور المستنقعات هنيهة في ليالي الصيف حتى نستطيع النوم أخيراً. وعندما أتذكّر كل هذا، لا أظنّ أنني خرجت من المدينة أبعد من مقبرة جوفونس منذ بداية تشرين الثاني. لكنني أستطيع تخيّل أنه بعد بضعة مئات من الكيلومترات وراء مقود سيارة، تتشكّل الحياة الزوجية في العقل، آلياً ومن دون عناء.

لم يعد أي شيء يعرقل مخططاتي، إلا زوجي السابق، إذ لازالت المفاتيح في حوزته، وهاهو يطلّ برأسه من شُقّ الباب، بينما لا أزال منقوعة في حوض الاستحمام.

- لقد أخذت بعض القدور، والمقلاة والخلاط، لكنني تركت لك الشوّاية.

- لا بأس.

- حسناً، إلى اللقاء.

وأراه يمرّ مع طقم بابا نويل تحت إبطه. فقد لاقى نجاحاً كبيراً في حفلة نويل للموظفين في العام الماضي، وهو الموظف الوحيد من دون أطفال، كما نوَّه ذلك المساء، مع عتاب في صوته، لدى عودته إلى البيت. «لو كان لديك أطفال، ما كانوا اختاروك»، وكان هذا كل ما لديّ للرد عليه.

- بما أنني هنا، يقول، سآخذ دشاً سريعاً ربما.

16

أنا لا أفهم زوجي السابق أبداً، فما إن ترك المكان مع كل أمتعته حتى يعود ثانية لأخذ شيء ما. إذ ينسى دائماً شيئاً؛ وفرشاة الأسنان الثالثة التي يأتي لأخذها، هي فرشاتي دائماً، تلك التي أخرجتها لتوّي من علبتها. فأقضي وقتي في شراء فراشي جديدة حتى يأتي لأخذها، كما اشتريت كتاباً حول تسافد الحشرات وأشياء أخرى.

ولا أدرك مع ذلك السبب الذي يدفعه إلى أخذ دش لدى كل زيارة من زياراته.

فقبل ذهابه للاغتسال، يضع أسطوانة عليها أغنيتنا على الغراموفون ويرفع الصوت حتى يسمعها وهو تحت الدوش.

ويتجوّل زوجي السابق، كما لو أن شيئاً لم يكن، عارياً تماماً في الشقة، متمنطقاً بمنشفة صغيرة لا تستر إلا القُبُل أو الدُبُر، لكنها لا تسترهما معاً. وكما هو منتظر لدى رجل يتمتع بوضع مريح بالأحرى، فإن قوامه يُظهِر بعض الانتفاخ عند الخصر.

ويأخذ في فتح كل الخزائن أثناء تجوّله في الشقة، وكأنما للتحقّق مما إذا بدأت حياة جديدة تتفتح فيها. والواقع أن غالبيتها فارغ لأنه أفرغها، ولله الحمد، من كل شيء قد يكون فيها. ولم يبق إلا الشيء القليل، فيما عدا شعراته السود في حوض الاغتسال. والسؤال الذي يتبادر إلى ذهني هو التالي: ما هي المدة التي يستطيع الأزواج فيها الاستمرار في المجيء لأخذ دوش؟ وإذا ما واصل هذه اللعبة بعد استقراره في حياته الجديدة لمدة طويلة، وأكون أنا أيضاً مع رجل ذي صدر أملس، فكيف أتصرّف لتفسير الوجود المتكرّر لهذه الشعرات السود في حوض الاغتسال؟

17

من المهم، وأنا على عتبة حياة جديدة، التخلّص مما لست بحاجة إليه؛ فالملابس التي لا تتّسع لها الحقيبة الوحيدة ستذهب إلى الجمعيات الخيريّة، إضافة إلى قطع الأثاث والأواني التي أمتلكها. وتكفيني نصف ورقة لجرد قائمة ممتلكاتي، وهو ما يمنحني ارتياحاً حقيقياً. فمن كان يظن، في البداية، أنني سأتمتع بمثل هذه الحريّة. ما من حاجة لاستئجار شاحنة صغيرة: إذ تجد الطرود مكاناً على المقعد الخلفي للسيارة. مشواران إلى الميناء، وصعود طابقين، وهاهي مصفوفة أمام الحائط، مقابل الأريكة - السرير، في مقرّ عملي، حتى أقرّر إفراغها أو الانتقال من جديد. وأجد نفسي مع الضروريات فقط حتى وإن لم أستطع الاهتداء إلى الخفّاقة التي أستعملها لعمل القشدة بالشوكولاته عندما تأتي أودور لزيارتي.

في الوقت الذي أحاول جاهدة في الأسفل فتح باب المدخل، وطرد في حالة توازن على ركبتي، يظهر جاري فجأة على عتبة الطابق الأول، بجوارب سوداء، ينزل الدرج المغطّى باللينون المنظّف لتوّه وتفوح منه رائحة الأمونياك بسرعة، يمسك لي الباب ويعرض عليّ حمل الطرود إلى الطابق الثاني. يبدو في الخمسين لأوّل وهلة، تُشتَمّ منه رائحة الكحول وعطر ما بعد الحلاقة، وخلال الصعود يروي لي أهم ما مرّ به في حياته.

- كان الصغير في الثالثة من عمره حين الطلاق. وسيُتم السابعة عشرة بعد تسعة عشر يوماً. وسيتقدم لفحص إجازة السياقة، ثم نذهب أنا وهو إلى الصيد، فهو من سيقود السيارة، بينما سيستريح أبوه المُسنّ على المقعد

الخلفي مع قنّينته. وقد اتفقنا على هذا عندما دفعت له أجر دروس تعليم السياقة، إذ سيصحبني إلى صيد الإوز، وستسنح لنا الفرصة عندئذ في تعرّف أحدنا على الآخر كما يجب، وتدارك الزمن الضائع، وقد فكّرنا في هذا منذ وقت طويل.

هاهو الآن يدخل إلى المطبخ ويُخرج من جيبه متر القياس بينما أرتّب الأمتعة.

- إذا ما نقلنا الثلاجة ونزعنا مقصورة الدوش، فسنفسح المكان لحوض استحمام صغير، يقول وهو يقيس الموضع طولاً ثم عرضاً.

ويسحب من جيبه دفتراً صغيراً يكتب عليه ملاحظات بقلم الرصاص.

- أنتنّ، الفتيات، تحبين كثيراً الحمّام بالرغوة، يقول بخبث، فأنا أعرف النساء، يقول وهو يمرّ بيده المحترفة على إطار الباب المطلي باللون الأبيض.

ولم يكن يلزم إلا درجة صغيرة في مستوى علاقتنا لكي يبدأ الأشغال.

بعد وقت قصير، يدقّ جاري الباب من جديد، وقنينة روم كابتن مورغان في يد وإطار مذهّب في اليد الأخرى، إنها صورة مراهق، ناعس المظهر، مشعث الشعر، أطرافه غير متناسبة، مع عصابة فوق عينيه لا تتوصل إلى إخفاء أذنيه الكبيرتين تماماً، ولم أستطع التلفّظ إلا بأربع كلمات.

أرفض الروم بلطف وأشكره مرة أخرى على مساعدته، متحرّقة لرؤيته يغادر المكان، لأنني أرغب في اغتنام فرصة الوحدة للتأمّل في مخطّطاتي المستقبليّة الأكثر استعجالاً.

- نعم، كنت أريد فقط أن أقوله لك ثانية: أهلاً بك في إقامتك الجديدة الدائمة في البناء. فمن دواعي السرور دائماً وجود سيدة في الجوار.

وعشر دقائق من بعد، هاهو على الباب من جديد، وتحت إبطه كتاب لوصفات الطهو، فأعطيه بيضتين وبعض الحليب، من كيس المؤونة.

ولدى ظهوره الرابع والأخير، يحمل الكريب الملفوف ووعاء السكر. فأضع أوراقي لتلقّيها، ولم يكن جاري يريد البقاء على كل حال، فقد كان يرتدي الأنوراك * وهو في طريقه إلى نادي الفيديو، ويخرج من جيبه D.V.D سيعيدها إلى النادي.

- لا أستطيع القول إنني كنت متحمساً، يقول.

وأنا أعرف هذا الفيلم: No Man's Land يتكلّم عن حرب من دون انتصار.

- لا يعرف المرء إلى أيّ طرف ينحاز، إذ ينقصه الأبطال كما ينقصه الأعداء، حتى إننا لا نعرف الممثّل الرئيسي...

وتأييداً لكلامه يشير بأصبعه إلى قائمة الممثلين على العلبة، ثم يدسّها في جيبه ويطقطق أصابعه.

- حسناً، الأفضل إعادته لهم، هذا الـD.V.D، عندما أكون وحيداً، أكتفي في العادة بصنع طبق من اللومور في المقلاة مع بقايا رز بالحليب.

* سترة واقية من المطر ومن البرد ولها قبعة متصلة بها.

18

بيتي الحالي الصغير مساحته ستة وثلاثون متراً مربعاً، فيه جداران بلون أصفر يـذكّر بعلم دولة في أمريكا الجنوبية لم أعد أتذكّرها، والجداران الآخران بنفسجيّان - ولم أمـس الألوان حينما انتقلت. في الغرفة الكبرى، حيث يوجد المكتب والحاسوب، ركن للطبخ ونافذة تشرف على الميناء. وفي الغرفة الملاصقة، أريكة - سرير، وطاولة، ومرآة وتلفاز بلوبونكت مـع شاشة 16 بوصة أبيض وأسود كان لأمي، ولا أشعر البتّة بالضيق في مسكني.

يرنّ الهاتف ثلاث أو أربع مرّات قبل أن أرد.

يقول لي إنه في سبيله للتعافي من حصّة التزلّج وإنه حضّر لحم عجل مشويّاً، وسلطة بطاطا، وفتح قنّينة، وهيّأ السفرة لاثنين، فأجيبه إنني آخذة في الاستقرار وإنني بحاجة لأن أكون وحيدة للتفكير في حياتي الجديدة، وسأكون مشغولة جداً على كل حال خلال الأيام القريبة المقبلـة، بـل مشغولة تماماً، لأن عليّ إنجاز بعض الأعمال قبل أن أغادر لمدّة غير محدودة، ولا أقول لـه إننـي أنوي تعديل مسار سفري، فيسألني عمّا إذا كان بإمكانه جلب الوجبة لي.

بعدما وضعت السمّاعة، أعود إلى الأمور الجديّة فأتناول برنامج التلفزة.

يلاحق كاثلين رجـل، لكنهـا تقلـب الأدوار وتأخـذ في مطاردتـه، ويفـضي هـذا إلى حادث يجعل الرجل يعود إلى ملاحقـة المـرأة. وفي غـضون ذلـك يتـشاجر مـع المـرأة زوجها السابق.

أطفئ التلفاز وأفـرد الأريكـة - الـسرير، فأحـد أسـس حيـاة امـرأة مـا هـو النوم، لم أبدّل بعد غطاء اللحاف؛ وإذا ما أدخلـت فيـه أنفـي فـسأشتم رائحـة بيتي السابق، والسرير الزوجي. ولكنني لـن أتـرك نفـسي تتأسّـف عـلى قطعـة

أثاث، فأغيّر غطاء اللحاف، ثم أنفض الوسادة، وأسند وجنتي إليها. لديّ ثماني ساعات، وكدسة من أعمال الترجمة تنتظرني.

الليلة الأولى طيّبة، على الرغم من انعدام الستائر ومصباح الشارع الساطع في الخارج؛ والأصوات التي تأتيني من النافذة المفتوحة لا تذكّر بشيء مألوف، أما الرائحة فهي الرائحة ذاتها أثناء العمل.

ويتكلّم أناس في الطابق الأسفل، إنهم قريبون كأنهم يهمسون لي بشيء في أذني؛ أحدهم رجل، لكنني لا أتمكّن من تمييز إذا ما كان الآخر امرأة، إذ يظلّ الصوت معلّقاً في الهواء.

- إن الأمر كما أقول لك، إنه خائف من دون شك.

- هل أنت متأكد من أنك لا تريد الدخول وتناول الشاي؟

- لا شكراً، هذا غير وارد.

- لديّ فطيرة تؤكل مع الشاي.

ألقي نظرة خاطفة من النافذة، وأنحني ربما أكثر من اللازم، وأنا أهتزّ كما لو أنني على عارضة الجمباز، لكنني لا أميّز شيئاً. ولعجزي عن النوم، آتي برواية من القرن الماضي، وهي مأساة عائلية تمتد إلى ثلاثة أجيال وتصل تشعّباتها حتى جنوبي البيرينيه، وأنهي الجزء الأول في الرابعة والنصف ثم أنهض لعمل الشاي والخبز المحمّص. غداً، سأشتري فطيرة من المخبزة.

عندما أستغرق في النوم أخيراً، أرى حلماً من هذه الأحلام العبثية تماماً: إذ أتكلّم اللغة الكلتية القديمة وألقي التحيّة من طرف شفتي على جاري في الطابق، وأمسك فجأة بزجاجة كوكا فارغة أرغب في الذهاب لبيعها، لكنني أجد نفسي عندئذ على أرض وعرة وسط الطبيعة، ولدى استيقاظنا بغتة، أنتبه إلى أنها الساعة التي تخرج الفطائر الأولى فيها من الفرن، في المخبزة القريبة.

19

إنها أودور على الهاتف.

فبمناسبة النبأ الـذي ورد في الأخبـار، وفحـواه أن بحـوث الوراثـة كـشفت عـن أن المرأة تلعب دوراً أكبر من الرجل في تطوّر البشرية، تنوي المجـيء لتدشـين فـرن مكـان عملي بتحضير الفطور - وستأتي إذن غـداً مـع مـاء مقـدّس مـن الكنيـسة التـي تعزف على الأرغـن فيهـا لترشّـه في مـسكني وذلـك لأن الأزواج الـسابقين، كـما تشرح لي، كثيراً ما يُدعَوْن إلى الطعام، ويكونون موضع عناية، ويُسألون عـمّا إذا كان ممكناً المرور بمساكنهم لتنظيفها. إذ تتـضمن جبهـة المـساندة التـي تقـدّم المـساعدات للرجـال العديـد مـن الأمهـات والـشقيقات ونـساء الأصـدقاء، والزوجات الـسابقات، وصـديقات الزوجـات الـسابقات والحمـوات الـسابقات وصديقات الحموات السابقات. فيطلب مـن المطلّقـين الجـدد جلـب غـسيلهم الوسخ ليغسل في آلة الغسيل بينما يتناولون وجبتهم، ثم يُمضي الأطفـال الليلـة عنـد مـضيفيهم بيـنما يخـرج الآبـاء مـع أصـدقائهم. وتفـيض أودور بـالكلام، وينقسم كل مقطع إلى عدّة جُمل؛ وفيما عدا ذلك، فهي رائعة.

أخذت السماء تمطر ويُخشى من الجليد. وقبل مجيء صديقتي، أسرع إلى الـدكّان؛ فإضافة إلى القهوة والفطيرة، أنا بحاجة إلى ملح خشن لرشّه على الممر المغطّـى بطبقـة من الجليد، وأنا أفكّر بساعي البريـد بعـصابته الحمـراء الـذي يطـرق البـاب حيـنما لا تـدخل التجـارب التـي عـليّ تـصحيحها في صـندوق البريـد ويتحـدّث باستفاضـة عـمّا يستحوذ على اهتمامه: القفز بالزانة.

ولدى عودتي، وأنا أسير بحذر على الرصيف، والكيس البلاستيكي بيدي، أجد صديقتي، الموسيقية الجميلة، قاعدة بالورب على الدرجات غير المكنوسة وغير المُملّحة التي تؤدّي إلى باب المدخل، مُمسكة بقدمها، فقد انزلقت على طبقة من الجليد؛ وقدمها اليسرى تُشكّل زاوية غير عادية تحتها. ومع ذلك تشير لي بيدها مع ابتسامة متشنّجة. وأوّل فكرة تخطر ببالي وأنا جالسة القرفصاء بجانبها هي القيام بواجبي المدني بسحب علبة الملح من كيس المشتريات حتى أنثر منه على الموضع المحيط بها لتحديده، كما يُفعل عندما تُرسم بالطباشير حدود الجثث في المسلسلات البوليسية الاسكتلندية التي أترجمها، فسأخطّ عندئذ محيط امرأة حامل في شهرها السادس كانت تسير على الرصيف أمام مسكني المؤقّت.

- إنها الأربطة بالتأكيد، تقول، ونحن نتأمّل الانتفاخ غير العادي لكاحلها الأيسر.

وينتابني شعور عميق بالذنب يجعلني أتذكّر عندئذ - لسبب لا أدريه - حلم الليلة الماضية، وأحاول التخفيف عنها بالقول إن كل شيء على ما يرام وأسألها عمّا إذا كانت تستطيع المشي. لكن من المستحيل عليها وضع رجلها على الأرض، فأحاول مساعدتها على الوقوف، لكنها تنهار وهي تئن بصمت إلى الحد الذي يجعلني أصعد مسرعة لاستدعاء سيارة إسعاف.

وضعوها على النقّالة مغطّاة ببطّانية صوفية، وشدّوا الأحزمة على بطنها الضخم المستدير الذي بدا كبالون منفوخ تحت الغطاء، وتلتفت في اتجاه كيس ورقي بني على الدرج.

- اعذريني، تقول، لم آت إلا بطعام جاهز ينبغي تسخينه، أعدك بأن أقوم أنا نفسي بالطبخ في المرة المقبلة.

ويُشنِّج الألم وجهها بينما تُحمل النقالة، فأرافقها إلى السيارة، تشدّ على يدي لتوديعي.

- وددت لو أنك تصطحبين تومي من الحضانة لإبقائه عندك أثناء نهاية الأسبوع، وأنا معتمدة عليك. إذ أفضّل عدم إشراك أمي في كل هذا، ليس الآن، بسبب ضغطها الشرياني المرتفع. الشيء الوحيد الذي يجب الاحتراس منه، هو أنه يمشي في نومه، فهو قادر على فتح الباب للاختفاء عند زاوية الشارع، بل وتعريض نفسه للخطر، لقد عثرت عليه مرّة هناك شديد القرب من البحيرة، ولا ينبغي على الأخص إيقاظه فجأة في هذه الحالات.

وأطمئنها إلى أنني سأهتم به بقدر استطاعتي.

- وهو يجب أن توضع خصلة من الشعر على وجهه عند النوم، تضيف صديقتي صاحبة ذيل الحصان الطويل. ويبدو لي أن هذا يقلّص خطر رؤيته يمشي في نومه.

- سأتذكّر ذلك.

- **هاكونا ماتاتا!** تصيح، وهذا التعبير من اللغة السواحلية ويعني: «لا تحملي همّاً»، ويأتي من **الملك الأسد**، فيلمها المفضّل.

وتحييني بيدها، وعلى وجهها ابتسامة عريضة.

وأظلّ واقفة وسط الممر غير المملّح، في ضياء منتصف النهار الشاحب، وبين يدي أرز كامل، وطبق من الخضار العضوية، وهريس المشمش بالسكر، في أوانٍ كرتونية.

وعوضاً عن البقاء مكتوفة اليدين، أشرع في نثر الملح على الدرج.

20

من دون نيّة منّي في زيادة هموم أودور، نظراً للوضع، يجدر بي القول بوضوح ومن دون مواربة إنني لا أعرف شيئاً فيما يتعلّق بالأطفال، فليس لديّ أخ ولا أخت أصغر مني، والحي القديم الذي نشأت فيه مأهول بأناس مسنّين على وجه الخصوص؛ ولا يأتي أحد ليطلب منّي رعاية أبناء عم صغار؛ وفي الريف شرقي البلاد، كان الأطفال في السن ذاتها ولم يكن هناك صغار يتدخّلون في شؤوننا ضمن سقيفة المستودع.

السماء والعلي القدير، كما آمل، فوق رأسي، وأنا أتّخذ طريقي إلى الحضانة، وعطلة نهاية أسبوع طويلة جداً، وأنا لوحدي مع طفل، إذ يمكن القول إن الأمر يتعلّق بنوبة حراسة دائمة، ثمان وأربعين ساعة بطولها، تحت مسؤولية مستمرة. فينبغي تحضير ثماني وجبات على الأقل، أربع منها ساخنة، وتنظيف الأسنان خمس مرات أو ست، واستحالة الانتظام أكثر من نصف ساعة؛ ولأن ألعاب الأطفال لا تتجاوز الخمس دقائق، من الواجب دائماً ابتكار شيء آخر، وأتخيّل أن تجري كل الأمور ببطء وأن عليّ تأجيل بقية مشاغلي.

إن البناء الخشبي المنخفض والمتعدّد الألوان، جدير باسم بيت الأقزام، بين البنايات العالية، ويتباين مع المحيط، وفي الداخل، كل شيء على المقياس ذاته، فالعالم قد تقزّم، إذ يدخل المرء إليه مثل غوليفر في بلاد الأقزام محترساً من وضع قدمه على الصغار الذين يمضون فيه حياتهم من الثامنة حتى الخامسة مساء، خمسة أيام في الأسبوع.

ويسترعي انتباهي على الفور، لأنه يتميز عن المجموعة برأسه الكبير بالنسبة للجذع النحيل، وعظام الكتف المتراجعة إلى الوراء قليلاً. والأذنين المجهزتين بجهاز سمعي قديم جداً لطفل مثله، بارزتين وتتجاوزان الشعر: وقد شرحت لي أمه أنه يحرص على إبقائه طويلاً لتغطية الأذنين. ولأنه ولد قبل أوانه بشهرين ونصف، فهو أصغر من أترابه في مثل سنّه؛ وتناسب الجذع غريب مع بقية الجسم، وكأنه عجوز في جسم طفل.

«أشتري له بصفة عامة ملابس أصغر بقياس أو اثنين من سنّه؛ ولا يوجد إلا القياسات الفرنسية التي تناسبه» تصرّح أودور.

علاوة على أن الطفل يضع نظارة مربوطة وراء الأذنين بحاملين مزوّدين بنوابض يجاوران الجهاز السمعي، وتكاد العينان تملآن العدستين. ووفقاً لما قالته أودور لي، فإن مظهره يثير الانتباه ويبعث أكثر الأحيان على الشفقة، وخاصة من قبل العجائز اللائي يعطينه أحياناً بعض الحلوى يخرجنها من جيوب معاطفهن.

يتعرَّف تومي عليَّ مباشرة مبدياً سروره لرؤيتي، ويطوّق خصري للحظة بذراعيه ناظراً إليّ، منتظراً منّي فهمه والاعتراف بوجوده، وبما أنني أجهل لغة الإشارات، يبذل جهده في الكلام بوضوح، فيبالغ في حركات شفتيه لإخراج صوت لا يسمع منه هو نفسه إلا جزءاً ضئيلاً، وهو الجهد ذاته لكل كلمة، إلا أن صوته يرنّ بشكل غريب ولا أفهمه إلا بصعوبة؛ فأقعد القرفصاء حتى نستطيع النظر في أعين بعضنا البعض بينما يتكلّم.

- كان موضوع عملنا اليوم هو الفطر، تترجم المعلّمة، مع أنني متأكدة من أن تومي يروي لي شيئاً آخر.

قليل مـن الأطفـال رغبـوا في أكـل الفطـر عنـد الغـداء، حتـى أن أحـدهم أصـيب بالغثيان وتقيأ على المائدة. وتوضح لي المعلّمة أكثر: إذ تشتغل المدرسـة هـذا الأسـبوع على حاسة الذوق المرتبطة بالعولمة، بالاشتراك مع مؤسسة بيت كل الشعوب.

- إننا نفضّل الآن هذا الخليط من المحلّي والدولي في الوقت الـذي تنفـتح الحـدود للاستثمارات؛ فنقترح مائـدة مفتوحـة تـشتمل عـلى أطعمـة لذيـذة يتناولهـا الأطفـال بنكاشة الأسنان، وهكذا تـستطيع الأصـابع الـصغيرة تـذوّق الزيتـون الأسـود والحـوت الحامض والموزيريللا والفيتا، وجبن الماعز الفرنسي، وسجق الخروف، والسمك المجفّـف والفطر.

ويقدّم لي الصغير باهتمام رسوماً للفطر، منظوراً له من أعلى ومـن الجانـب، كأنـه يوضح كلام معلمته، ممسكاً بيده كيساً بلاستيكياً يحتوي اثنتين من ثمار الفطر قطعت كل واحدة إلى شطرين لملاحظة داخلها.

والأسئلة التي تتطلّب حلاً سريعاً تتلاحق في نفسي، فعلى سبيل المثـال، هـل تكفـي ثمرتا فطر لعشاء طفل في الرابعة من عمره؟ وهل عـليّ أن أسـاعده في ارتـداء الأفـرول الواقي من المطر أم إنه سيمتعض من ذلك؟ ويريد بالأحرى ارتداءه لوحده؟ وهـل مـا يريده، أفضل حقاً؟

كانت أودور هتفت للمدرسة قبل مجيئـي ويبـدو أن المعلّمـة تريـد أن تحيطنـي علماً بالوضع بالتفصيل.

إن توجّهنا هنا، في بيـت الأقـزام الـصغار، يقـوم عـلى النظـر إلى كـل طفـل على أنه فريد ومختلف. ونحـن نـؤمن بقـوّة مـن هـم ضـعاف، أولئـك الـذين اضـطرّوا لتجـاوز المحـن، ويظهـرون بـشكل مـا، أقـوى مـن الآخـرين، فعنـدما

تنقصهم حاسة مـن الحـواس، تحـلّ حاسـة أخـرى مكانهـا وتـصبح فائقـة الحـساسية، كالسمع لدى المكفوفين، على سبيل المثال، أو البصر لدى الصم.

ولم أجرؤ على ذكر النظّارة وجهاز السمع لدى تومي في الجملة ذاتها.

- إذا كان المرء مختلفاً، فيمكن له أن لا يكون كالآخرين تماماً، تصيح امـرأة قـصيرة وهي تلبس جواربها الصوفية.

- بالطبع، يا جيرنزودور! تؤكد المعلّمة بحزم، ونحن نشتغل على هذا كفريق.

- أنا، لديّ بقع نمش وجدّي مصاب بالسرطان، تواصل القصيرة.

- بالضبط، وهاهنا المشكلة.

ويشار إلى الطفلة بحركة، أن إسهامها في المحادثة قد انتهـى. فتلتفـت المعلّمـة إليّ من جديد.

- لدينا طفل أبوه سينيغالي ثم، بالطبع، تومي الذي يعاني من الصمم، ولدينا كثير من الأطفال المصابين بفرط النشاط أو يعانون من اضطرابات في النمـو، وأطفـال يعـانون مـن البدانة المفرطة وبعضهم لأبوين مثليين جنسياً.

أتشجع أخيراً على إلباس تومي الأفرول الواقي مـن المطـر والطاقيـة التـي ينـاولني إياها.

- هذا على الأقل، أستطيع فعله. لقد ارتفعـت درجـة الحـرارة ثمـاني درجـات منـذ الأمس.

- بناء على الأرصاد الجوية، تقول المعلمة، ينبغي ارتداء البنطال الواقي مـن المطر الأسبوع المقبل أيضاً، فالأطفال يحبّون اللعـب في الـبرك، أليـس كـذلك يـا تومي؟

وتلتفت إليّ مرّة أخرى وتهمس كأنها تبوح لي بسر:

- البعض يكرهون الشجار، ويحب الآخرون التخبّط في الوحل، والحق أن نقص تواصل تومي مع رفاقه الصغار يقلقنا، إذ يفضّل الانفراد بنفسه أو اللعب في زاوية الدمى مع البنات. ونحن نعمل على تقوية ثقته بنفسه لكنه يأبى تماماً التعارك، فليس لديه أي أثر لغريزة الصيد أو الاقتحام، وهو دائماً في مؤخرة الفريق، متجنّباً الصدام. ولو كان فقمة فسيكون أول من تقتله الذكور ولن يتوصّل أبداً إلى التناسل، إذ ينبغي أن تجد العدوانية متنفّساً مقبولاً وتُوجَّه بكيفية إبداعية وقد جرّبنا وسائل مختلفة لتدريب تومي على مواجهة الصعاب، ومع أن الأسلحة غير مسموح بها، إلا أننا نغض الطرف عن استعمال الصبيان قطعاً من الأخشاب كبنادق، أما تومي فيجعل القطع الخشبية تتحدّث بعضها إلى بعض بلغة الإشارات: إذ تمثّل الجد والجدّة.

«بان! أنا ميتة»، تقول عندئذ للصغير.

وترمي بنفسها أرضاً، أو بالأحرى تسقط على ركبتيها، وتقرر البقاء هكذا، ها هي الآن تقف على قدميها وهي تمسح الغبار عن ركبتيها، وتبتسم بحرارة.

- يحب الصبيان كثيراً لعبة عسكر وحراميّة.

ويتسلّل تومي ورائي.

- لست أنا ولا إليزابيت.

- ليست إليزابيت ولا هو، ترجم لي المعلمة، وتنظر في عيني وهي تتوجّه إلى الصغير: لكن إيلوغي مار، يجب أن تطلق عليه النار، ويحب بالفعل أن يتظاهر بالموت؟ أليس كذلك؟

21

تهتف لي أودور بينما كنّا في الطريق إلى الدكان لشراء مستلزمات الطعام لنهاية الأسبوع، وتكوين احتياط غذائي للصغير، وتقول إنها لا تزال قيد الملاحظة، مع عصابة ضاغطة في قدمها، ويجري الآن فحص لأجزاء أخرى من جسمها، أما الجزء الأوسط فمن اختصاص مصلحة أخرى وتخصص آخر. ولا تستطيع الكلام طويلاً بل تود الاطمئنان على الطفل.

وتخفض من صوتها:

- آه، ثمة شيء آخر، فهل تستطيعين شراء قنينة نبيذ أحمر لي، إذ لا يعطوننا في المصلحة 22 ب إلا الحليب لنشربه مع الوجبات.

ولا تخطئ العين في معرفة من هم آباء نهاية الأسبوع، ومع أنهم لم يكونوا اشتروا بعد الطعام في السابعة والنصف من مساء الجمعة وأن عليهم العودة فيما بعد إلى المنزل وطهو الطعام للأطفال المُنهكين، فإنهم يتمهّلون مع ذلك ليرمقوني بنظرات ذات معنى عبر الرفوف. وأنا أيضاً أتبعهم بعينيَّ، ولكن لأسباب عملية محض: إذ أنظر إلى ما يشترون وكيف يتصرّفون. ولهذا أختار واحداً من بينهم، مع طفلين خجولين جالسين في عربة المشتريات، وأتبعه. ألاحظ طريقته في ترتيب المشتريات بادئاً بأطراف العربة، ثم وضعها فيما بعد إلى جانب الطفلين، ثم وضع الجبن الأبيض والموز والمقانق تحت ركبتيهما، إضافة إلى الخبز والحليب والمعكرونة والبسكويت؛ ويدس أكياس شرائح لحم الخنزير بين الطفلين، ويكدّس لفائف الورق الصحي عند قدميهما، على البوط.

وعندما أحاول استذكار كيف كنت طفلة، لا أتذكّر الكثير مما يهمّني الآن معرفته. ولكن خطرت لي مع ذلك فكرة شراء جريش الشوفان لأن أبي كان يحضّر لنا، أنا وأخي، العصيدة في الصباح؛ فهي الشيء الوحيد الذي كان يتقن صنعه على الأرجح، ثم أضيف بعض دبابيس الدجاج المشوية، لأن الصغير أفهمني أنه يشتهيها. ويشير بأصبعه إلى إناء الزيتون؛ إذ يريد زيتوناً مع الدجاج. وعندما وصلت إلى الطابور بالقرب من الصندوق، أضفت دمية باربي لذكر بلباس البحر مع طفل بين ذراعيها، لأنني لاحظت أنه يطيل النظر إليها، فإذا ما كانت ذكرياتي دقيقة، تتلخص الطفولة بالرغبة في أشياء لا يتمكن الطفل من الحصول عليها؛ ولهذا لن أدع هذا يحصل لمن هو في حمايتي وأتحمّل المسؤولية عنه في نهاية الأسبوع. والتسوّق لطفل أقل تعقيداً مما كنت أظن: إذ أشتري ببساطة ما يرغب به، ويبدي رأيه بهزة من رأسه. وفي طريقنا إلى البيت، أتوقف عند نادي الفيديو القريب. فقد احتفظت، لحسن الحظ، بجهاز الـDVD لأن لدى نينا ليند جهازاً جديداً، وبينما أقلّب بين يدي فيلمين اقترحهما البائع عليّ بحرارة - كلاهما للعزّاب أو المُطَلَّقين -، سارع الصغير لاختيار فيلمه المفضّل.

وأدخل من ثمّ إلى الدكّان الصغير المجاور حيث يقوم رجل ذو شعر مخروطي ببيع بطاقات اليانصيب، وقد اختار الصغير الأرقام عندما رفعته إلى مستوى المنضدة فَعَلَّم خمس خانات كمحترف، بواسطة قلم رصاص.

- سنتقاسم الجائزة، أقول له، سيكون لك النصف ولي النصف الآخر.

وهو مشغول بإتقان مهمته ولا ينتبه إلى إنني أكلّمه.

- إن الجائزة الكبرى مضاعفة سبع مرات والحظوظ هي دائماً حظوظ، مهما كانـت ضئيلة، يقول الشاب الذي يبدو أكثر نضوجاً مما يُظَن بسبب البثور في وجهه.

نخرج مع فيلمي **الملك الأسد** و**عازفة البيانو** وهما تحفتان سادو مازوشيتان يُحـذَّر منهما للنفوس الحساسة لكنهما، رائعان ببساطة للنفوس الأقل حساسية.

22

أنزع حذاء الصبي الصغير. ويظهر عليه السرور سريعاً، فقد عثر على مخبئين في الشقة الصغيرة: مقصورة الدوش وخزانة الحائط الوحيدة. ويُبدي على الفور اهتماماً حصرياً بالطرود فأشير إليه أن بإمكانه رؤية ما فيها. ثم يظهر أمامي فجأة، ممسكاً بيديه الاثنتين كأساً مملوءةً بالماء إلى الحافة، يضعها على الطاولة، يتردد وهو يداعب شحمة أذنه، ثم يُدخل يده في كُمّ كنزتي، باحثاً عن المرفق، ويلامس أخيراً براحة يده الصغيرة شعري القصير. يختفي ويعود على الفور مع مشط ومقص، ويقف أمامي بلا حراك، مستفهماً، فأفهم الآن كل شيء.

- بإمكانك تمشيط شعري، أقول، ولكن ليس قصّه. لأنني سأطيل شعري.

حتى الآن، جرت محادثاتنا من دون صعوبة، بشكل يفوق التوقّع. وأشعر بتزايد التفاهم بيننا وحتى بوحدة الأفكار، فامرأة مع طفل ليست بحاجة إلى أي رفيق آخر.

بعدما شاهدت معه فيلم **الملك الأسد** مرة ونصف، أهيّئه للنوم بوضعه على الأريكة التي حوّلتها إلى سرير. فسنتقاسم اللحاف؛ ويأخذ في علك جزء من المخدّة ومص طرف من ملاءة اللحاف. وعندما يستغرق في النوم، أنهض لإقفال باب الشقّة لتجنب خطر خروجه. لقد كدّس كتب الطرود بشكل برجين مرتفعين على الأرضية.

إنها الأمطار والرياح، وهناك في مكان ما مصراع نافذة يطرق، لأن أحداً نسي إغلاقه؛ وربما يكون ساكن المكان يعمل ليلاً. وشرفتي التي تتسع في

العادة لطاولة مطبخ إضافة إلى كتاب، غارقة بالمياه - فالبالوعة سُدَّت، والكهرباء ترِفّ، والمسؤولية تشمل كل شيء عندما يكون المرء مع طفل. وما إن يستغرق في النوم حتى أخرج لإفراغ الشرفة من المياه والجليد حتى لا يغرق مسكني المؤقّت. وفي المسكن المقابل تقوم امرأة مسلّحة بمجرفة بالعمل ذاته؛ إذ يبدو أن ثمّة امرأة في كلّ طابق، مستيقظة وتكافح الأنواء في مسكنها المُشَرّب بالماء.

الصغير مضطرب؛ ويدفع اللحاف برجليه كلما غطّيته، فأخشى أن يأخذ برداً، ولهذا أظلّ مستيقظة أقطع الغرفة جيئة وذهاباً وأنا ألاحظ نومه. تنفّسه يورثني القلق، إذ يبدو أنه يتباطأ بصفة غير عادية، كأنّه يُمسك نَفَسه أو يتوقّف عن الشهيق. فأقارن تنفّسه مع تنفّسي في حالة الاسترخاء لكن المقارنة لا تستقيم. وفي اللحظة التي كنت أتهيّأ للتدخّل، إذا به يستنشق الهواء بعمق بينما يرتفع صدره وينخفض بكيفيّة جليّة، أثني اللحاف قليلاً لمتابعة حركة القفص الصدري للبصغير، مع أنني لا ألحظ أنفاساً على وجهي، وسيقتضي الأمر نصف الليلة حتى أفهم ما تنفّس الطفل، قبل أن أستغرق في النوم أخيراً على الأرض أسفل الأريكة، تحت بطّانيّة صوفيّة بمربعات.

عندما أستيقظ، يبدو لي أنني لم أنم إلا قليلاً، لكن الصباح أشرق بضوءه الخافت وأنشغل من جديد بطفل لا يمتّ لي بصلة القرابة، أنظّف أسناني من دون إشعال النور وأفتح حنفية الدوش ثم آتي بالطفل النائم، وأخلع عنه بيجامته؛ إنه يرتجف عارياً على البلاط البارد، حتى وإن وضعت عليه كنزتي لفترة وجيزة. آخذه إذن، وهو شاحب تماماً، تحت الدوش وأغسله بالصابون من الأعلى إلى الأسفل. بدأ الطفل بالاحتجاج، لكنه ما إن

استيقظ تماماً حتى أخذ يتخبّط في الماء برجليه وهو يصفّق بيديه. أرفعه لوضعه على مقعد قبل مسح البخار عن المرآة حتى يستطيع رؤية نفسه بينما أمشّطه وأعمل له فرقاً إلى الجانب. وشعره يقطر على رقبته. وعلى الرغم من أنني لا أعرف شيئاً عن الأطفال إلا أنني أحاول القيام بالمهمة التي أوكلت إليّ كما يجب، والشيء ذاته بالنسبة لأمّي، التي لا يمكن عدّها صديقة للقطط - حتى أنها تدّعي الحساسية منها -، لكنها لا تزعج أبداً أيّة قطّة، إذ تربت على القطط التي تقترب منها وتداعبها، بل وتقدّم لها الحليب الدسم تحت ظُلّة المدخل.

«لقد كان يبدو عليها الضعف الشديد، المسكينة»، تقول وهي تتخلّص من أوبار القطّة.

أترك ورائي المنشفة المبتلّة على البلاط، وأسرع إلى ملابس الصغير وأنا أرسم علامة الصليب عليه في وقت لم أكن أظن أبداً الاستعانة بالعناية الإلهية بهذه الطريقة؛ أدهنه بالكريم واضعة خلف أذنيه قطرة من ماء الكولونيا المخصصة للرجال ظلّت زجاجتها لدي. أخيراً، أُلبسه بنطالاً وكنزة، وأجلسه أمامي بالقرب من الطاولة في ركن المطبخ الضيق.

إن الصباح في الشتاء يتّصف بالسكون والتجهّم. وقد تحسّن الطقس؛ وكأن سباتاً هوى على الناس اليوم التالي للمنخفض الذي شمل الجزيرة، فأوقف الحياة العملية، وكأن كل شيء كان في درجة الصفر والجميع ينامون نوم **الحسناء في الغابة النائمة**. وأحضر عصيدة الشوفان وقهوة. وبينما يبتلع اللقمة الرابعة يشير بسبابته إلى الساعة فوق الثلاجة رافعاً أربعة أصابع من اليد اليسرى، ثم ثلاثة أصابع من اليد اليمنى وأصبعاً من اليسرى وأخيراً

الإبهامين هازّاً رأسه بقوّة في اتجاه الساعة. ولا مجال للخطأ، إذ تشير إلى الساعة الرابعة وسبع دقائق، ولاشك في أن الظلام مايزال سائداً.

أعود معه إذن تحت اللحاف، وهو يرتدي بنطاله، وبما أنه لا فائدة من بقائي مستلقية ومستيقظة تماماً، أشعل التلفاز وأدخل D.V.D في الجهاز. وقد ظلّت بطاقة اليانصيب في كيسها البلاستيكي. وبعد قليل أوقف جريان القصة في خضم الحوادث، عندما تعمد البطلة إلى قطع شرايينها بشفرة حلاقة على حافة حوض استحمامها، إذ خطرت لي فكرة رؤية الرقم على ظهر البطاقة وطلب المجيب الآلي.

- لاعب واحد عنده كل الأرقام الرابحة، ويربح الجائزة الكبرى بكاملها، يقول صوت مضيفة الطائرة عبر السمّاعة، أربعة وأربعون مليوناً وخمسمئة وثلاثة وعشرون ألفاً وستمئة واثنان وعشرون كورونا.

على البطاقة، أرسم دائرة حول أرقام الصف الثالث وأطلب الصوت بالهاتف من جديد. إنها الإجابة ذاتها والأرقام ذاتها. فخطرت لي فكرة تفقّد الشرفة لمعرفة ما إذا كان الماء قد اختفى منها، ثم التوجّه للمطبخ لشرب كأس من الحليب، ثم التحقّق من أن الأنوار مشتعلة في المنازل المجاورة، ثم الجلوس لمشاهدة بقية الفيلم.

هذه المرة، ليس الأب لخمسة أبناء، مع تعويض الشيخوخة وفي حالة إفلاس بعدما ضمن قرض ابن حميه السابق، ولا الجدّة الطيّبة ذات الأحد عشر حفيداً الذين يتهيأ أكثرهم لتكوين أسرة وهم في حاجة إلى هذا وذاك، اللذين اشتريا بطاقة قبل خمس دقائق من الإغلاق ويتقاسمون الجائزة الأكبر في تاريخ اليانصيب الإيسلندي، بل إنها امرأة فتية نسبياً، تتشاطر

حظها مع طفل في الرابعة من عمره، أصم وعرّاف، ضعيف البصر وله رجل أقصر من الأخرى بثلاثة سنتيمترات، وهو ما يجعل مشيه غير منتظم بالجوارب فقط. ولا يمكن القول، في المقابل، أن هذه المرأة تعاني حقاً من صعوبات بالمعنى المتعارف عليه، مع أنها على وشك أن تعود عزباء، ولا إنها بحاجة خاصة لهذه الجائزة الكبرى.

وإذا ما تعلّق الأمر بقانون المصادفة، من الممكن قبول الخسارة مرتين متتابعتين، كما يمكن أن يبتسم الحظ مرتين، وسوء الحظ قد يفضي أحياناً إلى سلسلة من المصائب، كما قد يجتذب حسن الحظ حسن الحظ.

«إن الاحتمال الإحصائي في أن تتمكن امرأة تتقن إحدى عشرة لغة، بعضها سلافي، من ربح جائزتي يانصيب مرة واحدة ضئيل مع ذلك، كاحتمال لقاء عفريت عقب انهيار صخري على الطريق الوطني رقم 1، ستقول صديقتي أودور، لكن هذا الاحتمال الضئيل قد يصبح في بعض الظروف لمصطفين نادرين حقيقة جليّة، تضيف..».

23

لم يكن تأنيب الضمير قد تبدّد لديّ عندما أمضي لرؤيتها في المستشفى، ولهذا فثمّة باقة كبيرة من الورود البيضاء على المقعد الأمامي، من ابنها الصغير، مع رسم لبوق. مع أن من الواضح، كما تقول أودور، أنها كانت محظوظة إذ التوى كاحلها على درج بيتي، وإلا لما كان الأطبّاء اكتشفوا لديها تشوّهاً في الحوض، وتقلّصات مؤلمة، وتوسّعاً في عنق الرحم وضغطاً شريانياً مرتفعاً. وبديهي، على كل حال، أنها لن تغادر المستشفى عاجلاً.

إنها تنتظر على العتبة، مرتدية ما يشبه قميص المجانين وقد كتب عليه «ملكية مغسل المستشفى الوطني»؛ وتحته كنزة سميكة، وكأنها تنوي الذهاب إلى منزل ريفي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. قدمها اليمنى في جورب صوفي، واليسرى ملفوفة بعصابة ضاغطة، وتتصرّف بالضبط كأن عصابة من قطّاع الطرق القساة تطاردها، كما في فيلم أمريكي حول المافيا. وتنتظر منّي أن أشترك في المشهد وأنطلق كالإعصار، والباب مفتوح، حتى قبل أن تصعد تماماً إلى السيارة. ويستغرق إجلاسها بشكل مريح وقتاً طويلاً، وركبتاها متباعدتين كركبتي بحّار قديم، وصرّتها بارزة عبر الكنزة الممطوطة على بطنها المنتفخ الذي يبدو أنه يمس لوحة المفاتيح وهي في شهرها السادس. إذ تشعر بأن من الأفضل الجلوس هكذا، وبطنها بين الركبتين.

- هناك اثنان، تقول دون مواربة قبل أن تبتلع ريقها. وكأن بطني مملوء بالقطط، إذ لم أعد قادرة على النوم على بطني، وذراعيَّ حول المخدّة.

وأجتهد في توقّع نتائج هذه المعلومة على صديقي الذي تحت حمايتي منذ ثلاث ليالٍ، وفي الوقت ذاته، أحاول طرح الأسئلة الوجيهة.

- هل لديك الإذن بالخروج.

- لن ينتبه أحد إلى خروجي هنيهة، هل جلبت القنينة؟

أقود السيارة وتقول لي صديقتي أين أنعطف، فنمر للمرة الرابعة أمام الكنيسة ونهبط إلى شارع سكولا فوردوستيغور؛ وقد احتست أكثر من نصف قنينة النبيذ. ويبرَّر مثل هذا السلوك في رأيي بكون نساء فرنسا وإيطاليا يلدن أطفالاً بصحة جيدة منذ قرون ولا يعانين من فقر الدم مثل نساء البلدان الشمالية. بينما كان الصغير جالساً بهدوء على المقعد الخلفي، وعلبة من الزبيب الملبّس بالشوكولاته على ركبتيه، يتابع بعينيه أمّه التي تشرب من فم القنينة. والأكورديون الذي كانت طلبت منّي جلبه على المقعد بجانبه.

- كنت أود أن أطلب منك أن تسدي لي خدمة عظيمة.

وأعرف سلفاً ما هذه الخدمة، فلديّ خبرة بهذا الشأن، على غرار ما حدث عندما ذهبت إلى أمستردام من أجل دورة في الموسيقا لخمسة أسابيع، إذ ستطلب منّي دفع الفواتير الموجودة على الرف في المدخل، وأن آتي لها بشتّى أنواع الكريم وبأشياء أخرى، وبسقي زهور اليوكا إلى جانب التلفاز - جرتين كاملتين، ينبغي تجفيف التراب فيهما بين كل سقاية وأخرى، بحيث لا تكون السقاية الثانية قبل أسبوع من الأولى. أما زهور النافذة فشيء آخر: إذ ينبغي سقيها كل يوم نصف فنجان لكل واحدة، ولا يجب أن تكون مرويّة كثيراً ولا جافة أكثر من اللازم، وإلا لن تُزهر في شباط، **وأخيراً وليس آخراً** ستطلب منّي أن آتي لها بقارئ الـCD السفري

وبأسطوانات، وألا أنسى كلارا هاسكيل التي تتمتع بمثل ما لديها من حساسية في العزف.

- أود أن أطلب منك رعاية تومي أثناء وجودي في المستشفى.

أبتلع الصدمة ولا أجد أمامي إلا الانعطاف إلى شارع بيرغتوروغاتا.

- ولكن هذا سيستغرق ثلاثة أشهر على الأقل؟

- ربما نعم، وربما لا، فلدي شعور بأنه لن يستغرق وقتاً طويلاً، شهرين ونصف على الأكثر. وسيكون تومي في المدرسة في الوقت الذي تعملين.

- ولكنني لا أعرف شيئاً عن الأطفال، ولا أعرف كيف أعاملهم.

- لقد كنت طفلة في يوم من الأيام، أفليس زوجك السابق من يرى أنك مازلت طفلة شقيّة؟

أجمع كل ما يخطر ببالي وأفتح النار. وأنتهي إلى القول إنه ربما يموت بين يدي. وتنظر أودور إلى واجهات المحلات بينما نهبط في شارع لوغافغور التجاري.

- ليس لديّ حنان الأمومة، وأنا لا أظنّ على كل حال أن يكون لديّ طفل يوماً ما، ولا أتمتّع حتى بهيئة الأم.

- ليس لدى الأمهات إلا شيء مشترك واحد: فهنّ نساء ضاجعن رجلاً في فترة الإباضة من دون أن يتخذن الاحتياطات اللازمة. ولا حاجة حتى لفعل ذلك مرتين، مع الرجل نفسه على كل حال.

- سأهمله، ولن يكون لديه ما يكفي من الطعام، وما يكفي من النوم، وأنا في سبيلي للطلاق والانتقال من مسكني.

- أن تكوني أمّاً، يعني أن تستيقظي صباحاً، وتعملي جهدك، ثم النوم مساء على أمل أن تجري الأمور على ما يرام، وهذا ما رأيته في فيلم أمريكي.

- ولكن، ماذا عن أبيه؟

- كان يسكن، بناء على آخر الأخبار، في هيفراجيردي.

- علاوة على أنني أتهيّأ للسفر - في عطلة طويلة - وسأغيب لستّة أسابيع على الأقل، وربما لما بعد عيد الميلاد. وعليّ أن أعثر على موضع لشاليه صيفي في الشرق، إذ يوشك هذا الشاليه أن يُنقل كقطع منفصلة، أقول، وفي نيتي أن أزيد من وزن وصدقية هذه المعلومات.

أحاول التفكير بسرعة، لكن هذا لا يمنع النشاز في كلامي عندما أشرح لها إنني بحاجة إلى أن أكون وحيدة، وإنني أهيّئ نفسي للسفر إلى المجهول حتى أجد نفسي من جديد.

- ليس عليك إلا أن تأخذيه معك؛ فهو الطفل الأقل إزعاجاً، ولا يحتاج إلى أي شيء ليتسلّى. إذ يظلّ جالساً بهدوء على المقعد الخلفي، ولا تكادين تحسّين بوجوده، ولا يلحّ عليك للحصول على شيء ما، ولا يطلب أبداً، حتى إنه لا يغنّي مثل بقيّة الأطفال، وحسبك إعطاؤه كأساً من الماء من وقت لآخر، وموزة كل مئة كيلومتر، وإدخال القشّة له في علبة الشوكولاته بالحليب.

- لا أعرف لغة الإشارات.

- إنه يسمع قليلاً، ويقرأ الشفاه ويستعمل الصور الحركيّة والكلمات للتحدّث مع الذين يجهلون لغة الصم البكم، وهو عبقري في اللغات، مثلك: إذ يتكلّم بثلاث وهو ليس إلا في الرابعة من عمره. فما عليك إلا تعلّم لغته، لإضافة لغة أخرى إلى مجموعتك، وتستطيعين حقاً التفاهم مع جَمَل.

ولا أعترف لها بما أجد من صعوبة في التخاطب مع بعض الأشخاص الذين يسمعون جيداً ويثرثرون، ولن يكون الأمر أسوأ بالضرورة مع طفل صغير أصم وأبكم جزئياً.

- ألم يحن الوقت للغوية المتميزة للاهتمام بمظهر وشكل الكلمات، ورؤية كيف تتحوّل المفهومات إلى ثلاثة أبعاد، وتعلّم اصطناع كلمات مع الجسم، من دون صوت؟

لديّ خلفي خبرة العناية بطفل طوال نهاية الأسبوع؛ وهذا يشابه الوحدة تماماً. حتى إنه ما من حاجة لطهو الطعام، إذ أشتري شيئاً من السوق وأقسمه على اثنين. فالطفل يجهل وقت الوجبات، ولا يحتج على ما يقدّم له، ويأكل فقط ما يجده، مثل قرد صغير في حديقة الحيوان تقريباً.

في هذه النقطة من القصة، اقتربت صديقتي مني، وهي جالسة عملياً على المكبح اليدوي، وتمسكني من كتفي.

- ولكن، ألا تظنين أنك ستشتاقين إليه؟ أقول.

- لديّ الكثير مما أعمله مع نفسي ولن أستطيع الاهتمام به كعادتي من قبل. فمنذ الآن وحتى ولادة التوأمين، ثمة شهران ونصف، ولابد أن أظلّ مستلقية كل هذا الوقت. وإلا، فهناك خطورة في تكرار قصة تومي: الحاضنة، وخيمة الأوكسيجين والفشل الكلوي وما تبع ذلك. ولم يبك قبل ستة أسابيع، وكان ذلك كمواء قطة صغيرة بالأحرى.

- وهو، هل يستطيع الاستغناء عنك طوال هذه المدّة؟

- كل ما أستطيع فعله، هو الانتظار وأنا أشاهد المسلسلات الميلودرامية وبرامج الحيوانات حتى الموت سأماً، وأزعج الجميع لأنني أكتئب عندما لا أستطيع العزف على البيانو. وليس لديّ ما أعطيه للصغير.

وقد فرغت القنينة إلى أكثر من نصفها.

- ثم إن رفقته ستصلح من شأنك، وسترين إنه يغيّرك.

- كيف هذا؟

لكنها تفضّل التهرّب من الإجابة.

- علاوة على أنه يحب رائحتك.

- كيف؟

- قال لي إنه يريد أن يكون مثلك عندما يكبر، إنك تعجبينه كثيراً.

يصعب التعامل مع تأنيب الضمير، ولهذا لا تستنتج امرأة نتائج منطقية، لأنها لا ترى إلا جانباً من الأشياء، إنها صديقتي الحميمة، وقد اختارت لنفسها طريقة حياة غير مألوفة: أم عزباء وطفلان آخران في الطريق، مثقفة جداً، أستاذة للموسيقا، مع بعض الميل للشراب؛ حامل في شهرها السادس، تنزلق أمام مسكني، ظهراً، على الدرج غير المملّح، وهي تحمل وجبة خضار هندية بالأرز لاثنين، وينكسر كاحلها، وهي التي جاءت لمواساتي. أستطيع بالطبع قلب المشكلة، كما تحب أودور أن تفعل، وأقول إنها كانت محظوظة بالانزلاق والاستفادة من فحص طبي شامل، وبناء على رؤية كلية أو، كما هو وارد في المقال الذي أقوم بتدقيقه هذه الآونة، «إذا ما نظرنا إلى مجموع الحلول» - وهي صيغة لم أجرؤ بعد على تصحيحها - فكل هذه الظروف ستمنع صديقتي من إنجاب أطفال آخرين لا يشبهون الآخرين، من هؤلاء الأطفال الذين يتطلّبون الكفاح من أجل البقاء ثم يشعر الأهل بأنهم يستحقّون العناء حتى وإن كانوا كما هم، فمن الطبيعي إذن لي، أنا الصديقة التي أقبلت لمواساتها عندما انزلقت أسفل درج بيتي،

أن أعتني بالولد الصغير الذي يحبّ رائحتي، فالإناث يعتنين الواحدة بأبناء الأخرى، وهو ما تفعله على كل حال بطّات البحيرة.

ألقي نظرة على المرآة العاكسة، يبدو الصغير قلقاً، فهو لا يرى إلا خلفية رأسينا ولا يخطر في باله أننا نعمل على تقرير مصيره. ولا مفرّ أمامي من دون شك إلا اصطحاب الصغير معي في السفر.

- أنت أفضل صديقاتي، وأفضل شخص عرفته على الإطلاق.

- ألا تظنّين أنك شربت بما فيه الكفاية؟

- لن تسنح لي الفرصة كثيراً في الأشهر القادمة، والشراب جيد للدم.

وأجازف بمحاولة أخيرة.

- لن أتمكّن حتى من مضاجعة أحد.

- وهكذا نكون متعادلتين. وعلى كلّ فليس الأمر صعباً بناءً على خبرتي، فلست مضطرّة لإبقاء الصغير معك في سريرك. ثم إنني كنت أعتقد أنك بصدد الطلاق وتعمدين إلى السفر لتغيير الهواء، ولتكوني وحيدة، في الطريق إلى ظلمة عيد الميلاد في شرقي البلاد، مهما كان هذا السفر منشطاً.

أسكت لكنني أفكّر مع ذلك في الأمر؛ فمن يدري إذا ما اعترض رجل طريقي، في متناول يدي، في مكان ما بالقرب من شلال أو ركام صخري على سفح الجبل ينزل مباشرة إلى البحر، من يدري إذا ما كان واقفاً يبدو عليه التصميم، ومستنداً إلى شظيّة من جبل الجليد وسط الرمل الأسود، رجل يمكن التحدّث معه. رجل يظهر بغتة، مطلّق حديثاً، أب لطفلين يتحمّل مسؤوليتهما ولا يرغب بأبناء غيرهما، في لباس الصيد مع بندقية، وعوضاً عن نثر الرصاص فوق رؤوس رفاقه أو تحت قدميه، ينظر في عيني

الإوزّة قبل أن يقتلها بطلقة واحدة بين عينيها. وجزء كبير من الإثارة يقوم على اكتشاف مثل هذا الرجل.

- تركت ثورستين يأخذ كل شيء؟

- كلا، فقط ما كان يرغب في أخذه، بعض الأغراض.

هي الآن ثملة ولاشك، وبدأ الصغير في التململ على المقعد الخلفي، على الرغم من البوظة بالفريز التي اشتريتها له في الطريق من محطة الوقود.

- أنت أفضل صديقاتي، والشخص الوحيد الذي لا يحاول أن يغيّرني، وما كانت فكرة جلب زجاجة الخمر لتخطر على بال أحد غيرك.

- أنت التي طلبتها منّي.

- ذريتنا هي التي تجعلنا خالدين.

نَزَلت من السيارة أمام بناء مصلحة التوليد، قدم في جورب أبيض، والأخرى في عصابة ضاغطة، والأكورديون بين ذراعيها، ولكن ها هي تطلّ برأسها من الباب.

- آه، هناك شيء آخر. نسيت أن أخبرك بأنني قطفت كمية كبيرة من توت العليق هذا الخريف ونقعتها في صفيحتين، ويمكنك أخذها، وعليك فقط أن تقلّبيها، والاهتمام بها قليلاً، وستكون جاهزة قريباً إذا ما هُيِّئت كما يجب، وسيكون الطعم مشابهاً لطعم جبل سانت إيميليون، محصول 2002.

24

نحن الاثنين معاً، أمام الفرن الصغير لتحضير أرز بالحليب عندما تهتف لي من حجرة الهاتف في المستشفى، معتذرة في البداية لعشر دقائق، ثم لتشكرني خلال العشر دقائق التالية مردّدة إنني أفضل شخص تعرفه، وهي جزئية نسيت التنويه بها. وأبذل جهدي في صبّ الحليب في القدر مع تحريكه، والجوّال محشور تحت أذني، بينما ينثر الصغير محتوى كيس من الزبيب على المغلي.

- كثير من الزبيب، يقول بصوت مسموع.

ويساعدني في خلط القرفة والسكر ضمن كأس؛ فينعكس صوت الخشخشة في الهاتف.

- ثم انفخ فوقه.

- هناك أيضاً شيء آخر! تضيف أمه صارخة في السمّاعة لظنّها أن المكالمة مشوّشة. لقد وعدته بحيوان على سبيل التعويض، ليس كبيراً، لكن له وبر مع ذلك؛ يمكن أن يكون جرنب (هامستر)، أو خنزير الهند أو فأراً حتى، لكنني شخصياً لست مع الفأر كثيراً.

وأقول لها الأشياء كما هي: إذ لا أستطيع أبداً التفكير في ما له وبر ويكون أصغر من رجل، حتى ولو بصفة مؤقتة، لكنها تردّ عليّ بأنها قصّة طويلة مع ابنها.

- أولاً، ينبغي أن يكون الحيوان كبيراً ذا وبر، بحيث يمكن مداعبته بل والجلوس على ظهره وتمشيطه. وشيئاً فشيئاً تناقصت المطالب، إذ يجب أن يكون له وبر، وبر يلتصق بالأريكة الخضراء ويتسلل إلى الملابس.

لكن صديقتي لا تظنّ أن الأمر كذلك مع الجرنوب أو الفأر، بل من الممكن الحصول على فئران من دون وبر، لكن مشكلتها الوحيدة هي أنها تميل إلى الاختباء وراء آلة الغسيل. ومن هذا الجانب فقد استُعرِضت كل الحيوانات ذات الوبر من أكبرها إلى أصغرها خلال أسابيع.

وتغرق أودور في الاعتذار.

- سأكون شديدة الامتنان لك لو رغبت في الذهاب معه إلى دكان الحيوانات لشراء حيوان يمكن نقله معكما في السفر.

عندما ننتهي من أكل الرز بالحليب ومقانق كبد الخروف، أشرح للصغير إننا سنقوم بسفر، فأتكلم ببطء وبوضوح مبرزة حركات شفتيَّ: إذ لا نستطيع حمل جرنب لأننا سنفقده عند أول محطّة وقود. وأرسم فأراً، ضمن إشارة مرور عليها خط مائل: مستحيل.

أما هو فيرسم صورة حيوان ذي أربعة قوائم يشبه كلباً، لكن ذيله كالحصان، وملأ هذا الرسم كل الورقة.

- يمكن أن نركب حصاناً في الطريق، قلت على سبيل الاقتراح، فلابد أن تكون ثمّة جياد للإيجار أثناء السفر.

لكنني لست متأكدة من أنه فهم مقصودي جيداً.

ونستمر في الرسم خلال ساعتين ونصف لمجموعة من الحيوانات المتوحشة ونقدّم عروضاً كلّ بدوره كما في السوق بمراكش. وتمثل رسومه تنويعات للرسم الأول، بألوان مختلفة، مع زخارف قد تكون بُقعاً أو حزوزاً أو خطوطاً، يمضي في رسمها وقتاً أطول مني، ولا يترك أي رسم من دون إنهائه.

نصل إلى الدكان قبل نصف ساعة من الإغلاق، وأقبل استعراض الكثير من الحيوانات البائسة ذات الوبر، قبل أن أتجه إلى حوض الأسماك محاولةً إقناعه بالحيوانات ذات الحراشف. لكنه يشدني إلى اتجاه آخر، والبائع إلى جانبه.

إن السلحفاة تبلغ سبعة سنتيمترات طولاً في الوقت الحاضر، لكنها قد تصل إلى السبعين كيلوغراماً والمتر طولاً إذا اعتني بها كما يجب، مع درجة الحرارة المناسبة، والكمادات الرطبة، والغذاء الجيد، وخاصة الكثير من الوقت، يشرح البائع باهتمام.

والبائع نفسه غزير الشعر؛ فلا تطل الأشعار فقط من فتحة قميصه ومن طرفي كُمّيه، بل تخرج أيضاً من منخريه ومن أذنيه.

- إنها حياة امرأة بطولها، أقول بلهجة تَوجُّع.

فستظلّ السلحفاة، بعدما يبلغ الصغير سن الرجولة بوقت طويل، في حوض حمام أمه.

- إن الناس يكتشفون أكثر فأكثر الخواص المهدئة للسلحفاة كحيوان أليف، يرد البائع. ولديها أيضاً ميزة القدرة على البقاء حيّة حتى ثلاثة أسابيع في الثلاجة إذا ما سافر أصحابها - ما دامت صغيرة، فمن النادر أن تتحمّل الأُسَر بعضها بعضاً لعطلة أطول.

- سنغيب مدة أطول بكثير، أقول. وعلاوة على ذلك، ليس من المؤكد في هذه الساعة، وجود ثلاجة في الشاليه الصيفي، ولا كهرباء حتى.

- عند شراء خنزيرين هنديين، ثمة هدية هي زجاجة سائل للفقاعات؛ وإذا ما اشتريتم خنزيرين هنديين وجرنوبين لكم الحق في هدية تتمثل في

وجبة طفل لدى ماكدونالد؛ ومع كلب: وجبتان هامبورغر مجانيتان مع بطاقتين لفيلم حول الديناصورات ممنوع لمن هم أقل من عشر سنوات. ولشراء كلب وجرنوبين وخنزيرين هنديين، لكم الحق في زجاجة سائل للفقاعات، وبطاقتي الفيلم حول الديناصورات إضافة إلى شراب كحولي لاثنين في بار وسط المدينة.

أشير إلى الصغير أن الدكّان يوشك على الإغلاق وآخذ بيده بلطف ولكن بحزم إلى حوض الأسماك. وغالباً ما تكون التسوية مُذِلّة ولا توافق، في كل الأحوال، رغبة أي من الطرفين. وكما هو متوقع، فلبائع الأسماك عينان مستديرتان، بزرقة الماء وليس لديهما جفون تقريباً.

ومع الأسماك، ما من هدية.

- انتقِ، أقول وأنا أرفع الصغير حتى يتمكن من تأمّل أحواض الأسماك في الرف الأعلى، وهذا يعني أن بإمكانك الحصول على أية سمكة - سنضع غطاء على الإناء وسنحمله معنا في السفر -، أسماك متنوعة، مضخة كهربائية، إضاءة دائمة، نباتات، أحجار، رمال، لُعب للأسماك، ونملأ الحوض بكهوف تحت الماء حتى تنعم بملاذ آمن وحياة أسرية، وتعيش في سلام، وتربّي ذريتها. وعوضاً عن حيوان ستحصل على عدّة حيوانات ثم نمضي مع ذلك لأكل الهامبرغر قبل الذهاب لمشاهدة الفيلم حول الديناصورات. فلسنا بحاجة لحارسة أطفال للأسماك بينما نكون في قاعة السينما.

لكنني لا أقول هذا، بل أقول شيئاً آخر، فسنرى خلال الطريق مسألة شراء كلب.

نغادر دكان الحيوانات مع ثلاث سمكات في كيس بلاستيكي وحوض من دون غطاء، وثلاث نباتات صناعية وعلبة غذاء.

وعلى عتبة الباب يسلّمني الرجل ذو العينين المستديرتين ورقة:

«شراب مجاني في الحانة، لدى تقديم هذه القسيمة»، مطبوعة على جانب، وعلى الجانب الآخر، يمكن قراءة: «موعدنا هذا المساء، إذا أردت»، بأحرف زرقاء، متماوجة ومزركشة.

في الغد، أهتف للحضانة وأخبرهم إن الصغير سيتغيّب لمدة غير محدودة. وكانت أودور قالت لهم إنني قريبة له وإنني سأعتني به.

25

ما إن تقول المرأة وداعاً إلى الأبد لزوجها بمصافحة حاسمة، حتى تصادفه صباح الغد في المخبزة وهو يشتري الخبز، ومصطفاً في الطابور بالمصرف ظهراً، وفي حوض السباحة نهاية اليوم، وفي مكتب الأحوال المدنية فيما بعد خلال الأسبوع، وفي المسرح نهاية الأسبوع التالي مع صديقته الجديدة، فالتلاقي لابد منه دائماً.

ولما نجدد بعد تماماً ثيابنا، فالملابس الداخلية هي عادة أول شيء يقوم الناس بتغييره عندما يطلقون، إذ يشتري الجميع ملابس داخلية جديدة، سواء الذين يذهبون أم الذين يُتركون. ولا أدري بالطبع، إلى أين يذهب خيال زوجي السابق، وإذا ما كان سيُهمل الملابس، على سبيل المثال، لكنه سيرى أن شعري طال ليغطّي أذنيَّ، وسيكون قريباً أطول من شعره. والزوجان المنفصلان يصبحان أكثر تساهلاً مع نفسيهما، سواء الذاهب منهما أم الباقي. ومن الخطأ الظنّ بأن الطرف المُهمَل لا يستمتع بالحياة كما كان من قبل بل أكثر من الآخر: إذ يأكل في المطعم، متذوقاً متلة الخروف المشوية في غداء يوم الاثنين لوحده، محتسياً الكونياك من فم الزجاجة، ومزدرداً نصف ليتر من البوظة المغطّاة بالشوكولاته واللوز للتحلية.

بينما نصطف في الطابور في المصرف، يرقب مظاهر التغيير الخارجية. وعلى الرغم من أن كل شيء على ما يرام في السطح، إلا إنني جديدة، فلم أعد تلك التي كان يعرفها وكانت له وسأكون قريباً امرأة أخرى وأكثر جدّة، إلى الحد الذي سأحتاج فيه إلى بعض الوقت حتى أعتاد أنا نفسي على التي تنظر إلى شخصيتها الجديدة في المرآة صباحاً. أما هو فيبدو لي في صحة

جيدة، مرتاحاً نشيطاً. وقد زاد وزنه، حسب تقديري، كيلو ونصف، فأدرك الآن كم كنّا نشكّل زوجين متناسبين، ويسأل كلّ منّا الآخر عن أخبار وصحة حماته السابقة.

- صباح الخير، وأمك أهي بخير؟

- صباح الخير، بخير تماماً شكراً، وأمك؟

- بخير على حد معرفتي. هل أتيت لتسديد الفواتير؟

لن أنوي إخباره بأنني في صدد فتح حسابين جديدين بالمصرف لأودع فيهما ملايين وملايين رفيق طريقي الموضوع تحت الوصاية، اثنان وعشرون مليوناً ومئتان وواحد وستون ألفاً وثمانمئة وأحد عشر كورونا لكلّ منّا. ولهذا أفضّل أن أقول:

- كلا، بل آتي للحصول على العملة الصعبة.

- هل تسافرين؟

- أجل، يمكن قول ذلك، في عطلة طويلة متأخرة.

- إلى أين تذهبين؟

ويبدو لي فجأة أن من المهم جداً ألا يعرف شيئاً عن قصة الشاليه الصيفي، وأن يجهل إنني أملك منزلاً ريفياً لي أنا، كما أن له امرأة له، وهو ما يظهر لي تعادلاً. في الطابور، أمامي، ثمة امرأة آسيوية، قصيرة، شعرها لامع حالك السواد؛ تمسك يد طفلة صغيرة خلاسية.

- إلى جنوب شرقي آسيا على الأرجح، تايلندا، بورما، فييتنام، ماليزيا، سنغافورة.

- هكذا! ستغيبين طويلاً.

- ستة أسابيع على الأقل، وربما أكثر، ستة أشهر ربما.

- يا إلهي!

ولتسوية أموري بسلام، أدع بعض الأشخاص يمرّون قبلي، وأنتظر خروجه وركوب سيارته ثم تشغيله المحرّك، وقد وجدته متعباً ومتضايقاً وهزيلاً، عيناه محاطتان بدائرة مزرقّة، إذ لا ينام جيداً من دون شك. وأدرك الآن إلى أي حد نحن غير متوافقين.

تتفحصني أمينة الصندوق بعينيها عندما أضع الشيك أمامها طالبة منها قسمته على حسابين مختلفين، أربعة وأربعون مليوناً وخمسمئة واثنان وعشرون ألفاً وستمئة واثنان وعشرون كورونا. ثم أطلب مليونين نقداً، من أوراق من فئة الألف، فلا أرى فائدة من اتباع أثري. ويبطئ زملاء أمينة الصندوق في العد ضمن الحجرات الزجاجية المجاورة.

- وهذا يساوي ألفي ورقة من فئة الألف، تقول ببطء، عشرين ربطة.

- نعم، أقول، من دون أن أقوم بإعادة العد، المبلغ مضبوط.

ثم تقول لي «لحظة» قبل أن تختفي، أولاً في الكافتريا للتحدّث مع زملائها، وأخيراً في القبو لجلب الربطات. وخلال غيابها، يلقي زملاؤها الأربعة نظرات إلى ناحيتي بغية تحقّق شامل.

- من الأفضل وضع المبالغ الكبيرة في أكياس لا تجلب الأنظار، وليس في حقيبة يد فخمة على كل حال، تقول أمينة الصندوق، فهذا لا يثير الشكوك، مثل كيس بلاستيكي مستعمل آتٍ من سوبر ماركت أو من المكتبة.

وتضيف وهي تناولني الكيس المحشو بالأوراق المالية:

- يقدّم لك مدير الفرع تحياته ويعتذر بسبب فتات الخبز، لأن هذا الكيس كان يحتوي زوّادته.

26

وعدا عن ذلك، لا أحمل الشيء الكثير معي، فالمهم هو أن لا أُثقِل نفسي بأمتعة قديمة. ولا أنوي الهروب من أي شيء، فأنا أمضي فقط لإعادة اكتشاف أراضيَّ الأكثر حميمية وأراضٍ جديدة في منزل صيفي أقيم حديثاً على منحدر ترابي. وما يهمني أكثر هو عدم الالتفات إلى الوراء، وعدم النوم في كل سرير إلا مرة واحدة، وعدم استعمال المرآة العاكسة إلا لمقتضيات تقنية وليس للنظر فيها، وعندما أعود سأكون شخصاً جديداً، متغيّراً، وليس مستحيلاً أن يطول شعري حتى يلمس الكتفين.

أكدّس ثيابي في حقيبة، لكنني لا أظهر عدم الاكتراث ذاته بمعدات الصغير وملابسه، ومن دون ادّعاء الخبرة بالأمر، ألاحظ أنه أصبح أكبر من أفرولة الشتوي. فأشتري له واحداً من قطعتين، الأغلى في الدكّان، وبنطالين، كما أشتري كيسَيْ نوم من الوبر، واحداً لي، والآخر لرفيق سفري الصغير، وأستعيد بنطالي المزركش وأنزلق فيه.

ما من حاجة لملء السيارة بالأغراض، إذ نمضي مع بعض الشطائر، وقنينتي ماء وبعض الكتب، وحيوانين مفضّلين من القماش وبيجامتين ثم بعض الألعاب التي ننتقيها معاً، والتفاؤل، والمرح، وبعض أقراص الـCD، وأخيراً - وهو ما لا يجب نسيانه على وجه الخصوص - صندوق السيارة الداخلي المملوء بالأوراق المالية من فئة الألف كورون.

وبهذه الطريقة أسافر من دون إمكان لاقتفاء أثري؛ ويمكن تسمية هذا سفراً من دون وعود، ولكن ليس من دون تمويل، لأن لديّ أكثر مما يلزم.

لكن يجب عليّ في البداية أن أعيد زجاجة ما بعد الحلاقة إلى زوجي السابق، وخاتم الزواج وآلة تحميص الخبز التي نسيها. أركن السيارة إلى جانب سيارة نينالينـد وأضغط على الجرس. اسماهما على الباب، اسمه فوق اسمها، منقوشان على صفيحة، وهو شيء لم ننجح في عمله طوال أربعة أعوام ومئتين وثمانية وثمانين يوماً من الحياة المشتركة. ونظارة الصغير الجالس على مقعده في الخلف تُرسل بريقاً؛ متتبعاً باهتمام حركاتي بينما أقف، أمام المدخل، وبيدي كيس سوبر ماركت. إنه يوم الأحد، والوقت قرب الظهيرة ويفتح زوجي السابق الباب مرتدياً بيجاما مخطّطة. وهي المرّة الأولى التي أراه فيها بالبيجاما، ورائحة الشقة تفاجئني تماماً، وهي رائحة جديدة عليّ ومجهولة.

- شكراً، ما من ضرورة لهذا، يقول من دون أن ينظر إلى ما في الكيس، لكن عينيه تنظران، إلى ما ورائي، إلى السيارة.

وبما أن ذقن الصغير لا تصل إلى مستوى النافذة، فلا يُرى في الواقع إلا الجزء الأعلى من طاقيته التي تسقط إلى أنفه. وعندما أخرج القهقرى من ساحة موقف السيارات، لا يزال دائماً على الباب، بالبيجاما المخططة، يتتبعني بعينيه، وكأنه كان لا يجرؤ على إغلاقه على الفور.

ومع أنني لا أعلم بعد وبالضبط وجهتي، إلا أنني أعرف على الأقل إنني سأتوجّه إلى الشرق، تحت شمس تنخفض أكثر فأكثر ويوم يقصر أكثر فأكثر. ثم أتّخذ الطريق الوطني 1 في الظلمة والمطر من دون حاجة لاختيار الطريق، فما من طريق، في هذه الجزيرة، إلا الطريق الدائري الذي يحاذي الساحل. ولست على كل حال، من أولئك الذين يخرجون عن الطرقات، ولا من الذين يغامرون على الطرق الفرعية غير المسفلتة، وعلى الطريق الوطني 1، هناك القليل من التقاطعات والقليل جداً من المواقف.

أجل، نصطحب معنا السمكات، فلا يمكن الإخلاف بوعد أعطي لطفل.

ولقد وضعنا السمكات الثلاث في أكبر مرطبان ذي غطاء تمكنّا من العثور عليه؛ والسمكات البرتقاليات تتخبّط بهزّات مباغتة لأن للأسماك ردود فعل مفاجئة، إذ تتقافز في المرطبان الذي يحدّ من حركتها. والرمل والحصى، إضافة إلى القوقعتين اللتين أتى بهما الصغير من مجموعته الخاصة، التي كان عليها إعطاء المرطبان شكل البيت، لم تزد الماء إلا تعكيراً.

تعاونّا لحشر المرطبان بين صفيحتي نقيع توت العليق والنباتات الخضراء الأربع التي سنودعها عند أمي لدى خروجنا من المدينة، فلقد كانت هدايا من حماة إلى صهرها، في مناسبات شتى، ومن الطبيعي أن تتكفّل بها، في رأيي، إذ كل ما يذوي لديّ يزدهر عند أمي. ومن دون أن أكون امرأة سيئة، ولكن من دون أقل موهبة للعناية أو تربية أي شيء، لا أتبيّن لديّ ميلاً لتشجيع ما ينمو: فأسقي أكثر من اللازم أو بعد فوات الأوان وفي آخر لحظة دائماً. بينما تزدهر الحياة في منزلها على كل الجدران.

- إن الزهور تنمو بشكل أفضل لدى فراغ الفكر، تقول أمي، بالرجوع من دون شك إلى بعض المؤلفات الشعبية المتعلّقة بالحكمة الشرقية.

فعقب رحلة إلى الصين مع إحدى صديقاتها العام الماضي، بدأت في تعلّم اللغة الصينية، لغتها الأجنبية الوحيدة بعد اللغة الدانماركية.

- عندما رأيت إلى أي حد هم كُثُر، تقول، فكّرت أن ما من شيء أفضل أعمله، من أجل المستقبل.

27

وأمـي بوجههـا البـشوش، وأعوامهـا الثمانيـة والـستين، وأسـنانها الكاملـة، مملوءة بالحيوية وأثر أحمر الشفاه البادي على فمهـا، تعـانق ابنتهـا الوحيـدة والصبي الصغير.

- كان بإمكانك تركها وراءك، تقـول بيـنما نحمـل إليهـا النباتـات، والـصغير يمـسك بأصغرها، فهي من البلاستيك، وهذه من الحرير، والأخرى من النسيج.

وهذا يفسّر لِمَ بدأت بالتعفّن، إذ سقيت نباتات اصطناعية، فلـيس مـن المـدهش أن صار كل شيء حولنا مزيّفاً، وتعفّنت حياتنا الزوجية؛ فالحب لا يزدهر وسط نباتات مزهرة دائماً. وكان ينبغي أن أهتدي لهذا لوحدي.

- توقفـت منـذ وقـت طويـل عـن تقـديم زهـور حقيقيـة لثورسـتين، لأنـك كنـت ستقتلينها. تجمع لي أمي مقالات حول موضوعات مهمة، تقطعهـا مـن الجرائـد، لأنهـا تظنّ أنني مشغولة إلى الحد الذي لا يترك لي الوقت لقـراءة الجرائـد اليوميـة. وطاولـة الصالون مغطاة بالقـصاصات المهيّئـة لي والمـصنّفة حـسب المحـاور: المـواد الـسامة في المنتجات الغذائية، الطريقة التي ينبغي اتباعها في التعامـل مـع الـدجاج النيـئ لاتّقـاء السالمونيللا، التربية، التعنيف، حماية الأطفال الصغار، إضـافة إلى تـأمّلات حـول أديـان مختلفة، يمكن أن يشغل كل منها حتى صفحة مزدوجة، وأخيراً، مقـالات حـول العمـل التطوّعي الدولي.

- هي حرب أخرى لتحقيق السلام، تقول، إلا أنهم هذه المرة يقدّرون سلفاً عدد الجرحى والمعوّقين مع رسوم بيانية وجداول بفئات الأعمار حتى تستطيع شركات الأدوية تهيئة موازناتها.

أتذكّر أن أمي، عندما كنت وأخي صغيرين، كانت تزرع البطاطا والجزر في الربيع، حينما يذوب الجليد، وأنها كانت تعقّم أيدينا وتضمّدها بعد أن تستخرج منها بقايا حصى حديقة الألعاب، لكنني لا أتذكّر أنها أبدت رأيها في شؤون العالم كما تفعل الآن.

أمي امرأة ملتزمة في حياتها، ولقد وجدت لنفسها أخيراً مجالاً جديداً للنشاط، وهو العمل التطوّعي في العالم - كأرملة تعمل من أجل الذين يتعذّبون. فهي تساند منظّمة أطباء بلا حدود، وهي عضو في جمعيات تعمل على تجهيز نقاط الماء في عدّة مناطق من إفريقيا، وتجمع تبرعات لمستشفى في سريلانكا وتهتم بالألغام ضد الأشخاص وبالأعضاء الصناعية، ومركز اهتمامها الرئيس يظلّ على كلّ حال انتظام فتيات العالم الثالث في المدارس.

- لأن المرأة هي مستقبل الرجل، كما تقول.

ولديها الآن سبع بنات تبنتهن في أربع قارات، وهناك صور لهن ورسائل شكر منهن على كل الأرفف، ولديها صبي أيضاً، فتحة بنطاله مفتوحة في الصورة، وقد فقد اثنتين من قواطعه في الفك العلوي، وابتسامة عريضة تملأ وجهه أمام الشجرة الوحيدة في الحديقة الجافة لملجأ للأطفال، وبنطاله الجينز يسقط في ثنيات عريضة على أصابع رجليه السمراء على الرغم من الثنية المزدوجة في الأسفل.

- كنت طلبت فتاة لكنهم أرسلوا لي هذا الصبي، ولا يمكن على كل حال إرجاع طفل.

أخذ الطبيب يضحك، فهل تخيّلت أن بإمكانك التخلّص من الطفل بالركض؟ وهل كنت تظنّين بأنه سيسقط إذا ما ركضت بسرعة، ولعدد كبير من الدورات؟ يا لغرابة ما يمكن لمخيّلة فتاة في الخامسة عشرة أن تخترع. إنه ينمو الآن في أحشائك، إن أردت وإن لم تريدي. لقد أخفيته أطول من اللازم، ثم إن عليك إخراجه في الوقت المناسب، صدقيني، إن الولادة تحوّل الخيالات إلى ألم.

وتزدحم السجادة الكبيرة المزركشة في الصالون بآلات الخياطة القديمة وببكرات الخيطان، المهيئة للالتحاق بحاوية ذاهبة إلى الهند قبل عيد الميلاد.

- ستستخدم هذه الآلات هناك قاعدة للاستقلال الاقتصادي للكثير من النساء، تشرح لي. وهكذا تؤمّن لهنّ أسباب الرزق وآفاقاً للمستقبل.

والصغير يجول بين الآلات، مبدياً اهتماماً كبيراً بها.

- أجل، فكثيرة هي الآلات التي لا تزال صالحة للاستعمال ويحتفظ الناس بها في مستودعاتهم.

كنت أخبرتها بزيارتنا فحضّرت كريات السمك، وما كان لنا إلا حمل تلك التي بقيت.

- لكننا نمضي في سفر.

تربت على وجنة الصغير ثم على وجنتي.

- كيف حال هذا الصغير المسكين؟ كان يمكن له أن يُهمل في أي مكان آخر.

- إنه طفل ذكي وعادي يا أمي، لكنه ضعيف السمع ويضع نظارة.

- هل يتناول حبوب كالسيوم؟ إنه شاحب جداً.

تحمل القدر بما فيها من كريات إلى السيارة وتسندها إلى جانب السمكات الحمراء. وستعتني بصفيحتي نقيع توت العليق من أجل صديقتي أودور، مثل أي شخص يعتني بما يوكل إليه. ولو كنت أتيت لها بنبتة سامة أو بعظاية حيّة، لاعتنت بهما بالحماس ذاته، ولأعطت النبتة زهوراً صفراء سامة وتكاثرت العظاية بخمسة أضعاف.

- ستعيدين إليّ القدر عند عودتك. لا تذهبي بعيداً إلى الشرق، ولا تذهبي خاصة إلى... - تخفض فجأة من صوتها وهي تنظر إلى الأرض -... نبش قصص قديمة. فما الفائدة من البحث في الذكريات القديمة، إذ لا يمكن تغيير أي شيء الآن.

بعد هذا، لم أعد متأكدة البتّة من أقوالها، لكنني متأكدة من أنها قالت:

- هل معك منديل لمسح نظارة الصغير؟

28

ولا ينقصني، بالفعل، إلا الشيء القليل لتكتمل سعادتي وفرحتي بالحياة. وليست الرؤية الجليّة ضرورية حتى، فما عليّ إلا تشغيل مساحات الزجاج بأقصى سرعة والتدفئة إلى أعلى درجة حتى يتبدد البخار شيئاً فشيئاً من نوافذ السيارة، وهي حريّة عظيمة أن لا يعرف المرء بالضبط إلى أين يمضي مسلماً قياده إلى أمان الطريق الدائري، حيث يتسلّل كل شيء، للعودة فيما بعد ببساطة إلى نقطة الانطلاق، من دون أن يحسّ به أحد تقريباً.

وبما أننا رفيقا سفر، فالصغير جالس في الأمام، إلى جانبي، ولا يبلغ إلا بالكاد ارتفاع لوحة المفاتيح. ويبدو عليه الفخر مع علبة الزبيب المفتوحة على ركبتيه، وحزام الأمان المرتفع قليلاً، على الرغم من الوسادة التي رفعت الصغير عليها. توقفني شرطة المرور عند بحيرة رودافاتن للتحقّق من عمل الأضواء، وحزام الأمان وإسداء النصائح اللازمة.

- ما من أناس كثيرين على الطرقات اليوم، يقول الشرطي تحت زخّات المطر.

ينتقل الصغير بطيبة خاطر إلى المقعد الخلفي بينما أبحث بين الأوراق المالية عن رخصة السياقة. وتساءلت، للحظة، عما إذا لم يكن عليّ التصرف كما في فيلم رديء ومناولة الشرطي ربطة صغيرة من الأوراق المالية قبل أن أنطلق من دون أية كلمة عبر الحقول أمامنا، والاختفاء في الضباب والليل الذي يزداد حلكة مع كل كيلومتر.

وما إن خلا المقعد الأمامي حتى بسطت خريطة الجزيرة الطُّرُقيّة.

والحق أن أيسلندا مرسومة هنا، متمدّدة ككلب ضائع مسكين يطوي قوائمه تحته.

وأتصدّى للبطن: فهنا يبدأ سفري، سفرنا، حيث ينتهي حقل الترمس. عندما كنّا نذهب إلى الشرق بداية الصيف ونبتعد عن المدينة - بعد ساعة على الأقل من انطلاقنا -، كان من عادة أبي أن يقول: «حسناً، ها نحن ماضون».

وأميل إلى الاعتقاد بأنه كان يقول ذلك ما إن نتجاوز حقل الترمس، ويرمق عندئذ أمي بعينيه فيبتسمان كلاهما بينما كان يربت بلطف على يدها كرجل تبدو عليه السعادة.

ما إن تبدأ الأمطار، حتى تبدأ حدود العالم في التلاشي، وتبقى نقاط بعض المعالم المبهمة في الأفق. والواقع أن البلاد بأسرها غير مأهولة إلا قليلاً ما إن نغادر المدينة. فمساحات من الرمال السوداء، وحقول من الحمم السوداء، والمحيط الأسود القريب والسماء السوداء فوق كل شيء. ومن الأفضل أن يكون لدى المرء هدف عندئذ، ويتمثل هذا الهدف الآن في الضغط باعتدال على المُسَرِّع واتخاذ الجانب الأيمن، من دون تجاوز الخط المتقطّع الذي ينصّف الطريق؛ وما من حاجة لاتخاذ قرار لما يأتي، وما عليّ إلا التوغّل بالسرعة المسموح بها عبر الرمال والحمم، إلى المستقبل الذي يَقدِم إليّ بصورة عاديّة مثلما تَقدِم محطة الوقود التالية، أو اللقاء مع الزوج المستقبلي الذي أجده مستنداً بهيئة حازمة إلى درابزين جسر؛ فأشياء كهذه حدثت من قبل، وليست مسألة بسيطة لامرأة أن تقود سيارتها وهي تلتزم جيداً يمينها، لأن العقل هو الذي يقود هنا وليس القلب.

أما الآن، فـأركّز انتبـاهي عـلى الأعمـدة الفوسـفورية عـلى جانـب الطريـق وعـلى الأضواء الخلفية لسيارة جيب قديمة تجرّ مقطورة جياد أمامي، ولا أغادر بعينـي هـذه الأضواء، من دون أن أقترب كثيراً من خلفية العربة التي ستمنعني رشاتها الموحلة مـن الرؤية. ويبدو أننا نشكّل القافلة الوحيدة على الطريق الوطني 1. هـذا يخلـق في حـدّ ذاته نوعاً من التضامن - فلنتخيّل، على سبيل المثال، أننا نواصل الـسير معـاً بعيـداً إلى الشرق، وأن تنجح نار أعماق الأرض في فتح ممر لها عبر سـطح جبـل الجليـد، وتُغطّـى الرمال بماء الجليد المذاب. فأنا والصغير ورجل الجيب القديمة - الذي لا أعرف من هو -، سنتقاسم عندئذ على جبل جليد مشترك نصف علبة البـسكويت بجـريش الـشوفان التي اشتريتها. وسكان الجزيرة الآخرون لا يأخذون عطلاتهم الصيفية في تشرين الثـاني؛ إذ لديهم في هذه الفترة من السنة مشاغل أخرى غير شد الأواصر مع بلادهم المعتمـة. أشعل المذياع، حيث يمرّرون مقطوعة أخيرة قبل النشرة الجويـة، **إذا كـان ثمّـة طريـق، فهناك طريقة.**

على المقعد الخلفي، لا ينبس الصغير ببنت شفة ويرفض خلع قبوعته عـلى الـرغم من الحرارة المرتفعة في السيارة. وألاحظ في المرآة العاكسة أنه متيقّظ، مـع ذلـك، وأنـه يتفحّص الظلمة أمامه، وعـليّ ألا أنـسى أن طفـلاً أبكـم لا يعـبّر عـن نفـسه كالـصبيان الآخرين ويتطلّب عناية مختلفة.

تتوقف الجيب بغتة وتترنّح المقطورة على الأسفلت المبتل بالمطر؛ وكـان هـذا غـير متوقع وعليّ كبح السيارة حتى لا تصدمها، وأنحرف في آخر لحظة إلى جانـب الطريـق وأطفئ المحرك.

يقفـز الرجـل خـارج العربـة، وبعـدما تفقّـد شـيئاً تحـت الجيـب ووجـه ضربـة برجلـه إلى المقطـورة التـي تحتـوي الحـصان، لا يدهـشني مجيئـه ونقـره عـلى

نافـذتي. وأتعـرّف في وجهـه الـذي يقطـر مـاء عـلى رجـل دكـان الحيوانـات، المكلّـف بالأسماك، وكاتب الرسالة ذات الأحرف المتماوجة.

- كلا، قلت، ما من مشكلة، ولا أقصد أبداً اتباعك، إنني أستريح قليلاً فقط.

ومع معرفتي بالخبرة أننا سنصل قريباً إلى الموضع الـذي سـأتبيّن منـه، عـلى الطرف الآخر من السهل، أضواء بيوت القريـة، أضـيف إننـي أفـضّل معرفـة أن ثمّة أحداً آخر على الطريق، على مسافة مقبولـة، والنظـر إلى الأضـواء الخلفيـة، إذا لم يكن هذا يزعجه.

- أرجو أن لا ترى في هذا أيّ تطفّل.

وأشعر مـع ذلـك بالحاجـة إلى الاسـتمرار في الكـلام، فتخطـر لي فكـرة سـؤاله عـن الساعة، وربما يكون هذا سخيفاً، لكننـي شـعرت فجـأة، في هـذا الموضـع الـذي تَمَّحـي المعالم الطبيعية، بضرورة معرفة الساعة. وللحظة نسيت أنّ لديّ ساعة في معصم اليـد التي تمسك بالمقود، ساعة الطلاق ذات الزمنين التي تظهر لعيني الرجـل مـن النافـذة. ومن دون أن يتكرّم بالرد، يعود إلى سيارته راكضاً، يصفق الباب وينطلـق مـسرعاً. إنهـا الساعة الرابعة والربع بالتأكيد.

29

إن الرؤية منعدمة تماماً وفي هذا المكان بالضبط، في قمّة المنحدر، يحتاج رفيق سفري الصغير إلى التبوّل.

وهو لا يريد الخروج تحت المطر والعتمة كما لا يريد الانتظار، وطبقاً للخارطة المبسوطة على ركبتي، علينا قطع خمسة وعشرين كيلومتراً عبر الحمم والرمال حتى محطة الوقود القريبة حيث يمكن الذهاب إلى دورة المياه. وفي إمكاننا، من بعد، شراء مقانق تكون طبخت على نار خفيفة طوال نهاية الأسبوع.

ولا جدوى من رفع الصوت، إذ إنه لا يسمعني: وعندما أحتاج إلى قول شيء، أشعل الغمازة وأتوقف إلى جانب الطريق حتى يتمكن من رؤية شفتي الصامتتين تتحرّكان وتشكّلان الكلمات، وفمي ينفتح وينغلق. وأتساءل عما إذا كان عليّ أن أعطيه المعلومات بوحدات الطول أم الزمن.

- أمسك نفسك، فهناك خمسة وعشرون كيلومتراً من هنا إلى أقرب محطّة، مما يعني خمسة عشر دقيقة لبلوغها مع هذه الرؤية الرديئة.

وماذا لو سألني: خمسة وعشرون كيلومتراً، هذا بعيد كيف؟ أو: خمسة عشر دقيقة، هذا طويل كيف؟

إن خمسة وعشرين كيلومتراً، مع صبي مريض في السيارة، أطول مما تكون مع امرأة مسنّة ستجري عملية في حوضها، متعبة من الحياة وشاكرة لأنها لن تذهب إلى المستشفى المحلّي على رجليها عبر مناطق مستنقعية أو

سياجات من السلك الشائك، بينما تجلس بتنورتها مرفوعة الرأس على مقعدها إلى جانب السائق.

يمضي الصمت بعد ممارسة الحب بطيئاً إذا لم تعد المرأة تحب الرجل، أو إذا لم يعد الرجل يحب المرأة. والزمن يمر بالبطء ذاته تقريباً عندما يسير المرء بالسيارة مع طفل يشعر بدوار جرّاء ركوب السيارة. ويطول الصمت لفتاة في الرابعة عشرة من عمرها في صف مختلط من ثلاثين تلميذاً أُمر بالصمت ثلاث دقائق لتقديم تعازيه للعالم، لأن أشياء مرعبة حصلت في الجانب الآخر من المحيط، فبطء الزمان عندئذ لا يُحتمل.

عندما يكون المرء جالساً في السيارة إلى جانب محبوبه، فخمسة وعشرون كيلومتراً، ما هي إلا كرفّة جناحي فراشة جاثمة على الجدار، أو طنين ذبابة: زمن متناهي الصغر، ليس زمناً البتّة.

كنت في التاسعة والعشرين من عمري، وقد أمضيت منها تسعاً في الخارج؛ أداعب في البداية الشعر، ثم تهبط يدي على طول قميصه. لا يعرف بعضنا بعضاً منذ زمن طويل، ومن قبيل الصدفة إنني لم أحب أحداً غيره. لكنني صعدت إلى سيارته للذهاب نحو الجنوب وأشعر بالارتياح إلى جانبه.

وعندئذ يقول فجأة:

- هل تتزوجينني؟

كما في فيلم سينمائي ومن دون عرض بطيء.

كنت سأقول شيئاً آخر أو أشكره، لكنني لا أستطيع للأسف - إذ كان بإمكاني أن أكون أقل إبهاماً بقولي فقط: كلا شكراً - وأشكرك على كل

حال... لكن شمس الخريف تبهر ناظريَّ، وتعمي فكري للحظة وها أنا أقول: «أجل».

يبدو أنه في السماء السابعة لأنه وقع في الدقائق الثلاث من حياتي التي كانت لديّ فيها الرغبة بالزواج، بينما كان ينتظر أن أرفض بالطبع قائلة:

- شكراً مع ذلك أن طرحت عليّ السؤال.

عندما انطلقنا من جديد، كانت إحدى يديه تمسك بالمقود والأخرى تحيط بكتفي وقد اضطُرّ للتباطؤ حتى الأربعين كي يتمكّن من تقبيلي كما يجب، ولو بعينين مفتوحتين، لأن السيارات كانت تجري في الاتجاهين، وكلاب، هنا وهناك، كانت تثب من جانب الطريق على العجلات وهي تنبح. وقد كدنا ننحرف عن الطريق للسقوط في القناة، ومع الشاطئ الذي تقطعه الخلجان الصغيرة على يميني وهو يقود السيارة على يساري، كنت سعيدة بمصيري. سرنا طوال ما بعد الظهر وحتى الليل، ما عدا توقف في محطة للوقود، وعندما، كمخطوبة حديثة العهد، وضعت رجلي على الأرض خارجة من عتمة السيارة واستنشقت رائحة كومة الزبل المجاورة، قبل الدخول في أضواء المحطة الساطعة، بدأت الشعور على الفور بأنني مختلفة. وبعد أسبوعين جاء المحاسب القانوني والطيار الهاوي لاصطحابي مع الأوراق اللازمة وأمضيت بعد قليل عقد الزواج. ويتعذّر عليّ القول بالضبط متى تغيّر رأيي فيه، وما من شك في أن الفكرة خطرت لي بعد انفصالنا أنه كان عليّ محاولة معرفة زوجي كما يجب.

يهزّ الصغير رأسه.

- كلا، يقول.

- كلا ماذا؟

أنا لا أفهمه وهو لا يفهمني أيضاً. أنزل من السيارة، أفتح بابه وآخذ الصغير القلق في الضباب، بضعة أمتار إلى جانب الطريق، أساعده في فتح سحاب بنطاله. المحرّك يدور ومساحات الزجاج أيضاً، والمصابيح مشتعلة والمذياع أيضاً، حيث تذاع النشرة الجوية: استمرار الطقس المعتدل والماطر. «إن هطولات شهر تشرين الثاني هي أغزر ما عرفته الجزيرة منذ بداية القياس»، يعلن صوت مألوف ينبث في الطبيعة. لكنني على بُعد أمتار من السيارة، أجد الصوت أكثر جاذبية.

- كلا، كلا يا حبيبي، ما من أسود على الطريق.

إنه خائف ومضطرب ولا يتوصّل إلى التحكّم في الوضع، وهو ما يضطرني إلى إمساك العضو الصغير حتى لا يلوّث بنطاله المخملي الأرزق - خط رفيع فضي، شفاف تقريباً، يتناثر في الليل والضباب، وهي المرة الأولى التي أساعد فيها رجلاً على التبوّل. والمسألة هي معرفة ما إذا كنت أستطيع التبوّل أيضاً بمعرفة الطفل وتحت نظره، وألمح عبر الضباب حجر مَعْلم، وهو ما يبدو مثالياً للقرفصة كامرأة من الأبوريجين تلِد في أعماق الغابة. فهل لي أن أتركه وحيداً في السيارة وحزام الأمان مُبَكَّل جيداً؟ فلا ينبغي ربما ترك طفل بعيداً عن العين، ولا التمتّع ببضع دقائق من الراحة؟ وماذا لو غاصت رجلي في حفرة وظلّت محشورة فيها؟ فسأختفي على الفور عن الأنظار، وهو وحيد، مع سماعاته الضخمة، مرتعباً. وسيبول في سرواله لو لم تكن مثانته قد أفرغت. وسيبكي بأصوات غريبة، وأتخيّل إنه سيحاول مناداة أمّه أو جدّه. وسيُعثر عليه سريعاً على الأقل، إذ سينقله سائق شاحنة مارّة في مقصورته.

ولكنه قد يفك حزام الأمان ليجد نفسه من دون قبوعته وسط الطريق، في مواجهة الشاحنة، فما من سائق يتوقّع أن يصادف طفلاً وحيداً على قمّة

السهل؛ وما من أم تترك طفلها في العتمة والضباب. لكن هل تكون امرأة لا تقرب له قادرة على ذلك؟ ولأنتهي من كل هذا، اصطحبه معي من يده، تاركة المحرّك دائراً على جانب الطريق، وأجرّ الرجل الصغير معي على السهل، وأحثّ السير بجزمتي الجلديّة التي تنغرز في الأرض المبتلّة؛ وبعد مسافة قصيرة إلى جانبي، بدأ يجرّ قدميه، ويتعثّر، ويسقط على الحجارة، ثم يمشي على نباتات تخدش الرجلين، ويصطدم في كل خطوة لأن كومة الحجارة المفروض أن تحدّد الدرب الذي لم يعد أحد يمرّ عليه بعيدة دائماً، على مسافة مئة عام.

لا تزال بقع الثلج في السهل، على الرغم من الأمطار، لكننا نتجنّب الحفر المليئة بالثلج، وطبقة طحالب تشرين الثاني الخضراء تلقي ببريق فوسفوري حولها على علو خمسين سنتيمتراً، كضوء اصطناعي في فيلم يُصَوّر في استديو. لا أشعر بالبرد البتّة، ولا بالمطر البارد وهو يتسرّب من ياقتي.

والثقة التي يوليني الصغير إياها في انخفاض، إذ لا يدرك غايتنا، كما إنني لا أدركها أنا نفسي، وبدأ في التباكي، باذلاً جهده على الرغم من كل شيء في حبس دموعه؛ ولو كان كغيره من الأولاد، لصاح، وألقى بنفسه على الأرض رافضاً مواصلة السير، مصرّاً على العودة أدراجه، والرجوع إلى البيت، وسيريد العودة إلى أمّه باكياً حتى ينال بغيته. لكنّه ليس كالآخرين من الأولاد، ولديّ ما يشبه الحدس يجعلني أتوقّف عن السير بخط مستقيم لأسير في خطٍّ متعرّج، كثعلب في خطر. وها هو واقف أمامنا، مادّاً لسانه، الحيوان. وفي اللحظة ذاتها، تدوي طلقات الرصاص حولنا، والحيوان الوحيد الذي يقتل أمثاله، يبرز من بين الطحالب، بلباس المظلّيين الأخضر:

يُشرع الرجال بنادقهم، ويتحلّقون حولنا، أنا والصغير، وهم يصوبونها علينا.

وأنوي للحظة وجيزة، رفع يدي فوق رأسي، لكن تـومي جَمُـد مـن الرعـب؛ فأحمله بين ذراعي وأتحوّل عن الصيادين كهذه الأم اليهودية التي تدير ظهرها إلى سبطانة الـضابط الألمـاني، وحيـدة في حقـل مـع طفلهـا ذي الأربعـة أعـوام ببنطاله القصير. وألاحظ أن ثمة بُقعاً حمراء على الثلج، في منتصف المسافة بـين حجر المعلم والسيارة، وهي ليست عنباً مسحوقاً بل دم الطيور التي يعلّقونهـا عناقيد في أحزمتهم.

يخفض صيادو الحجل فجأة أسلحتهم مشيرين إلينا في الضباب؛ فلعلّهم ظنّوا رؤية وعل، ويحييني الرجال جميعاً بأصوات جهورية؛ وعلى الفور يُخرجـون قنـاني الترمـوس ليقدموا لي قهوة شديدة الحلاوة؛ ويسارعون إلى تقديم الخبز والفطـائر وأشـياء طيبـة أخرى يُخرجونها من لفافات الألومنيوم، وأقبل فنجاناً من القهوة، لكنني أرفـض بـأدب البطحة الفضيّة التي يتناقلونها. يصطفّون واحداً إلى جانب الآخـر ويقـدّمون أنفـسهم بأدب مع المصافحة باليد، مثل فريق كرة قدم مُدَرَّب جيداً أو جنود في استعراض أمـام رئيس دولتهم وقد جاء إليهم في زيارة مجاملـة. وأقـوّم كـل واحـد مـنهم بالقيـاس إلى زوجي السابق، بدءاً بطول القامة والبنية. أفلا يبلـغ طـول قامتـه مـتراً وثلاثـة وثمـانين سنتيمتراً؟ وأشعر فجأة بأنني لم أعد أتذكّر لون شعره؛ إنه كستنائي بالتأكيـد، ولكـن أي نوع من الكستنائي؟ فهل طمس ضباب السهل حياتي الداخليـة؟ وبيـنما آكـل شـطيرتي، أنهي المعادلة الوجيزة بالمقارنة أيضاً بين الرجال، أولاً فيما بينهم ومن ثـمّ مـع الرجـال الذين عرفتهم مُقتصرة على الخمـس سـنوات الأخـيرة عـلى كـل حـال. وجـرت الـدورة سريعاً.

وفي آخر المطاف، ألاحظ في الفريق شاباً أحمر الشعر لا يكاد يتجاوز الخامسة عشرة؛ وجهه مملوء تحت قبعته ببقع كبيرة من النمش.

- لم يكن هذا الشاب شبّ عن الطوق بعد عندما قتل أوزته الأولى، يقول رجل من الأرومة ذاتها ذو شعر كان من دون شك أحمر اللون.

ويضيف الأب الفخور، وذراعه على كتف الشاب:

- كان ذلك على عشب الحديقة، في البيت، ولم يكن بلغ أكثر من سبعة أعوام. كانت الإوزّة الجريحة تعرج، فاستعمل مجرفة ومشطاً لكنه استعان قبل كل شيء بنفاذ البصيرة، وفيما بعد، بلغ مئة وإحدى وثلاثين حمامة طينية في الصيد الطائر وكان في الرابعة عشرة، ولن يمضي وقت طويل قبل أن يُظهر لأمه ما لديه من مهارة!

وبينما يوجّه إليّ غمزة من عينه، يربت الرجل على قبوعة تومي. وفي النهاية يصطحبنا الفريق حتى الطريق الوطني 1، والبنادق المحمولة على الأكتاف تذكّرني بعصا أستاذ الجغرافيا التي تتنطط على خارطة العالم كما لو أن شيئاً لم يكن، بين هاييتي وفلسطين والعراق. إنهم مرحون ومبتهجون؛ ووجنتا الصغير منتفختان من شطيرتهم وفي يده فطيرتان إضافيتان. مع أن روعه لم يهدأ بعد من هذه التجربة، إذ يبدو عليه الشرود والإنهاك.

تبيّن أن انطباعي على الطريق، بأن السيارة كانت غير ثابتة ولا متوازنة، في محله - فقدرتي على الإحساس بالخلل التقني لا يُستهان بها - وأن ما من شك في أن العجلة الأمامية اليسرى مثقوبة بالفعل.

وينشط الرجال الذين يرافقونني على الفور، فهناك مهمة يقومون بها ولا شيء يدعو للقلق، وليس عليّ إلا الإبقاء على الصغير دافئاً في السيارة وسيصلحون الأمر بكل سرور.

- يمكنك الإعجاب بنا أثناء هذا الوقت، يقول أحدهم بفرح.

ولا لـزوم أن أقـول لهـم إن لـديّ في الـسيارة كتابـاً موضـحاً بالرسـوم، حيـث يـستغرق تعلـم اسـتبدال عجلـة مثقوبـة وقتـاً ويـتم عـلى أربعـة مراحـل حـسب المخطط، ولا أرى جدوى من تخـزين معـارف لـن تُـستَخدم أبـداً عـلى الأرجـح أو الاستعداد لاحتمال لن يحصل. فنحن سنموت جميعاً يوماً ما، ولكـن هنـاك الكثـير من الناس الـذين يُمـضون كـل حيـاتهم مـن دون أن يُـضطروا إلى اسـتبدال عجلـة، فأحاول إذن التصرّف تبعاً للأحداث.

يستبدل قناصو النخبة التسعة العجلة كفريق من الممرضات والجراحين المتمرّسين. فينقسمون من دون أية كلمة إلى الـذين ينـاولون الأدوات والـذين يقومـون بالعمليـة لمريضة عمرها أربعـة أعـوام ولـديها خمـس سرعـات، شُـحِّمت حـديثاً ورُشّـت بمـضاد الصدأ. يبحثون عن المفك المناسب، ويتقاسمون فـك البراغـي، ويُـشغّلون الرافعـة مـن دون تردّد، وبسرعة أخرجوا العجلة الاحتياطية مـن مخبئهـا مـن دون أن يـسألوا عـن موضعها، ويعيدون كل شيء إلى مكانه، باحتراف وإتقان. حتـى أن أحـدهم يـضع يـده مواسياً على غطـاء المحـرّك بيـنما يُكمـل الآخـرون العمليـة، وينهـون مهمـتهم بعنايـة وحنان، مداعبين السيارة بالربت والملاطفة.

- ذلك أنها كانت تعاني من عجلة مثقوبة، السيارة المسكينة.

- أيتها السيارة الطيبة، لقـد وقعـت في حفـرة، أليـس كـذلك؟ أو سِرت عـلى حجـر قبيح.

- هيا يا سيارتي الصغيرة، لم يعد لديك ما تشكين منه.

30

ها أنا أستأنف النزهة في الظلمة والمطر مع طفل لا تربطني به أدنى صلة، بصحبة ثلاثة حيوانات في مرطبان، وبعض الوثائق التي لا تستحق الذكر، وأخيراً وليس آخراً، صندوق السيارة الداخلي المملوء بالأوراق المالية، وبما أن الجوّال نُسيَ عمداً في البيت، تتمثّل الصلة الوحيدة مع ما يحيط بي الآن في نشرة المذياع الجويّة التي تعلن أن مركز المنخفض ينوء بكل ثقله على وسط منخفض آخر.

إن التساؤل عمّن أنا لا ينفصل عن التساؤل أين أنا ومع مَنْ، وفي هذه الآونة، أنا جد مشغولة بالتمتّع بالضياء الآفل، وفي إطالة اليوم القصير جداً بينما ينعس رفيق سفري، ورأسه مائل في قبوعته إلى الجانب، ويتعلّق الأمر منذ الآن بتقرير ما إذا كنّا سنتوقّف أم لا، وأين. أتقول لي إن المساكن متناثرة على طول الطريق الوطني 1؛ فأين هم سكّان هذه الجزيرة إذن؟ إن الصحبة الوحيدة فيما عدا الصغير والصيادين هم عمال الخدمة في المحطات التي تواكب الطريق، والمرأة التي تقدّم النشرة الجوية في المذياع، وفي هذه اللحظة الصوت المخملي لمسؤول البرنامج الثقافي الذي يترك الكلمات تتدفق على نسق واحد من دون تنقيط.

وتبدد لوحة إعلانية كبيرة لبيبسي الظلمة فجأة.

وقد عُلّقت حبال الزينة المضيئة، قبل عيد الميلاد بخمسة أسابيع، فوق محطّة الوقود. نحن الزبائن الوحيدون، وتخرج فتاة نحيلة يبدو عليها التعب، بعينيها الواسعتين، راكضة من المنزل المجاور لتعبئة البنزين. وأتوقّع

أن يكون أخوها، الأصغر منها قليلاً، هو الذي يصل على إثرها، ماشياً بخطىً بطيئة كأنه كان يعبر مجرى نهر. وجهه مليء بالبثور، والطاقية الصوفية نازلة على عينيه، جفناه منتفخان كأنه خارج من سبات صيفي طويل. يكمل عمل أخته على المضخة، فالبنزين من اختصاصه. تقول لنا إنّ المارّين قليلون نهاية هذا الأسبوع، ومقانق يوم الأحد نفدت للأسف كما أن آلة صنع المثلّجات خارج الخدمة أثناء الشتاء. وعوضاً عن ذلك، يمكن للصغير أن يختار علكة مختلفة الألوان وملبساً من العام الماضي من علبة على المنضدة.

يتبيّن أن إليزابت ماريلين فتاة معتادة على الناس، وقد كانت، حسب قولها، الثانية في مسابقة الجمال التي جرت أثناء آخر حفلة راقصة، وهي تحب الكتب الجيدة والسهرات التي يتوافر فيها الشراب الجيد، أما الآن فهي حامل ولم تقرر بعد إذا ما كانت ستحتفظ بالجنين أو الاشتراك في مسابقات أخرى للجمال. وقد اقتُرح عليها أن تشترك في مسابقة **شقراء العالم الذهبية**، المقتصرة على الشقراوات، فقد تبيّن أن لدى اللجنة ميلاً لإظهار بعض الانحياز للسمراوات، الأكثر حظوة دائماً، كملكة جمال الهند أو ملكة جمال البرازيل مؤخراً، وهو شيء غير أخلاقي مهنيّاً، بناء على أن أعضاء اللجان نفسها كرروا الادّعاء بالعكس في محادثات على انفراد مع المتسابقات الشقراوات لدى الجلسات التمهيدية.

أشتري للصغير كنزة صوفية مع قبوعة وطرطور وصورة لغز تمثل طائري بطريق يحتكان بمنقاريهما، وأشتري لي تذكاراً صغيراً من الخشب: كنيسة في حجم راحة اليد، منحوتة ومطليّة باليد، بفضل مهارة ابن العم المزارع. أضعها وسط لوحة المفاتيح، وتجلب إليزابت ماريلين لي صمغاً

حتى تقاوم التحفة محنة الشبكة الطرقية السيئة للجزيرة. وأتساءل عمّا إذا كان عليّ شراء سترة مشغولة بالصنارة معروضة في زاوية المصنوعات الحرفية، وسأضرب موعداً مع زوجي السابق، في مقهى محايد، وسيكون قبالتي وبين ذراعيه رضيع بجوارب مخطّطة، وسأخرج الرزمة وأقدّمها له من فوق فناجين الشوكولاته قائلة:

- حسناً، أهنئك بالطفل.

- أشكرك، هذا هو الطفل الذي كان علينا إنجابه معاً، سيقول وهو يداعب الشعر الأشقر لرأس صغير من دون أن يكون له شبه به أو بي.

وعوضاً عن هذا أشتري اثنين، من أجل مولودَيِّ أودور.

لا يريد الصغير حضوري بينما يصف ملبّساته، لأنه هنا بإرادته، فخوراً بالقيام بمشترياته لوحده، ويبدو أنه وجد البائعة ظريفة في قميصها الزهري؛ إذ كان يحدّق فيها حتى لا تفوته الكلمات التي تشكّلها شفتاها الورديتان؛ فمن المتعذّر على طفل صغير أصمّ أن يميّز الأصوات الصادرة من داخل علكة.

وأرى على شفتيه أنه يجتهد في لفظ الكلمات جليّة بقدر الإمكان، ويَجِد في تكوين أصوات لا يسمعها هو إلا قليلاً، لكن البائعة لا تفهمه وتوجّه إليه باستمرار نظرة تساؤل، ثمّ تتوجّه إليَّ. وفجأة يأخذ في الربت على جهازه السمعي، محاولاً ضبطه من جديد، وأدرك أنه يشعر بالإهانة ما إن خرج إلى الفناء، بالقرب من جدار الدكّان، مع كيس السيلوفان الأخضر الذي يحتوي على شيء آخر غير الذي كان يرغب به. ألحق به كي أقترح عليه شراء بعض الشوكولاته أيضاً. لكنه لا يتوصّل إلى الاختيار من بين

الأنواع الثلاثة المصفوفة تحت المنضدة الزجاجية، ولم يعد قادراً على التقرير بعدما ارتبك مرّة، وفقد توازنه، لذا يخشى ارتكاب خطأ لا تحمد عقباه. فأشتري الأنواع الثلاثة، إذ ليس من الصعب إدخال السرور إلى قلب طفل.

وعند مغادرتنا، يظهر مالك المحطّة وأب إليزابت ماريلين في الفناء ليؤكد النقاط الرئيسة في رواية الفتاة حول الرتبة الثانية في مسابقة الجمال وحول الحمل، وهو ما يفسّر شحوب المسكينة، فهي تتحمل بصعوبة رائحة مضخة البنزين؛ إذ تقيّأت مرّة مباشرة على أسرة من أربعة أشخاص، كانت تنعم بالدفء في السيارة.

- وفي المقابل، يتمتم الرجل، ما من أحد يفهم ما تجده في هذا العائب المخنّث الذي يعمل في مزرعة الخنازير، علاوة على أنه ينتف حاجبيه.

وقد غفر الصغير لإليزابت ماريلين، وأعتقد أنه يعشقها، إذ يدور راكضاً، محاكياً طيراً كبير الجناحين على سبيل الوداع، وما إن ركبنا السيارة حتى سحب كريّة علكة من الكيس الذي وضعه جانباً ولم يلمسه فيما بعد. وبعد أربعة أسابيع، ستظل أصابع الشوكولاته في العلبة التي يحتفظ فيها بمجموعته من القواقع.

31

إحدى مزايا الطريق الدائري، هي أن خطر ضياع المرء فيه قليل، حتى في الضباب، والشيء ذاته عندما يتعلّق الأمر بالعثور على شيء ما في الظلمة، كاللوحة التي تدلّ على مفرق الطرق المفضي إلى المأوى الريفي، وفي جوار الموضع الذي يشير الدليل إليه، نسير عدّة مرّات في الاتجاهين، نحو سنتيمتر على الخريطة إلى الشرق ومثله إلى الغرب؛ فمن المتعذّر تقدير المسافات في الظلام، وما من نقطة علّام، وكان بإمكاني السؤال بطيبة خاطر عن الطريق، لو كان هناك أحد في الطريق. وأدرك من المرآة العاكسة كم يشعر تومي بالتعب، فمسؤوليتي مرهقة؛ فأسوأ من كوني وحيدة، ها أنا الضامنة لسعادة كائن آخر، إن البلاد مكفهرّة بشكل لا يصدّق، وما من صدى لحياة يعكّر صمت هذه الصحراء.

عندما أطفئ المحرّك في الليل المظلم لأتفحّص من جديد **دليل الإيواء في المزرعة**، أسمع طائراً.

وخطرت لي فجأة فكرة أن ما من شخص سيمرّ من هنا قبل حلول الطقس الجميل. وأن الشمس لن تشرق قبل حلول الربيع، وعندئذ سيتمكّن المرء من تمييز المعالم في الفضاء المبهم، وسماع أصوات، والتقاء بني الإنسان.

لكنني أعرف بالخبرة أن هنا بلاد، في الظلام، تحت طبقات عديدة من الغيوم، بلاد تنصح بها كتب الإرشاد السياحي لجمالها ولغرابتها في ليالي الصيف المنيرة، ولكي أتذكّر توضّع حقول الحمم والوادي، عليّ الاستعانة بمخيّلتي، وبالقصائد الوطنيّة وباستحضار تدفّق يغلي وينسكب على الرمال. غداً صباحاً، سأستيقظ مندهشة أمام جبل ينحدر سفحه مباشرة إلى نافذة

غرفتي، قريباً من المنازل إلى الحد الذي يجعلني أميل برأسي إلى الوراء حتى أرى قمّته من بين الستائر، وسألاحظ عندئذ أنني لم أكن أتوقّع هذا بالأمس.

وهي حبال الزينة التي تنقذني.

مرسوم على اللوحة خيارتان تبتسمان وتعتمران بقبعة وتمسك إحداهما بيد الأخرى، «الخيار غير المنتظر»؛ هو شعار المزرعة. ندخل عبر بخار طبخة ملفوف محشو مرفوقة بصحن زبدة سائلة.

ترحّب المرأة بنا، تبتسم للصغير بحرارة ومن دون تكلّف - ربما كان لها ابن عم معوّق، تقول لي إنه قد عُثِر في أراضي هاي - هامار على ماء ساخن منذ عامين؛ فأقاموا إذن دفيئة صغيرة يزرعون فيها الخيار، وهو ما يشكّل تميّزاً لهم ويبعث في نفوسهم الفخر. ويشتري الزبائن الخيار منهم قبل أن يستأنفوا سفرهم؛ حتى إنه من الممكن نقش إهداء الخيار لهم أو نقش أسماء ورسائل، وعبارات الحب. وقد قدّم أحدهم، وهو محاسب في المدينة، إلى محبوبته خيارة منحوتة، وضعها وسط مائدة الغداء. «أتريدين؟» كانت منقوشة على الخيارة، ولم ينجح في إكمال الجملة، لكن الجميع كانوا يتخيّلون التتمّة من دون عناء. وفي قاعة الغداء، كان فريق من المستثمرين الأجانب المشتركين في «رحلة إلى قلب المجهول»، صفقوا للحادثة.

- إن الأجانب يحبّون الظلّ الذي يغطّي المزرعة طوال اليوم، تقول المرأة، والأمطار، لم تهطل قط كما هطلت على البلاد...

وظلّ المنحدر الصخري لا يسمح للشمس - عندما يكون الطقس جميلاً - إلا بساعتين يومياً، وتمتد بعد هذا إلى الأبنية؛ وعندئذ يكون الصفاء أشد فوق الزرائب والمروج المقابلة للجنوب وتتشمّس الخراف أحياناً حتى ما بعد الظهر.

- هطلت الأمطار هذه السنة مئتين وخمسة وتسعين يوماً من ثلاثمئة وعشرين، وهذا حسن، أليس كذلك؟ لقد وضعنا هذا الرقم القياسي في مطويتنا. فما من أحد يأتي إلى إيسلندا ليأخذ حماماً شمسياً على كل حال.

نحن محظوظون، إذ كدنا ننام في الزريبة التي من المقرر تهيئتها لتؤوي ثلاثين شخصاً، إذ يملأ البيت فريق إنشاد من رجال إستونيا في جولة عبر البلاد لتأدية أغانٍ ألمانية لعيد الميلاد. ويتبيّن أنه ما من شيء نهيئ به أسرتنا التي ستغطى إذن بكيسي نومنا. وأصرّت المزارعة على تقديم وجبة العشاء لنا: ملفوف محشو، هريس البطاطا وملفوف أحمر بقي منها الكثير، أنظر إلى الصغير وهو يزدرد كريّات اللحم واحدة بعد الأخرى، فقد أكل القليل هذه الأيام الثلاثة الأخيرة، كالعصفور، ويأكل هذا المساء مثل بالغ ومثل صيّاد على متن سفينته، وبينما أتحدّث مع المعلّمة، يحتسي ثلاثة أو أربعة أكواب من الحليب خلال الوجبة.

إنها تشرح لي أن الخراف ما تنفكّ تنحصر على النتوءات الصخرية للمنحدرات، وأن قرض دعم إنتاج الحليب قد تبخّر على إثر حريق إجرامي، والشيء ذاته حدث لملجأ الشباب الجانحين الصيفي في ريكيافيك، فلا هذا ولا ذاك كان مؤمّناً عليه لأن مندوب التأمين لم يكد يقدّر ورق الجدران وما من تعويض قد سُدّد بعد.

- الواقع إننا جرّبنا كل شيء: تربية المواشي التقليدية، تربية الدجاج، والحيوانات ذات الفراء كالفيزون والثعلب، وتربية الأسماك، والأرانب، وبالنسبة لتربية النحل كان يجب المحافظة على حرارة الخلايا طوال الشتاء، فلم تنج إلا نحلة واحدة من البرد والمطر، ولازلنا ننتظر الردّ فيما يتعلّق بتربية النعام.

الوجبة شهية لكن القهوة رديئة على الرغم من جهودي في تحليتها، وللحظة وجيزة، وأنا ملتفتة إلى النافذة، يبدو لي أنني أرى شخصاً مألوفاً يمر، من ظهره، هكذا، بسرعة. إذ لم تقل المخيّلة كلمتها الأخيرة. وتقدّم لنا المزارعة مع القهوة حلوى صنعت في البيت اسمها «سعادة زوجية». وترين غيمة داكنة على كل شيء، لكن مظهر مضيفتنا ينمّ عن الرضى.

أخطف رجلي إلى الخارج لجلب كيسَيْ النوم من صندوق السيارة، قدر كريّات السمك لازالت مستقرة في مكانها، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للسمكات الحمراوات الثلاث: فقد اندلق مرطبانها والغطاء لم يصمد، والصندوق موشى ببقع برتقالية، فسمكتان ميتتان ترقدان جافتين، وأحد كيسَيْ النوم مبتل. وفي منخفض صغير بالقرب من العجلة الاحتياطية تكوّنت بركة صغيرة حيث تبدي سمكة حمراء علامات للحياة بناء على ارتعاش الذَّنَب. وبعد بعض المحاولات، أنجح في الإمساك بها وإدخالها في قنينة ماء مملوءة إلى نصفها، وعلى الرغم من رجها بإغلاق فمها بأصبعي، فلا يبدو أنها تستعيد نشاطها.

بعد الطعام، يخرج الصغير إلى الفناء للقفز على الحبل مع بنت البيت الصغيرة التي هي في مثل سنّه لكنها أطول منه، وعندما آتي لأخذه للنوم، أجدهما مشغولين بإنقاذ ديدان الأرض من الغرق في بركة صغيرة، فلا أذكر السمكات.

بينما أصعد إلى غرفتنا، أقع على عشيقي السابق على الدرج، وثمة خمس أو ست درجات بيننا.

- جميل البنطال، ظريف، الكفّة مزهرة، إنه يلائمك جيداً.

- شكراً.

وينظر إلى الصغير الذي يسرع إلى تجاوزنا.

- لم أكن أعلم أن عندك طفلاً.

- كلا، بل أعتني به من أجل صديقة لي.

يبتسم ويهبط درجة بينما أصعد درجة، ونتصافح.

- كنت على علم بأنك غادرت المدينة، ولكن ليس إلى أين تذهبين، إنها مصادفة غريبة.

- أجل، غريبة فعلاً.

- ويستمر في الإمساك بيدي.

- حتى وإن أردت، فأنا لست على إثرك: لقد وصلت مساء البارحة، وإذن قبلك.

وأبتسم له.

- سفر من أجل العمل، يضيف على سبيل التفسير. وعلى كلّ فأنا مغادر، لقد كنت أنوي العودة إلى المدينة هذه الليلة، بعد انتهاء مهمّتي.

ثم يداعب وجنتي بلطف.

- هذا إذا لم تفتقدي الصحبة؟

- لا أعلم، أقول وأنا أشير برأسي إلى الصغير الذي يقف من دون حراك متابعاً بالتناوب حركة شفتينا.

- يمكنك الفخر، على كل حال، بأنك متزلّجة جيدة.

- شكراً، وأنت أيضاً جيد.

للصغير الحق في كيس نوم جاف، أما أنا فأكتفي ببطانية، ولكن سأشتري لحافين من الوبر ما إن أصادف تعاونية، لبالغينْ، يُفرغ الصغير

الرمل والحصى من الحذاء في كيس النوم، وثمة بُسُط صغيرة بأوبار طويلة مختلفة الألوان على الأرض.

- هناك رائحة قديمة هنا، يتمتم.

ما لم يكن يقصد القول إن لي رائحة طيبة. إنه يشتاق إلى المدرسة، وإلى أمه، وإلى جدّه الذي يأتي أحياناً لاصطحابه، لكنه يجدني لطيفة، وتفوح منّي بالطبع، رائحة طيبة، مع أنني أعرف تماماً أنه يشتم منّي رائحة المطر والمسافرين.

ما إن دخل الكيس حتى يرغب بالكلام بصوت خفيض، ووشوشة الإسرار، لكن صوته يظلّ أجشّاً ورنّاناً على الرغم مما يبذله من جهد، ويده أصغر من أن تحتوي كل رسائل العالم الكلامية. أما أنا، فلديّ ثلاثة كتب في السيارة لتعلّم كل شيء عن طفل أصم وفهمه، وعليّ فقط أن أجد الوقت لقراءتها.

بعدما أكثر من الحركة وضرب برجليه اللحاف باستمرار طوال الليل منذ أن أخذته من الحضانة لعشرة أيام مضت، هاهو ينام من دون أن يتحرّك قيد أنملة.

وأنا أيضاً متعبة، ففوق البلاد يتعمّق منخفض جوّي وأنا في وسطه، والضباب يحيط بكلّ شيء في الخارج. هناك حركة في الممر، ولديّ شبه شعور بأن الباب يُطرق، ويجتاح خدر النوم جبيني، ثم ينتقل إلى وجنتيّ؛ وأشعر بأن اليوم يمحي شيئاً فشيئاً، وتتبخّر الروائح والأصوات، ويختفي العالم خلف بطانية صوفية بمربّعات بنيّة، وحليب ساخن بالعسل يجري في عروقي. وأحدٌ ما يضمّني، وأرى حلم امرأة جدّ اقعي، أحسّ بأن الجبل العظيم فوقي، وعندما أستيقظ بعد قليل لرؤية ما إذا كان الجسم الصغير

يتنفّس، لديّ انطباع بأن أحداً يغلق الباب بهدوء وراءه، ولكنني من شدّة الإنهاك لا أقوى على نزع نفسي من الحلم والخروج من السرير، مع أنني لم أر لإقفال السيارة جدوى خلال الليل، فإنني أتذكّر إغلاقي باب الغرفة بالمفتاح. وجدّتي في الشرق، لم تكن تغلق قط المنزل الصغير الأزرق على الشاطئ عندما تذهب إلى جنوبي البلاد، ولا حينما أمضت خمسة أشهر شتائية في مصلحة أمراض الشيخوخة لاستعادة صحّتها، ولا أذكر قط وجود أي مفتاح في هذا البيت، إذ كان مفتوحاً للجميع، يعجّ دائماً بالزوّار من كل نوع، يمرّ به وزراء، وأصحاب سوابق، ومعدّنين هواة آتون من الخارج، حيث يشربون القهوة ويأكلون الحلوى المحشوّة بالمربى.

أثناء عطلتي الصيفية الأخيرة في الشرق، وكنت في الخامسة عشرة من عمري، قبّلني أحد ابنيْ عمّي من دون أن أعرف من هو، على الفراش الكبير المخصّص للضيوف العابرين، في السقيفة. وفيما بعد، بالكاد يمكن القول إن هذا حدث، إذ شعرت بشيء ما، من دون أن أجهل أن هذا لم يكن لائقاً. وفي صباح الغد، لم أعد متأكدة حقاً، ولا أتذكّر أيّاً من الأخوين نام إلى يساري. ولم ألحظ لديَّ أي تغيير تقريباً، فيما عدا قراري بتناول فنجان من القهوة مع جدّي، لأول مرة. وأصدرت جدّتي قراراً على الفور يقضي بأننا أضحينا أكبر من أن ننام على فراش الزوّار. وفي ليلتي الأولى التي أمضيتها وحيدة في الصالون، حلمت بأنني كنت أرتدي كنزة بيضاء صوفية غير تامة، بأزرار من النحاس الأصفر. وقد سجّلت هذا الحلم في مذكّراتي، خلال هذا الصيف الأخير في الشرق. وفي بداية تشرين الأول بلغت الخامسة عشرة.

عندما يوقظني الصغير في الصباح، أجد عليَّ لحافاً من الوبر عليه غطاء أزرق. أما البطانية فكانت مطويّة بعناية عند قدميَّ.

32

نتناول الفطور مع الأسرة في المطبخ، وفرقة الإنشاد الذكورية تجري تدريباتها بخليط من الألحان الصباحية الخفيفة، مغنّاة باللغة الإستونيّة، ولابد أن تبدو الكلمات غريبة لدى أذن أخرى غير أذني، وتضع المزارعة باقة من الزنبق الأحمر على مائدتي.

- لقد كلّفني بنقل تحيّاته إليكِ، ويقول إنه يأمل أخباراً منك قريباً.

من الواضح أن الزنابق تنمو أيضاً في الدفيئة، بين الخيار، وأعدّ نفسي سعيدة لأنني لم أتلقّ خيارة، منحوتة حسب الأصول.

يزيح الصغير بعناية شرائح الخيار من شطيرته، وينظر الجميع إليه، الأطفال والآباء، بينما يضع الشرائح الخضر على حافة الصحن، لكنه لا يُبدي أقل اهتمام بالمشاهدين.

- إنه على صورتك تماماً، تقول المزارعة.

- أجل، إنه نسخة منك، يقول الزوج.

- هل تسافرين وحدك؟ تسأل المرأة.

- هل تذهبين بعيداً؟ يسأل الرجل.

على طرف الطاولة شاب يبدو في السادسة أو السابعة عشرة من عمره، طويل نحيل، جسمه غير متناسق وكأن كلّ جزء من جسمه نما لوحده، ظهره منحنٍ على صحنه، عيناه منتفختان من أثر النوم وأذناه كبيرتان لا تتوصل القبعة إلى إخفائهما تماماً. وما من شك حول هويّة مالك الحذاء الرياضي، بقياس أربع وأربعين، الموجود في الممر، ويشابه مع ذلك أمه،

وهي امرأة ظريفة بـالأحرى ذات ملامـح رقيقـة. أتفحـصه بعنايـة حتـى يرفـع عينيـه الزرقاوين.

- لقد طال أربعة عشر سنتيمتراً الصيف المـاضي، ويمكـن القـول إنـه لم يخـرج مـن سريره في تمـوز وآب؛ إذ كـان ينـام ثمـاني عـشرة سـاعة في الأربـع والعـشرين ولم يكـن يستيقظ إلا للأكل، لقد كان حقاً ابننا المدلّل، وقد كـان علينـا ذبـح حَمَـل لكـل وجبـة تقريباً. لكننـا لم ننتفـع منـه هـذا الـصيف، حتـى ولا عـلى الحـصّادة - الدرّاسـة التـي يستطيع قيادتها مع ذلك منذ سن الثامنة. كانت حركاته من البطء بحيث ظننّا أنه لن يتوصل أبداً للانتقال من الأريكة حتـى سريـره، وكأنـه كـان يـسير في مـاء يـصل حتـى إبطيه.

تتكلّم عنه كما لو أنه غائب. ولا يظهر الشاب أي تعبـير، بـل يركّـز اهتمامـه عـلى التقـاط الحبـوب مـن زبديـة الحليـب الموجـودة أمامـه، ويتـدخّل أبـوه في الحـديث لاستحضار بدايات حياتهما الزوجية.

- كنّا نتهيأ للعودة من حفلة راقـصة، وصـعد الجميـع إلى الحافلـة، وكـان المحـرّك يدور وننتظر الانطلاق. وبينما كان النـاس يتفحّـصون الظـلام أو يقبّـل بعـضهم بعـضاً خرجت على عجل لآتي بصديقة زوجتي المستقبلية التي كان لي معها بعض الغزل؛ لقد كان لديهما ذيل الحصان ذاته وكنت ثملاً بعض الشيء.

- نقول أحياناً إن زواجنا سُحب من شعره، تقول زوجته بابتسامة عريضة.

وينفجر الاثنان ضاحكين فندرك أن رواية العودة من الحفلـة الراقـصة قـد نُقِّحَـت بمرور السنين حتى اتخذت شكلاً راسخاً.

- وفي المقابل، لا يخلط أبداً بين ذيلي الفرسين.

- كانت زوجتي المستقبلية ذهبت للتقيّؤ خلف أحد المنـازل - وقـد كانـت تلك أول سكرة لها وبينما كنت أغسل لها وجهها يمكن القول إننـا أوصـينا عـلى أول مولود لنا. والغريب، أن ما من شخص في الحافلة انتبه إلى غيابي أثناء هذه الدقائق.

- أجل، ذلك أن ستيبي مُقتحم، تقـول المـرأة ضـاحكة عـن رضى، ومنذئـذ نحـن لا نفترق.

- حقاً لقد شعرت بأنني ارتفعت إلى السماء عندما تعارفنا، يقول الرجل.

لفستان زوجته سحّاب على الورك؛ وتهتز فيه طرباً مثل سمكة الأنقلـيس وتـضرب الأرض بقدميها العاريتين في مشّاية مُعرّقة. أمـا هـو ففقـد تسلـسل الحـديث وتـستقر نظراته على التقاطيع البارزة التـي تَمُـطّ النـسيج. وأثنـاء كلامهـا، يحـدّق فيهـا بعينيـه طويلاً، حتى تتقدّم إليـه. تـرى هـل مـن الممكـن أنهـما نـسيا وجودنـا، نحـن ضـيوف الصباح؟

وفجأة يُفتح باب ويضع كائن صغير قدمه على الأرضية، ومؤخّرته الضخمة يثقلهـا حفاض الليل. فتنصرف المرأة عـن الرجـل وتنحنـي فاتحـة ذراعيهـا للمخلـوق الـصغير لترفعه وتقبّله وتناوله لزوجها قبل أن تتوارى عن الأنظار. وتعود بعد قليل مـع زبديـة من الجبن الأبيض.

- سكر، يقول الطفل مصفّقاً بيديه.

- ملعقة لكريستيان التاسع الذي منحنا الدستور، تقول أمه، وملعقـة لإنغيبيـورغ، امرأة يون سيغوردسون، بطل الأمة، وملعقة لملكة الدنمارك مرغريت، وملعقة للـرئيس السابق فيغديس، وأخرى لدوريت، السيدة الأولى حالياً.

لدى ذهابي لآتي بأوراق مالية من صندوق السيارة الداخلي، أتذكّر أنه كان هناك رقم هاتف أحتاج إليه. وعوضاً عن هذا أجد سروالاً أبيض فأندهش بالطبع من وجوده في هذا المكان، في فناء مزرعة هاي - هامار. ومع ذلك فسأشتري قبل الرحيل خيارتين من الزوجين.

- هل تصدّقين، تقول المرأة وهي تودّعني، ورأس الملفوف بين يديها، أن ثمّة أناساً لم يسافروا قط تحت المطر.

وترفع عينيها إلى الصخرة المشرفة، وكنزتها مبتلّة. ولدى وصولي إلى مفترق الطرق، تخطر لي فكرة مؤدّاها إنني لم أسمع جيداً، وأن حاسة السمع لديّ تبدأ في الضعف هذه الأيام الأخيرة وإنها تقول في الواقع:

- هل تصدّقين، أن ثمّة أناساً لم يُنصتوا قطّ إلى المطر.

وتكون عندئذ صاخت أذنها للسماء، في كنزتها المبتلّة.

33

نسير في طريقنا قدماً ببطء، ونجتاز البلاد بسرعة معتدلة، لأننا في عطلة ولدينا متسع من الوقت، ونتوقف لأكل سريع ونرتدي أحياناً معاطفنا المطرية لالتقاط كنوز على جانب الطريق، حجارة نادرة ومبتلّة؛ ونملأ السيارة شيئاً فشيئاً بهذه النفائس، وبالملابس المبتلّة من أنوراك وجوارب وأكياس النوم والطواقي والقفازات والحصى وفتات من الطحالب. وأخذ الصغير يرسم صوراً وإشارات متنوّعة بسبّابته على الزجاج المغشّى بالبخار، وعندما يصفو الطقس، أحياناً، نرى المنظر الذي يتغضّن دفعة واحدة في طيّات عظيمة ورائعة. فنوقف السيارة عندئذ للعثور على فوهة بركان بحجم معقول قريبة من الطريق لننظر إلى قاعها وتأمّل الفوضى في الطبيعة المذابة، ومن ثم نتمدّد على العشب لنقدّر بأية سرعة تمرّ الغيوم، والضوء هش وشفّاف مثل شرشف قطني بالٍ يغلفنا، أنا والصغير.

- أين اليسار؟ يسألني بصوت شديد الوضوح بينما نستأنف سفرنا على الطريق الدائري.

وللحديث معاً عن اليسار، لابد من إيقاف السيارة مرّة أخرى، ثم يجلس كلّ منّا على كومة تراب مبتلّ، ونحن شديدو القرب من زريبة لفرز الخراف مبنيّة بالحجارة حيث أنتظر مرور شاحنة صغيرة قبل أن أفتح الباب الصغير.

- اليسار كلمة من المدينة، أما في الريف فالاتجاهات ليست اثنين، بل أربعة، إذ يقال شمال، جنوب، شرق، غرب. ويسمّى اليسار عندئذ الشمال، وهو الاتجاه الذي يمرّ بنافذتي، ومقابلها تماماً الشرق، ونافذتك في الجنوب وما خلفنا هو الغرب.

أحاول أن أتدبّر أمري، بصنع صور وإشارات باليدين، بعضها من اختراعي الخاص، وأخرى رأيته يستخدمها؛ أعبّر عن قبل وبعد، وأعبّر أيضاً عن الأمام والوراء، وعمّا سيأتي وما قد مضى، ويفهمني أكثر مما أفهم أنا نفسي.

- إن عدد الجهات في المدينة بعدد يَدي الإنسان، أما هنا، في الريف، فهي بعدد قوائم الحيوانات، أربع.

- والدجاج، يقول.

- أجل، إن الدجاج يشكّل استثناء.

- مرآة إلى الوراء، يقول.

- بالضبط، مرآة عاكسة.

- أبي يسكن في الغرب.

وأنا متأكدة تقريباً مما قال. من أين يأتي الطفل بأفكار كهذه؟ فعوضاً عن التكلّم عن أبيه، الذي لم يلتقه الصغير إلا نادراً جداً حسب معرفتي، أشرح له معنى أن يضلّ المرء اتجاهه. إذ الأسوأ أن يجد المرء نفسه في الضباب، في مستنقع، أو في عاصفة ثلجيّة على السهول، فبعض الأشخاص لا يضلّون أبداً وسط الطبيعة، بل في المدن، ولا يضلّ آخرون إلا في الخارج. مع أن غالبية المدن مبنيّة بالأسلوب ذاته، وآخرون يضلّون أينما وجدوا؛ إذ إنهم ضالّون تقريباً طوال حياتهم، أتكلّم لغة من يسمعون، وأنا أعلم تماماً أنه لا يفهمني، حتى يجهش بالبكاء، فأتوقف عندئذ، وأنزع من معصمي ساعة الطلاق وأناوله إياها قائلة:

- تستطيع الاحتفاظ بها.

- مُبتل، يقول.

أثبّت الساعة إلى معصمه.

- سنتوقف قريباً ونشتري بوظة وبطاقة بريدية لإرسالها لأمك، في المستشفى.

- ذبابة! يصيح الطفل فجأة بُعيد استئناف السير.

وهو على حق، فإن شيئاً ما يطير في السيارة، لكنه ليس ذبابة بل فراشة في شهر تشرين الثاني، والسؤال يتعلّق بمعرفة ما إذا كانت تبعتنا من المدينة، وإذا ما كانت هي ذاتها التي لمستها بأطراف أصابعي منذ ثلاثة أسابيع في مطبخي السابق، مثل مسافر سرّي كانت عنده الشجاعة أخيراً لتسليم نفسه، والخروج من مخبئه، لأنّ السفينة الآن في عرض البحر ولا خطر في أن تعود أدراجها.

فجأة، ووسط الرمال، هناك لوحة إعلانية حمراء كبيرة مع ضوء غمّاز تعلن المرحلة القادمة. فمحلات المقانق والهامبورغر تواكب الطريق الدائري حسب مسافات من عشرين إلى خمسين كيلومتراً، وهنا نتوقف أخيراً لأكل شيء. وعندما أفتح الباب الخلفي لأفك عنه حزام الأمان، أتبيّن كلمتين على الزجاج المغشّى بالبخار: **مُبتل، ذبابة**.

هناك حافلة لنقل الركّاب في الفناء المُسفلَت، نطلب شطائر هامبورغر ثم أدفع بالصغير أمامي لأخذ مكان في الطابور أمام دورة مياه السيدات، وأفكّ أزرار الأفرول، وهو مستعد، والنساء المرافقات لفرقة الإنشاد الذكورية الإستونية يقفن الواحدة خلف الأخرى بكنزاتهنّ الجاكار؛ وبينما يمشطن شعورهن يتفحصننا بواسطة المرايا، من دون الإخلال بالصف.

عندما انتهى، أطلب منه انتظاري لدى الباب من دون حركة.

حينما أخرج، لا أثر للصغير، ولا للحافلة فأهرع كالمجنونة إلى كل اتجاه، وأنا أسأل البائعات عمّا إذا رأين ولداً صغيراً في الرابعة وأصمّاً بأفرول أزرق، فينظرن بعضهن إلى بعض بصمت، أجري في كل مكان وأنا أحدّث نفسي بأنه لم يتمكّن من التعبير ولابد أن أحد أصحاب السيارات أركبه معه. أخيراً، أعثر عليه في فناء خلف مخزن توضع فيه أسطوانات الغاز الفارغة. يمسك بيد رجل ناضج، ذي وجه محمر؛ ويظهر عليهما كليهما التهيّب والسرور. أنتزع الطفل من الرجل وأصبّ جام غضبي عليه، قائلة إنني سأتقدّم بشكوى ضدّه لشيء لا أدريه. فيندفع الرجل ويدخل شاحنة حمراء صغيرة وينطلق على الفور.

- بابا، يقول الصغير.

من المؤكد أنه ليس أب الطفل، إذ يشترك آباء أطفال أودور في كونهم شباباً، وسيمين وحسّاسين، لكنهم غير مسؤولين تماماً.

وفي حالة الاضطراب العقلي التي أجد نفسي فيها، لا أنتبه إلى رقم السيارة.

لا يريد الصغير أن يكلّمني ويختبئ تحت كيس النوم على المقعد الخلفي. أعود مسرعة لشراء البطاقة البريدية من دون أن أغادر بعينيَّ السيارة والصبي داخلها، وليس لديهم إلا نموذجين من البطاقات، كليهما لشلّال مفترض وجوده في الجوار. لكن البطاقات لا تصلح دليلاً، فهي مرتبطة بالذكريات وليست بالمشروعات. وقد كانت هذه الصور التقطت من قريب حتى توضّعت قطرات من الزبد على عدسة آلة التصوير، ولدى عودتي، يُخرج الصغير رأسه من الغطاء، وعلى الرغم من البحث، لا نعثر على الفراشة، فقد اختفت من السيارة.

34

الطريق يضيق فجأة، ويحلّ الحصى محل الإسفلت، وثلاثة أمتار هي مجال الرؤية عبر مسّاحات الزجاج، وتبث من المذياع موسيقا فيلم قبل قراءة أخبار الوفيّات والإعلانات. وحينما يشرع صوت أنثوي في الغناء، أزيد من ارتفاعه: **عندما تتعذّب، فكّر فيَّ.**

كنّا اجتزنا نهراً، وهناك آخر عن قريب، أي جسرين وحيدي الاتجاه والطريق الذي يزداد ضيقاً، يا إلهي، ويواصل الطريق تعرّجاته؛ إذ يُنذر بارتفاع وبمنعطف ثم بعمود إشارة يشير إلى جسر جديد. بتركيز بالغ أقطع الطريق بين أعمدة التحذير، أولاً: انتبه، مُرتَفَع من دون رؤية، وهذا الآخر بعده: انتبه، جسر وحيد الاتجاه. فهذه حال طريقنا الوطني 1.

نحن، كما يبدو، السيارة الوحيدة في صباح هذا الثلاثاء، باستثناء الخرفان، بالطبع. في الأوقات العادية، كان على المواشي أن تكون منذ وقت طويل في الزرائب وتتغذّى بالعلف، ولكن بما أننا نمرّ بطقس دافئ استثنائي، فهي لا زالت في المنحدرات أو تحتكّ بدعامات الجسور أو تقف حتى وسط الطريق، تحدِّق بأعينها الحمراء في أشعة المصابيح القادمة، ناظرة إلى عينيَّ، من دون أن تحرّك ساكناً، وبما أن جزءاً فقط من عائلة الأغنام يوجد في الجانب ذاته من الطريق، فإن الأم والجدّة في جانب، والحَمَل في الجانب الآخر؛ وعندما تقترب سيارة يشعر الجميع بالحاجة إلى الاجتماع، تقفز من أسفل المنحدر أو من دعامة الجسر، أي خارج مخبئها، مثلما يحصل في الخارج مع هؤلاء الجنود المسلّحين الذين يترقّبون النساء والأطفال لدى عودتهم من الكنيسة أو من المخبز. وتتكرّر الحادثة أربعين مرّة في اليوم:

خرفان تعبر راكضة الطريق، وأكبح السيارة فجأة، ثم في المرّة الإحدى والأربعين ما قدّر له أن يحصل يحصل حتماً، إذ ينجح أحد الخرفان في أخذي على حين غرّة، حين خروجه من الضباب، أمام السيارة، فيُقذف على غطاء المحرّك.

ولدى إيقافي السيارة، ينزلق الحيوان إلى الطريق، في الوحل. الزجاج الأمامي يتشقّق، كشبكة العنكبوت، كأنها خارجة من بين أصابع نسّاجة، ثم يتفكّك ويسقط. وتستمر مسّاحات الزجاج في العمل، والكنيسة الصغيرة المثبّتة بالصمغ لم تتحرّك من لوحة المفاتيح.

وفي هذه اللحظة بالذات تخطر في بالي للمرة الأولى فكرة كوني امرأة وسط زخرفة منسوجة بإتقان من العواطف والزمن، وأن الكثير من الأشياء التي تحصل في الوقت نفسه تكتسي أهمية في حياتي، وأن الأحداث لا تحصل الواحد تلو الآخر، بل على عدّة مستويات متزامنة، من الأفكار والأحلام والعواطف، وأن ثمّة لحظة في قلب اللحظة. وبعد ذلك بوقت طويل فقط، تقوم الذاكرة بالفرز وتميز خيطاً من الفوضى التي حدثت، وهكذا بالضبط يتقاطع مصير امرأة ومصير حيوان. فالسائقة تستمع إلى أغنية حب إسبانية، وتلقي نظرة خاطفة على المرآة العاكسة لترى كيف يتدبّر رفيق سفرها الصغير الأصم نفسه مع علبة الشوكولاته بالحليب والموزة، وفي اللحظة ذاتها يقرر خروف عبور الطريق من أمام السيارة بالضبط، أو أن الخوف يتملّكه - ما يدريني عن الأحوال النفسيّة لممثل لسلالة الخرفان الإيسلاندية القديمة الصافية؟ فما الزمن إلا فيلم يُعرَض بطيئاً.

لديّ ربما عشر دقائق من التأخير عن توقيت تكاسلي تحت الدوش، إن لم تكن عشر دقائق من السبق؟ وعلى كل حال، لو لم تخطر لي فكرة أخذ عطلة

الصيف في تشرين الثاني ولو لم أربح شاليه كامل التجهيز في يانصيب الصم، ولو لم أتعرّف على زوجي السابق في وقته ولم أُرسَل إلى الشرق كل صيف حتى سن الرابعة عشرة، وأخيراً لو لم آكل لبناً رائباً في الفطور، لما كنت هنا الآن، ولكنتُ في مكان آخر، وكنت امرأة أخرى. ولكنت على الأرجح لا أزال جالسة على أريكتي القديمة إلى جانب زوجي السابق أشاهد الحرب في العالم مباشرة. وفي هذا اليوم بالذات، السابع عشر من الشهر الحادي عشر، حيث يرقد خروف مدهوس على الطريق الدائري، تُحبَك كل حياتي، المصادفات، القرارات، وما آكل وكيف أنام.

وبما أنه من غير الممكن لفظ كثير من الكلمات مرة واحدة، يبدو أن الأشياء تحدث واحداً بعد الآخر، وتُعرض الأحداث بمجموعة من الكلمات المنسّقة في خط أفقي ضمن حكايتي عندما أهتف لأودور لكي أطلعها على الأخبار، والواقع أن الصلة بين الكلمات والأحداث من طبيعة أخرى. لكنني لا أذكر عنها شيئاً في الهاتف، فلديها ما يكفيها من الهموم هكذا، كلا، ما من شخص قد أصيب، فيما عدا الخروف الذي مات. أجل، صحيح ما تقول، فلقد استغرق منّي إعدام الخروف وقتاً أقل مما يستغرقه لدى الرعاة الرُّحَّل في سيبيريا الذين يُدخلون الذراع في الحيوان، ويتحسّسون في الظلام حتى يعثروا على الشريان الأبهر لينزعوه بلطف. علاوة على أنه عمل يبعث على الاحترام. إنها قلقة على تومي - ليس لأنه تحت رعايتي - وقلقة عليّ وعلى أمّها وعلى الطفلين في بطنها، وعلى منظومة الصحّة العامة، وعلى تلاميذها ومصلحة الطرق والجسور في الجزيرة، وعلى الحرب في العالم، وعلى جشع البعض الذين يودون البلاد إلى الضياع، وهي قلقة لأن ليس لها الحق في العزف على الأكورديون - وهو ما كان من الممكن أن يشكّل سلواها الرئيسة، في السرير، في قاعة لأربع نساء. وعوضاً

عن ذلك فهي مضطرّة للإنصات إلى الكتاب المقدّس في نسخته الصوتيّة وكانت وصلت إلى **سفر أيوب**، أربعة عشر، سبعة، عندما هاتفتها.

- وهكذا أتقدّم بصورة لائقة في العذاب، تقول.

أنظر حولي؛ وكما هو متوقّع، ما من سيارة في الأفق، فالطريق خالٍ وخالٍ هو الريف - كأن الجزيرة غير مأهولة. إذ أجتاز بلدية تميّزت في الانتخابات البلديّة الأخيرة بنسبة مشاركة قياسيّة، فسبعة وتسعون في المئة من الرجال والنساء الذين يحقّ لهم الانتخاب عبروا عن أصواتهم، أي ثلاثة وثلاثون فرداً، وأستمد هذه المعلومة من الجريدة المحلية.

أخرج مسرعة من السيارة وأتفقّد الصندوق أولاً: إنه مملوء. فأرفع أذن الحيوان الملطّخ بالوحل إلى المقعد الأمامي، وألاحظ أنه أثقل من الطفل.

عمري سبعة أعوام ورفيقي سيغوردور يطرق الباب، يقول إن براندور قد دُهِس، وإنه مات ووضع في صندوق من الورق المقوّى كان يحتوي تُفاحاً؛ وهو موجود في دورة مياه الضيوف وتمكن رؤيته من النافذة مقابل خمسة كورونات. أتخذ مكاني آخر الطابور، وفي يدي الكورونات الخمسة، ويتقدم الصف ببطء؛ ومنذ أول أمس، أرتدي حذائي القماشي، الذي تلقيته هدية بمناسبة اليوم الأول من الصيف. عندما يصل دوري، أعطي سيغي النقود وأصعد على صندوق تحت نافذة دورة مياه الضيوف، حيث سُجّي براندور ميتاً. أقف على أطراف أصابعي في حذائي القماشي الجديد، وتظهر لي للحظة جثته ممددة على الجانب، وثمّة زبد أبيض حول الفم ودم على البطن، والعينان مفتوحتان.

أرسم علامة الصليب كما يُفعَل معي بعد الحمّام، عندما أكون في التي شيرت، وألاحظ عندئذ وجود جوارب بيضاء منقوعة بالماء في المغسلة.

وعندما أنزل عن الصندوق يقدّم لي صديقي سيغوردور علبة علكة، بعد هـذا أمـضي مسرعة إلى السهل في حذائي القماشي الأبيض، في مقابل البناءات الجديدة، فهناك بُرَك لماء أحمر برائحة الصدأ والعفن تصبغ حذائي باللون الأحمر في طرفة عين، وفي المساء، أضع رباط حذائي ليُنقَع في ماء جافيل.

صفا الطقس عندما نزلنا من السيارة في الفناء، وحبال زينة عيد الميلاد معلّقة أعلى الزريبة، ويقفز كلب المنزل على الفور للترحيب بي، ولكن ما من أحد يَرُد عندما أطـرق الباب. ويُرى نور التلفزيون الأزرق في الـصالون، فـأنقر عـلى النافـذة. الـزوج والزوجـة جالسان على طرفي أريكة يشاهدان مسلسلاً بوليسياً نمساوياً حيث يتحرّك كلـب رعـاة ألماني كثيراً. وجيولوجيـان أجنبيـان، وهـما ضـيفا المـزارعين، يقفـان في الفنـاء ويتابعـان جريان الأحداث عن بعد.

ينهض الزوج أخيراً ويأتي لفتح الباب بابتـسامة عريـضة تكـشف عـن لثّـة حمـراء؛ ويبدو مسروراً بالأحرى تحت المطر، والعلامـة عـلى أذن الخـروف ليـست علامتـه بـل لأخيه، في المزرعة المجاورة، الذي عليه أن يهتم بخرافه.

- لا يكلّم أحدنا الآخر منذ سبعة أعوام، حادث حدودي، وقـد أرسـل إلينـا مـؤخراً رسالة تهديد بسبب أخاديـد التـصريف التـي أحفرهـا في أراضيّ، فهـاهو يـدّعي فجـأة الدفاع عن الطيور من طويلات الساق!

وتُحوِّم نظراته فوق خنادق التجفيف.

- إن الجوار مميت، يقول منهياً حديثه.

35

في نهاية المفترق الذي يفضي إلى الجيران، يبدو لي، هكذا، للحظة، أننا سنُستقبل بأذرع مفتوحة، إذ يتقدّم الرجل في الفناء نحونا بخطوات وئيدة، والمرأة في إثره. ولدى تفحّصه المشهد عبر الزجاج المتطاير، ألاحظ أن لديه منشفة صفراء ملقاة على كتفه ومقعد مطبخ في يده، ولا يلقي إلينا بالاً وقد رآني آتية من عند أخيه العدو، وهو ما لابد أن يكون نذير شؤم، هما في مثل سني تقريباً، وربما يكونان ابني عم، فالملامح ذاتها، والتسريحة ذاتها، وطريقة المشي ذاتها، إذ يضربان الأرض بقوّة بالقدم اليسرى. جلس الرجل على المقعد، مادّاً رأسه إلى الأمام. الآن وقد خرجت من السيارة، أرى المرأة تحمل بيدها آلة حلاقة كهربائية سوداء، وتشرع على الفور في حلاقة قفا عنق زوجها تحت الظلّة التي تحمي باب المدخل.

- حتى لا يسقط الشعر في الداخل، على الأريكة أو على السجادة، تقول على سبيل التفسير، فهناك ما يكفي من القذارة مع الشيبس والكلاب.

ويتقافز الكلب كالمجنون وهو يعوي حول السيارة، ينتصب على قائمتين على النافذة التي يوجد الحيوان خلفها، محاولاً عدّة مرّات إسقاطي على الأرض، خامشاً طلاء السيارة - وهو ما يزيدها سوءاً -، ويصعد في النهاية إلى غطاء المحرّك حيث يستقر ويُزبد في رقبتي.

- لقد دهست نعجتي المُفَضّلة، كان علينا طلب القابلة عندما رأت النور، ثم الطبيب البيطري، فقد وُلدت بعملية قيصرية.

يتأملان الحيوان بعينيه الزجاجيتين، وقد لفظ أنفاسه الأخيرة بارتجاجات الطريقين الموصلين إلى مزرعتي الأخوين العدوّين اللذين لا

يتكلّمان بعضهما مع بعض منذ سبعة أعوام، ولكن أولاد العم الـصغار يلعبـون أحيانـاً معاً بالتسلّل من ثقوب السياج الشائك.

- هل تدفعين نقداً أو ببطاقة ائتمان؟

كان الحيوان المدمّى ذو الأربعة أعوام يسمّى لينـد، وقد كان يحمل بِحَمْلـيْن دائمـاً. وزنه: أربعون كيلو فاصلة سبعة، وقد نال مرتين الميدالية الفضية في المسابقة الزراعيـة، وتبيّن أنه مُكلف أكثر مما كان له أن يكلّف على رف اللحـم في الـسوبرماركت، مقطّعـاً شرائح مُبَهَّرة، ومنقوعة في الكونياك ومعبأة في الفراغ.

- حليب، يقول الصغير الذي غادر الـسيارة ويقـف إلى جـانبي ضـاغطاً عـلى يـدي بقوّة.

- إنه عيد ميلاد المعلّـم خـلال أسـبوع، تقـول المـرأة ويبـدو عليهـا التعـب، وهـي مناسبة كبرى، فلقد كانت لدينا النيّة على كل حال في ذبح الحيوان، وسأحاول أن أعمل منه يخنة، إذ ننتظر ستّين مدعوّاً.

- ولكن ليس من هذه الأشياء الجد لاذعة مع الفاصولياء الحمراء، يقول الزوج.

- علينـا أن نعتـاد، تتـابع مربّيـة المـواشي، فالنـاس لا ينفكّـون عـن دهـس الحيوانات؛ وفي المرة الأخيرة هو مهـر مـن الـصنف الأول قتلـه راعـي الكنيـسة وهو يسير القهقرى.

ومن سخرية القدر أنه أخطأ المزرعة، فما من شخص انتحر هنا.

- ليس بعد، يصيح الزوج.

- لقد أكلنا منه كل يوم لثلاثة أسابيع.

وتلتفت إليّ موشوشة:

- مع فلفل كايين المطحون، من المستحيل اكتشاف أصل المادة الأولية، أهو حـادث أم ذبح سري في المزرعة، إذ يختفي العرق والمنشأ في طرفة عين.

وتُردف بلهجة فيها خفّة لبنت جنسها:

- نبيع الكثير من الحيوانات المصابة بالحوادث إلى فندق ساند.

وأتساءل عما إذا لم يكن عليّ أن أعطيها وصفة الإوزة الإيرلندية المتمثلة في طبخهـا طويلاً مع الحشوة، لإخفاء أي أثر للجريمة.

- هيا إذن وتفرّجي على هذه اللوحات، تقول لي فجأة مُخفضة من صوتها، وإذا ما اشتريت واحدة، سأخفض لك ثمن الخروف، ولا أحد يعرف من أين أتت موهبته، فقـد شرع فيها فجأة. ونأمل أن تنتقل إلى الأطفال.

أصعد إلى السقيفة وراء المزارع.

في غرفة حميَّيْه المأسوف عليهما، أقام ورشة للرسم.

- لقد بدأ الأمر هكذا، أحد الأيام بعد العشاء، يقول. كأنّ أحداً يوجّهني من الحياة الآخرة.

إنها صور جانبية لحيوانات كصور الأباطرة الرومان على قطع النقـود القديمـة، وفي الخلفية سماء برتقالية ومشهد لغروب الشمس. ومن حسن الحظ أن اللوحات ليـست كبيرة. هذه اللوحة، سمّاها مؤرّخ الفن في الجريدة المحلية **غروب الشمس المـداري في هاواي** في مقال صغير، فقد كان يتجوّل في المنطقة الريفية ليعمل ريبورتاجاً حول رُبـع البلاد في رُبع عمود.

ويناولني قطعة الجريدة، أما الصغير في هذه الأثناء، فينظر بهدوء إلى الـصور وإلى الرجل كلٍّ بدوره.

- هل تريدين صورة خروفك أم أي خروف كان؟

أدفع ثلاثة آلاف وخمسمئة كورون ثمناً للوحة ويعطونني كهدية كيلين من بطاطا تشرين الثاني جُنيت حديثاً، وستقدّر أودور الصبغة الصافية لهذه اللوحة.

- إذا ما استمرّ الطقس هكذا، فسنزرع طوال السنة، يضيف المزارع، وإلا فسأستغرق في الرسم طوال السنة.

وتثير قطيطات عمياء صخباً عند المدخل وسط الأحذية بينما أسدّد ثمن الخروف وصورة الخروف، ويعرض طفل البيت على الصغير اللعب مع القطيطات، لأنها ستُغرق قريباً، فيقرفص الصغير مأخوذاً قرب كومة الأحذية وأخشى أن يعطونا شيئاً آخر كهدية.

وما أن سوّينا أمر الخروف واللوحة حتى أصبح الجوّ أكثر انفراجاً وأخذنا في الحديث عن الطقس. والزوجان خاصّة هما اللذان يتبادلان الكلام.

- أجل، يا للأمطار ما أغزرها، تقول المرأة.

- نعم، كم هو لطيف الطقس، يقول الرجل.

- الآن، ما من شيء كما في الماضي، تقول المرأة، فكلّ شيء غير مألوف.

- تشير الدلائل إلى أن القطبين سينقلبان في القريب العاجل.

- نحن نقترب من اليوم الأقصر في السنة، ولازالت البطاطا تنمو ولما ننتهِ من جمع محصول الصيف من الجزر.

- هذا صحيح.

- لا أتذكّر أبداً طقساً جميلاً كهذا نهاية تشرين الثاني. شيء لا يصدّق، لكنه حقيقي؛ بالأمس كانت الحرارة الأكثر ارتفاعاً في أوروبا - بما فيها روما - هنا بالضبط، في الموقع الذي نحن فيه.

- هل تصدّقين، في شمال الدائرة القطبية بالضبط، ولا تزال بقايا البطاطا تنمو وقد وُلِدَ لنا حَمَل بالأمس.

- لقد وصل الصحافي أومار رانيارسون اليوم بطائرته الصغيرة وسيتحدّث عن هذا في نشرة الأخبار هذا المساء.

- أجل، إنها حالة فريدة.

- نحمد الله على كل يوم يمر.

- هذا صحيح.

- سينتهي هذا يوماً ما.

- بالضبط.

- قد ينتهي أحياناً بثوران بركاني.

- أو بفيضان، أقول أخيراً، متدخّلة في حديث الزوجين.

- ماذا تعنين؟

- حسناً، يبدو لي أن الأنهر قد تضخّمت كثيراً، وتصل المياه إلى الجسور، والطرق مليئة بالحفر، والرمال مبتلّة، والثلاجات رمادية من الأمطار، إضافة إلى بحيرات الثلاجات الشاطئية.

فينظران إليّ بارتياب.

وعلى سبيل الوداع، أربت معتذرة على الحيوان الذي يرقد على البلاط.

يدلّني الرجل على كراج قريب حيث لا يستغرق وصول زجاج أمامي جديد إلا نصف يوم.

- وهم، على كل حال، لا يتوقفون عن طلبه للمعدات التي تعمل في السد.

ما إن أصعد إلى السيارة وأغلق البوابة حتى أرى كرة من الفرو المخطّط تظهر من فتحة كنزة الصغير، فينظر إليّ بعينيه النديتين والمتوسلتين عبر نظارته، وهو ما يساوي أربع أعين متوسّلة تنظر إليّ من المقعد الخلفي. وأبتسم بمرح ابتسامة تفهّم ورضى، وأنا أُشَغِّل مسّاحات الزجاج ونظام التدفئة، لاتخاذ الطريق الوطني 1، وهأنذا من جديد على السكّة.

إن ما يميّز الشبكة الطرقية في الجزيرة، هو هذا الطريق الدائري، إذ لا شيء يشغل الفكر، ولا تستخدم التفرّعات إلا لجمع الحليب أو الذهاب إلى المزرعة القريبة مع خروف دُهِس تحت عجلات سيارتك. ويمكن للمرء التوقّف حيث يشاء واستئناف السير من دون الاهتداء بالدليل. والإفلات من قلق الاختيار عند كل مفترق طرق يسهّل الأمور كثيراً.

أنتقل من النشرة الجوية إلى CD، بيريز برادو وفرقته الموسيقية، فأستمع إلى التانغو الممنوع **تابو**. وعلى الرغم من أن رؤيتي للعالم محدودة بواجهة زجاجية، غير أنني أشعر بتزايد سيطرتي على مجريات الأمور؛ وأنا، في الواقع، لا أحتاج إلا للقليل حتى أعدّ نفسي امرأة سعيدة.

36

نعبر ثلاثة جسور واحداً بعد الآخر؛ وقد ارتفع مستوى الماء من جديد. وبينما يجري إصلاح السيارة، نستغل الوقت في كتابة البطاقة البريدية وأكل شطائر بالقريدس، والصغير ينزع بعناية القشريات الأربع من شطيرته. وتستغرق منّي كتابة البطاقة للصغير ساعة ونصف من حياتي. إذ يُملي عليَّ كل ما يجب أن يكتب فيها؛ فأكتب الكلمات أولاً على دفتري الصغير، وينظر إليها ويشير بأصبعه فوقها مومئاً برأسه بالموافقة أو عدم الموافقة، فما من شك في أنه يعرف القراءة.

أمي العزيزة،

نحن على سفر في إيسلندا، والطريق ليس مستقيماً تماماً، أنا بخير، والسماء تمطر، مات الخروف والسمكات أيضاً، لديّ قطّة صغيرة، أما القطط الأخرى فماتت. أنا بخير ولكنني سأرجع إليك مع ذلك. نرسل إليك تحياتنا (هذه الجملة منّي). قبلاتي الحارة، ابنك الغالي، تومي.

في المساء، أهاتف أودور.

- احزري من التقيت لدى زيارة ما قبل الولادة هذا الصباح؟

- من إذن؟

- إنه لم يكد يرفع عينيه عن مجلة نرويجية، فقد كان مستغرقاً في تأمّل صورة ترجع إلى عامين للملك والملكة. الرجل الوحيد في قاعة الانتظار، لأن ذلك كان في يوم عمل.

- كيف تجري الأمور معكِ، أنتِ؟

- أما هي فلم أرها إلا من ظهرها، حينما كانت تدخل إلى غرفة المعاينة، وبما أنها كانت ترتدي معطفاً عادياً بالأحرى، ما كنت لأتعرّف عليها في الشارع.

- لأنك لم تريها إلا من الخلف، كيف حالك؟

- كانت تضع نظّارة.

- من الخلف؟

- لقد لمحتها من الجانب.

- كيف حالك؟

- كنت أتوقّع فتاة استعراض سوقية، تضيف، لكنها عوضاً عن ذلك قد تشبهك قليلاً، فيما عدا أنك، بالطبع، أكثر جاذبية.

- لأنني صديقتك ولم تريها إلا للحظة من الجانب.

- لا تأخذي الأمر بصفة شخصية، لكنه لم يكن شاحب الوجه، وقد قصّ شعره حديثاً، كما يبدو عليه الارتياح. لقد كان في الواقع بصحّة جيدة.

- ماذا يقول الأطباء، هل حُدِّد موعد الولادة؟

- ولادتي؟

- نعم، لتوأميك.

- في 24 كانون الأول، إذا لم يحصل شيء قبلاً، وستكونان بنتين.

- وفيما عدا ذلك، كل شيء على ما يرام؟ في قسم الولادة؟

- كما يمكن لك أن تتخيّلي، لم أعرف قط حياة أكثر ضجراً. وأحاول تحمّل الأمر من دون أن أفكّر كثيراً بالجنس ولا بالموت، فالأكل هو ما يهمني الآن على وجه الخصوص إذ أقرأ كتباً في الطهو بين الوجبات، ثم تحلّ

خيبة الأمل عندما تأتي الوجبة، بسكويت طري وحساء الكاكاو الفاتر، كثيفاً ولا طعم له.

أسألها عندئذ عما إذا كان الصغير يعرف القراءة، لا يعرف على حد علمها، فلم يكن لديها الوقت حتى لتعليمه الأحرف، فبرنامجهما لم يكن يسمح له بذلك: اللفظ السوي، لغة الإشارات والتدليك، علاوة على أنه بلغ الرابعة من عمره لتوّه.

- يعرف على كل حال كتابة كلماتٍ، أقول، كل أشكال الكلمات المعقّدة التي يكتبها على بخار النافذة في جانبه من السيارة: ماما، ذبابة، إلى الوراء، بابا، مبتلّ، بحيرة.

- ما الأثر الذي يتركه فيكِ وجود طفل معك؟

- إن تومي فريد، وهو طفل ظريف، لقد شرعت في تعلّم لغة الإشارات والتزوّد بالوثائق، إنه يعلمني، هو أيضاً، إذ يشير إلى الأشياء ويريني الإشارات.

- ترى هل هو بصدد تغييرك؟

- من الممكن أن يكون الأمر كذلك.

أسمع من خلال صوتها أنها تشهق.

- إن أهم شيء في الحياة هو الأمومة، فإنجاب طفل يمثل تجربة رائعة، إذ يتوجّب فجأة تقدير ما إذا كنّا سنولم وليمة بمناسبة تناول القربان المقدّس أو الاكتفاء بتقديم القهوة وما إذا كان عليَّ الاتصال بالأب، بل والذهاب معاً لعند المصوِّر. فعليه، حسب القانون، دفع نصف تكاليف مناولة الطفل، والدفن.

- ينبغي في البدء... أن يولَدوا، أقول.

- قد أموت أثناء الولادة، قد نموت نحن الثلاث، فهي مسؤولية كبيرة.

- هيا، كفاك، فلن يحصل لك شيء هذه المرة.

- وإذا حصل لي شيء مع ذلك... إذا ما حصل لنا شيء، أريدك أن تهتمي أنت بتومي، فأنت أفضل شخص عرفته، وقد سجّلت كل هذا كتابة.

- لن يحصل لك شيء، فأنت شديدة الحساسية في هذه الحالة، وسيعتنون بك.

- بالضبط، فهي الثقة التي تسود في هذا القسم الذي يرعبني، إذ يحب الناس هنا عملهم إلى حد يبعث على الريبة، ثم إنهم يسجّلون حلقات **الطوارئ** لمن هم في العمل.

- أنت شديدة الحساسية في هذه الحالة، وإذا شئت، سأكلّم الطبيب المُوَلِّد.

- لست إلا صديقة قبل كل شيء، ولا أتكلّم إلا عن نفسي ولا أسألك شيئاً عن نفسك، فهل تعرّفت على شاب وسيم خلال الطريق؟

- كلا، فهنّ فتيات على وجه الخصوص اللواتي يعملن في محطّات الوقود، وأنا مسرورة تماماً لأنني وحيدة مع تومي. لقد وصلنا في ألغوزة تركيب الصور إلى مستوى ثلاثمئة قطعة.

- لقد قلت لك إنه سيغيّرك.

عندما توقفت للحظة قرب صندوق البريد، بحثاً عن مفاتيح السيارة في جيبي، يلتفت رجل يرتدي أنوراك بقبوعة محاطة بالفراء، وتحت إبطه علبة كمان، ليبادرني بلطف باللغة الإستونية:

- امرأة جميلة!

37

ما من شك في أن أشغالاً كبرى تجري في السد، فمعدّات ضخمة بحجم شاليه ذي ثلاثة طوابق تزحف على قطعة من طريق ترابي، وتسدّ الطريق الوطني تماماً في الاتجاهين. وأسير على إثرها إلى أن أصل إلى طريق اعتراضي يفضي إلى بعض المزارع ويسمح لي أخيراً بتجاوزها.

وتكشف أنوار مصابيح سيارتي عن رجلين واقفين أسفل ركام ترابي شديد الانحدار، يديران ظهريهما للطريق، في ثياب العمل الزرقاء. هما هنا، من دون حراك ومتماثلان، توأمان حقيقيان، على مسافة بضعة أمتار أحدهما عن الآخر، ولا سيارة قريبة أو مزرعة في الجوار، ينظران إلى أعلى الركام؛ وهناك خروفان منتصبان ساكنين في القمة وينظران إلى الرجلين. ويقوم هذان بتصويب بندقيتيهما في اللحظة ذاتها تقريباً، فأسمع الدوي في الآن ذاته، وتتدحرج لفّتان من الصوف المدمّى على المنحدر. وعندما أتجاوز الرجلين بلباسهما الأزرق يستديران لتتبعي بنظراتهما وبياض عينيهما يظهر لي مصفرّاً، فأشعل المذياع.

إن العديد من الأنهار في أرجاء البلاد فائضة عقب الأمطار الغزيرة التي تهطل من دون انقطاع منذ أسبوعين، يُعَلّق المذيع في أخبار الظهيرة. إذ تقلّ الطرق السالكة أكثر فأكثر، وتداهم الأنهار الموحلة دعائم الجسور وهي على وشك أن تُغلق هي الأخرى، وقد انقطع الطريق الدائري في قطعة من مئة متر؛ والمياه تحاصر عدّة مزارع، وقد أغرقت المياه جياداً، وكومات علفٍ، والعديد من المراعي ومنعت سكاناً من الرجوع إلى بيوتهم من

مزرعة إلى أخرى، وتزايدت انقطاعات التيار الكهربائي، والضغط، في الهضاب العليا، أقوى من المتوقع في قنوات التصريف في السد، وبدأت أنهار تخرج عن مجراها. زلّ لسان المذيع، فكرّر الجملة الأخيرة، ومن المتوقع هبوب الرياح الجنوبية واستمرار الهطولات.

وما عليَّ إلا مدّ بصري عبر الزجاج الأمامي لأرى البلاد غارقة إلى نصفها في المياه. وكلّ شيء غارق حرفياً على امتداد الرمال. لقد انطلقت في رحلة لطيفة حول البلاد، بغية استعادة النظام في حياتي، وها هو المسار ينقطع.

إن العالم على الخارطة الجغرافية ذات البعدين محدَّد، مؤكّد ونهائي، وتُختزل الأنهار إلى خط بالقلم الأزرق، غير مؤذٍ. وعلى الرغم من إنني لم أعرف بعد من أنا، فإنني أتمكّن تقريباً من تحديد مكاني وإلى أين أذهب على الخريطة المبسوطة.

«في بعض البلدان الجنوبية، تُسجَّل حالياً درجات حرارة أقل من ثلاثين، يواصل المذيع برصانة، لكن الحرارة تبلغ الإحدى عشرة فوق الصفر على مسافة مئتي كيلومتر شمالي الدائرة القطبية». وتلك هي فوضى الطبيعة؛ إذ تأخذ الناس دائماً على حين غرة.

بما أنني أتنقل بوسائلي الخاصة مع طفل لا تربطني به أي صلة قرابة، فلا أجد في نفسي الشجاعة لمواجهة تيار الماء الموحل في الجانب الآخر من الرمال بالسيارة؛ فيجب عليّ إذن العثور على مأوى للّيلة في هذه الصحراء المظلمة، وسط النهار الشفقي.

أتفحّص الخارطة المبسوطة على المقعد الأمامي للتحقّق من مساحات الرمال، وعدّ خطوط الأنهار الزرقاء على وجه الإجمال، والبحث عن النقاط

الحمراء التي ترمز إلى سرير مريح وفطور صباحي مع حـزوز البرتقـال والـشاي. فعـلى الشريط الأخضر الضيّق ثمّة أمل في العثور على مأوى.

قبل الوصول إليه بعشر دقائق، كنّا نسمع السيل الجارف، الرمادي الداكن، المحمّل بالرمال والحصى والوحل، نتوقّف على الجسر للتفـرّج عـلى التيّـار، وآخـذ عـلى محمـل الجد شاخصة التحذير التي وضعها الرجال المكلّفون بقياس مستوى الميـاه ولا أجـازف بمهمة استكشافية، وتظلّ المسألة مع ذلك هي معرفة ما إذا كان بإمكاننا عبور الجـسر القادم، والانحصار فيما بعد على الجانب الآخر، أو البقاء في هذا الجانب من المياه، مع واجب العودة إلى حيث أتينا، ويبدو الخيار الأول هو الأفضل؛ إذ تحين لحظـة نتوقـف فيها عن اجترار الماضي.

يمشي الصغير إلى جانبي، ملوّحاً بيديه كرجل لا يخشى شيئاً، وما من وسيلة للعثـور على نقطة ثابتة، وما من شيء يمكن إيقاف النظـر عليـه في الدوّامـة الرماديّـة، وبيـنما يصيبنا البلل، نتوقف هنيهة على الجسر ونحن نراقب انهـمار كـتلاً ضـخمة مـن الميـاه الطينية.

وعندما نعود إلى السيارة، أشعر كأن ساعة كاملة من النهار انقضت، فأرفع التدفئة إلى أقصاها ويكتب الصغير كلمتين جديدتين على بخار النافذة، مثل فيلسوف إغريقي.

ماء يسيل.

على مسافة قليلة من المكان الذي نوجد فيه، افتُتح فنـدق فخـم مجهّـز بمَشمَـسة وجاكوزي وبار، وفي مكان كان خاوياً من بني الإنسان، نجد حركة مرور كثيفـة. «هنـا، تستطيعون أن تكونوا أنفسكم»، تُصرّح لوحة إعلانية.

وعند آخر نهر ثلجي، أجد نفسي وجهاً لوجه مع سيارة بيضاء، وسط جسر وحيد الاتجاه. أتوقف فجأة، وسائق السيارة الأخرى يفعل الشيء ذاته. ونخرج كلانا.

- لقد ظننت أنك ستتوقف، أقول، وأنا مبهورة بالمصابيح.

ومحركا السيارتين يدوران.

- سأعود القهقرى، يقول، فلقد كنت أفكّر في أن أعود أدراجي وقضاء الليلة في الفندق.

- بإمكاني التراجع أيضاً.

- أتذهبين صوب الشرق؟

- أجل، فأنا أنوي إقامة شاليه صيفي.

- أثناء أعياد الميلاد؟

- نعم، أثناء الأعياد، وأنت، في طريقك إلى الغرب؟

- نعم، لكن عليّ العودة سريعاً، ويمكن لنا أن نلتقي ثانية ربما.

هناك بخار على نظارته، فمن المتعذّر تبيّن عينيه وراءها، وأمسكت بِكُم سترته - وهو رد فعل غريب إزاء شخص مجهول. شعره داكن، وقصير إلى الحد الذي تبدو معه كل ندوب الشباب الصغيرة بوضوح على فروة الرأس والذقن.

- هل أنت صيّاد؟ أسأله.

- كلا، لست صياداً، كانت هناك فراخ حجل الثلج على الطريق هذا الصيف، وقد توقفت فجأة فانقلبت السيارة. ولديّ في سيارتي صقر مريض عليَّ نقله إلى المدينة، إذ يجب عرضه على متخصص - وإلا سيُحنّط في أسوأ

الاحتمالات. ولا يجب على وجه الخصوص إشاعة خبر وجود طيور نادرة ضالة تعبر المكان قبل أن تستأنف هجرتها إلى أمريكا، وإلا سيوطنونها، لأنهم يريدون في العاصمة، حشو كل شيء بالقش، فذلك لا يترك أثراً.

عندما أصعد ثانية إلى السيارة، أتذكّر أنني لم أطعم الصغير شيئاً منذ عبورنا الرمال، فأغرز عندئذ قشة في علبة حليب وأناوله إياها، كان مُطرِقاً وهو يمسك العلبة بكلتي يديه ويفرغها. وأقضم طرف موزة، فأحس بطعم القشرة المر وأناوله إياها من دون أن أزيح عيني عن الطريق أو أخفض السرعة، أي من دون أن ألقي بما يخبئه لنا المستقبل في الهواء.

38

وسط الصحراء يقوم فندق ساند، وهو مبني من جذوع الأشجار، جديد تماماً، مع بار صغير، وهوائي لالتقاط القنوات التلفزيونية من الأقمار الصناعية، وستائر بنية شفافة لا تكفي لحجب النوافذ تماماً.

- شيء رائع أن يمر المرء من هنا، يصرح لي أحد الأجانب عند مكتب الاستقبال، ولكنني لا أحب البقاء محبوساً فيه. أما أنتم المعتادون، الذين ولدتم ونشأتم على الرمال وفي الظلمة، فالأمر مختلف. وسيتغير الجو بالتأكيد لو كان الرمل ذهبياً عوضاً عن كونه أسود، ولو كانت الحرارة أكثر ارتفاعاً بعشر درجات، فيما يتصل بالتكيف.

كل القطاع محاط بالمياه؛ مع أن عمال الطرق والجسور شرعوا في إصلاح الجسور شرقي الرمال.

نحط رحالنا في الفندق الذي سبقتنا إليه بالأمس فرقة الإنشاد الإستونية الذكورية التي تسلك الطريق الذي نسلكه ذاته في تجوالها بالبلاد. وسيبقى المنشدون فيه يومين إضافيين، وسيقدمون هذا المساء برنامجهم الصوتي، متبوعاً بعرض مفاجئ يجذب زبائن أتوا من ورشة السد. كان فندق ساند أنشئ في زمن قياسي، على نمط الغرب الأمريكي البعيد **Far west**، ويبدو أن النموذج الأصلي موجود فعلاً في تكساس، مع ثلاثمئة غرفة إضافية بالتأكيد.

- ننوي التوسّع في العام المقبل، فالإمكانات غير محدودة، يقول مدير في الفندق في البهو.

للمطعم في الطابق الأرضي نصف باب ذو مصراعين من الخشب المنحوت يفتحان ويُغلقان في الاتجاهين، كما في صالونات أفلام الغرب الأمريكي القديمة أو مقصورات القياس في محلات الملابس، وثمّة مسرح من الخشب المعاكس مع ميكروفونات يشغل مؤخرة قاعة مع مرايا مرتبة كحلبة رقص.

ألقينا بأنفسنا على السرير في غرفتنا، والقطيطة بيننا، نشاهد الأخبار في التلفاز. تدور الكاميرات حول أرض غادرت فيها الأنهار المتدفقة مجراها وتبدو السدود على وشك الفيضان. ويذكر المذيع بإيجاز جولة فرقة الإنشاد الذكورية ومرافقاتها من «الفنانات الراقصات»، يقول بمكر قبل أن يحيل الميكرو للمعلّق الرياضي. ونتنقل بين القنوات الأجنبية، فالصغير يمسك بجهاز التحكم عن بعد ويقود العمليات.

امرأة تجثو على الرمل الذهبي لشاطئ، وهي عارية ولبشرتها بياض الثلج؛ رأسها منحن على زجاجة عطر عملاقة، تداعب بحنان عنقها بيدها، وتدغدغ الزجاج بأطراف أصابعها، صاعدة صوب السدادة التي تلاطفها أيضاً، من دون أن تفتحها على كل حال، الزجاجة بقامة رجل بينما المرأة صغيرة، رقيقة وهشّة. ولا تمتلك في العالم شيئاً إلا هذه الزجاجة التي تعتمد عليها.

ونظلّ جالسيْن هنا، مأخوذيْن بمثلة الدعاية، ونحن نداعب القطيطة. وهي قناة فرنسية؛ إذ نسمع من بعيد صوتاً رجولياً مخملياً. المرأة جزيرة، يقول، ثم لحظة من الصمت.

- امرأة جميلة، يقول الصغير، بصوت واضح وجلي.

- أجل، امرأة جميلة، أقول ضاحكة.

- امرأة جميلة، يكرر وهو يضع راحة يده الصغيرة على بطني.

- من الممكن طلب الخمر مع وجبة الطعام، تقول فتاة الخدمة في القاعة، بشرط تناول شيء آخر إضافة للبطاطا المقلية.

وتمر صناديق قناني المياه الغازية والبيرة مطنطنة بينما تجري تجربة الصوت في الميكروفونات. فمن الواضح أن شيئاً ما يُحَضَّر. لكن كل شيء هادئ حتى هذه اللحظة فيغتنم مدير الفندق الفرصة للحديث معنا في البهو.

- ستدبّ الحركة في الفندق، إذ ننتظر الكثير من الأجانب الذين يعملون في السد.

ويبدو عليه الغموض، وهو يخفض صوته وينحني فوق الكونتوار بين نخلتين في أصيص.

- نحن في وضع غريب حقاً. فإلغاء الحجوزات بسبب الأشغال أقل عدداً من الزبائن الذين يأتون من الأعلى. وليس هناك إلا بعض السيّاح النادرين من أنصار البيئة الذين يأتون إلى هنا لخوض تجربة الصحراء.

ينحني فوق الكونتوار بين النخلتين في الأصيص مضيفاً بمظهره الغامض:

- علاوة على أنهم يريدون البقاء لوحدهم، منعزلين، ولا يشترون من التذكارات شيئاً تقريباً ولا يجلبون إلى البلاد إلا القليل من العملة الصعبة.

انتصب الآن رافعاً صوته:

- ينبغي النظر إلى الأمور في عموميتها.

ويصمت كلانا، أنا ومدير الفندق. وأنتظر أن تبدأ الخدمة في المطعم. إذ يرغب الصغير سمكاً مسلوقاً مع البطاطا والزبدة، كما عند جدّه، إذا ما

فهمت جيداً. والقطيطة أيضاً تحب السمك، وينحني مدير الفندق من جديد.

- ثم إن هناك، بالطبع، الأفلام الدعائية، إذ نرى العديد من المخرجين يمرّون من هنا، لصنع أفلام دعائية. وقد بدأ هذا يدرّ مالاً، وقد قال لي أحد الأجانب مؤخراً إن لديه انطباعاً بأنه يمثّل دوراً في فيلم دعائي للهاتف الجوّال: فلا شيء إلا الرمل والحصى، والحرية التامة. والحق أنه يجب أخذ الناس الذين يسعون إلى الوحدة بعين الاعتبار. ولا تنبت، في الوقت الحاضر، أية نبتة هنا، لكن لدينا النيّة في علاج هذا العام القادم وغرس غابة صغيرة من الصنوبريات، في مأمن خلف النزل. ونحن على اتصال بمصلحة التشجير التي أعطتنا الضوء الأخضر.

وتتحرك شفتا الصغير بصمت، فهو بصدد فك رموز نص بست لغات على لوحة معلقة على الحائط، واستأنف مدير الفندق مظهر الغموض خافضاً صوته من جديد.

- حسناً، ثم هناك بالطبع، تردد العديد من سكان الريف ما إن يحصل شيء خاص. إذ يأتون للترويح عن أنفسهم والرفع من معنوياتهم، ورؤية الأجانب وشرب كأس أو اثنين.

هناك تلفاز في قاعة الطعام، وفي انتظار وجبتنا، نتابع برنامجاً على قناة أجنبية. يجرون خلاله مقابلة مع رجل من قرية صغيرة في جبال الألب النمساوية. لديه أسماك حمراء كبيرة في حجم الترويت في بركة حديقته. يقول إنه علّمها لعبة كرة القدم وإخراج رؤوسها من الماء لتقبيله. وتؤكد امرأته أن زوجها يقضي جلّ وقته في تقبيل وملاطفة الأسماك وتعترف بأنها تغار منها. وتدعو فريق التلفزة إلى العشاء معهما وبينما تتحدث مع أعضاء

الفريق تحضِّر لهم الترويت البحري المقلي. ترتدي مريلة ملطّخة وهي جد مسرورة - حسب الظاهر - من الاهتمام الذي توليه لها الكاميرا.

- لا سمك لدينا، تخبرنا النادلة، فلدينا أطعمة إيطالية على وجه الخصوص. والبيتزا في هذه الآونة هي التي تلاقي إقبالاً. ومعها الحساء اليومي، بالفطر.

أطلب حليباً للصغير وماءً لي.

- ألا يضيركم أن يكون الحليب مبستراً؟ تسأل الفتاة، إذ لا يطلب الحليب منا أبداً مع الوجبات.

يزدرد تومي لقمتين، ولكنه كأنما غصّ بهما، ولم يعد يستطيع التنفس، فيسعل في كأس الحليب وينتهي إلى تقيئهما في الفوطة الخضراء التي أمسك بها أمام فمه. عندما نعود إلى طاولتنا بعد ذهابنا للمغاسل، نجد أنهم رفعوا الصحون واستبدلوا بها صحوناً جديدة وفُوَطاً خضراء. وتقول لي النادلة، إن بيتزا مرغريتا للصغير وطبق الكالزون لي لم يكونا في المستوى، وتسأل عما إذا كان بالإمكان تقديم هامبورغر مع البطاطا المقلية عوضهما، تقدمة من الفندق.

- سيكون من حق كل زبائن الفندق تلقّي مشروباً مجانياً، ومشروبين آخرين بسعر مخفض في الحفلة الموسيقية هذا المساء.

ما إن استغرق الصغير والقطيطة في النوم، حتى أخذت دوشاً وأنهيت قراءة رواية لمورافيا. وبما أنني أشعر بقشعريرة بعد السفر، أرتدي كنزة سميكة بيضاء وأنزل للجلوس في المطعم. وقد أخذت القاعة بالامتلاء شيئاً فشيئاً والناس يتوزعون على الطاولات حسب المخالطة أو صلات القربى، ويتشابه الكثيرون، فهم حمر الوجوه والشعر ببقع من النمش.

واثنان من الأجانب يرتديان الآنوراك، على طاولة بالقرب من المدخل، يرمقانني خفية بأعينهم السود من فوق كؤوس البيرة؛ يمسك أحدهما سيجارة ملفوفة بين أصبعين. وأجول بعيني في القاعة لأتوقف على شاب، يجلس وحيداً على حدة. قد يكون في السابعة عشرة من عمره. أمامه زجاجة كوكا وكأس مليئة بمكعبات الثلج. يشرب بين الفينة والفينة من فم الزجاجة، من دون أن يمس الكأس. ويلوح لي إنني أعرفه، فهو حسّاس ولديه شيء من الشحوب وأتخيّل أنه بدأ في استعادة تناسب أعضائه، وتوقف عن الشعور بالتعب. شعره داكن ومتماوج، حاول تلميسه بالمشط والماء.

أنسل حتى طاولته وأسأله السماح لي بالجلوس. وعندما يرفع عينيه ألاحظ أنهما جميلتان وخضراوان، لكن بشرته دميمة في طريقها للتعافي. أطلب الشيء ذاته الذي كان طلبه، ومن دون وعي مني، أنحني قليلاً لأسأله عن يوم ميلاده، فيلقي بنظرات قلقة إلى كل جهة وكأنّه فارٌّ من جيش عدو يقوم بتسريب معلومات مخاطراً بحياته.

- آخر أيار، يقول من دون عدوانية، وينزع طاقيته.

وتظلّ خصلة شعر بنيّة ملتصقة على جبينه.

- أنتَ من هنا؟ أسأل من دون مقدّمات وأنا أرتشف محتوى زجاجة الكوكا.

فيمتقع لون الشاب ملقياً نظرات فزع خلف كتفه، كأنه كان ينتظر أحداً.

- يظهر أنكما تعارفتما، يقول رجل وهو يجلس إلى الطاولة المجاورة.

ويمسك المراهق من كتفه وكأنما يفهمه أن لا يخاف ويبتسم. إنه رجل الجسر.

- مرحباً، وشكراً لما بعد الظهر.

- مرحباً.

- لقد أتينا للاستماع إلى الكورال، يقول، لكن علينا الانتظار بضع سنين لما يتصل بالقسم الثاني.

بعدما تحدثت معهما قليلاً، أستسمحهما، لأن عليّ الصعود لرؤية ما إذا كان كل شيء على ما يرام في الغرفة. وما إن وقفت حتى سألني الرجل عما إذا كنت أسدي له خدمة. إذ عليه أن يصطحب المراهق إلى بيته نهاية الحفلة، فهل بإمكاني المحافظة على الصقر المريض؟ وهو في صندوق خشبي.

- لبضع ساعات، حتى صباح الغد على الأكثر. لقد أطعمته، فليس عليك أن تقلقي بهذا الشأن. وعليّ التوقف في الطريق، لكنني أنوي العودة إلى الفندق هذه الليلة.

يصحبني إلى الغرفة 10، يصعد الدرج خلفي ويضع الصندوق على الطاولة قريباً من السرير. ينظر الطير إلينا بانزعاج من الثقبين المهيئين في حبسه، وتضطرب القطيطة على الفور وهي تنفخ وتبصق في اتجاه الضيف ذي الريش، وانتفش شعرها في كل اتجاه؛ وفجأة وثبت إلى الممر، وانعطفت على قائمتين واختفت كأن الأرض ابتلعتها، فيقول رجل الجسر إنه سيساعدني في العثور عليها عندما يعود، وهو شديد الامتنان لي على كل حال للخدمة التي أسديها له.

ألاحظ أنه قبل خروجه، يجول بعينيه في الغرفة، ويلتقط اللحاف الذي دفعه الصغير إلى الأرض أثناء نومه ويبسطه برفق عليه. اهتمام حقيقي بكل ما هو فتي، كما هو لصغار الحجل.

- أنا طبيب بيطري، يقول، ويجب عليّ أن أذهب لعمل قيصرية في مزرعة لإنقاذ بقرة في حالة مخاض عسير.

أخرج كتاباً، نشر بعد موت أحد المؤلّفين الفرنسيين، وأستغرق في قصة أب يموت مع ابنه ذي العشرة أعوام محاولاً إنقاذه من الغرق - وسيدفن الولد بين ذراعي أبيه في مقبرة الجزيرة التي أرادا زيارتها قبل أن يغادراها بعبّارة المساء. وأجد صعوبة في التركيز على القراءة تحت نظرة انزعاج الضيف الليلي؛ حتى إن موت البطلين نفسه لا ينجح في الاستئثار باهتمامي، فأقرر السهر حتى عودة صاحب الصقر. والكورال يصدح في الطابق الأرضي. والتصفيق الشديد يشير إلى دعوة الكورال من قبل الجمهور للعودة. لكن يبدو مع ذلك أنني غفوت للحظة حينما أنتبه، لأتذكّر بقايا حلم. فبينما أنا مستلقية على العشب تحت شجرة تفاح، أنظر إلى التفاح الأحمر أقول في نفسي: «ستقع الاحتمالات فوقي في القريب العاجل».

39

حين أعود للقاعة، أجد الضوء خافتاً والكرة التي تدور فوق حلبة الرقص مشتعلة. ومن العمود المركزي، يتهيأ طير مهاجر إلى استئناف رحلته. فقد جاءت من بعيد إلى هنا، من مكان أبعد بكثير من المكان الذي جاءت منه فرقة الإنشاد، حسب ما يظهر على أصابع رجليها بأظافرها المطلية باللون البنفسجي. جفونها ثقيلة وفي إحدى ساقيها حذاء برباط ونعل من السماكة وكعب من الارتفاع بحيث يُخشى انفلاته من رقابة صاحبته. إن حِملاً كبيراً يثقل عليها بينما تترك نفسها تنزلق ببطء إلى الأرضية حتى يلمس شعرها الأسود الأرض. وعلى الرغم من الإضاءة الخافتة، تظهر الندوب تحت الثديين بوضوح، والأضواء تدور وترف: أخضر، أحمر، بنفسجي. والرجال واقفون معاً أمام المسرح مشكّلين جداراً كتيماً حول طير الفردوس الآتي من بعيد، يتحدّث بعضهم في جوالاتهم بلغات مختلفة، إلى زوجاتهم اللواتي لم يروهن من مدّة طويلة ولا شك. وراقصة الستريبتيز، وهي أهم ما في الحفلة، يبدو أنها تلاقي صعوبة في النهوض فتحلّ المشكلة بالقرفصة مباعدة بين ركبتيها في مواجهة المتفرجين.

بعد هذا، يصعد العديد من الزبائن إلى المسرح للغناء، فيغنّي مدير الفندق مع أحد العمال الأجانب O Sole mio، ثم يؤدّي ثلاثة رجال كلٌّ بدوره الأغنية ذاتها حول البحّار الذي يبحر حول البحار الزرقاء I am sailing، ولآخرهم جذع طويل، يضع ربطة عنق مزركشة بالأزرق المخضر، ويمد عنقه إلى الأمام بحيث تلمس شفتاه الغليظتان الجافتان

الميكروفون تقريباً بينما يظلّ جسمه متراجعاً على المسرح. يتلمّظ، ويأخذ الميكروفون ويقلبه كما يمكن أن يفعل مع امرأة في رقصة التانغو. وتتلاشى الموسيقا في القاعة؛ وفجأة يتردد الصوت وحده من دون مرافقة، ويستمر لبعض النوتات قبل أن ينتبه المغنّي إلى تعطّل جهاز البث. إذ يقف قريباً من الميكروفون محرّكاً شفتيه. ويجتاز بعض الرجال القاعة بسرعة، فيصلح المغنّي ربطة عنقه بينما تصفّق القاعة وتُصفّر.

وتزداد الحرارة والرطوبة، فيعلّق الرجال ستراتهم على ظهور المقاعد، ويبدأ الناس في التلامس والتصادم والتزاحم، وفي الاحتكاك بعضهم بالبعض الآخر، وفي دوس أقدام بعضهم البعض: وهي بداية الترتيبات لليل.

وهاهو صاحب الصقر قد عاد، فيجلس إلى جانبي في الزاوية.

- مرحباً، يقول، هل فاتني شيء.

- بالتأكيد، كيف جرت العملية القيصرية؟

- على ما يرام، كانت عجلة، بيضاء ببقع صهباء مثل أمها.

- والفتى، أهو ابنك؟

- كلا، بل ابن أحد أصدقائي. لقد ساعدني اليوم فدعوته للأكل هنا، في بيزيريا سباس.

خُصصت له وللطير، الغرفة 13، المقابلة لغرفتنا تماماً في الممر. وعندما نصعد، نجد الباب مفتوحاً والصغير ليس في سريره. أما الصندوق فلا يزال على الطاولة. فنجري في كل الممرات، صاعدين الأدراج ونازلين منها، ثم نتوجّه لمكتب الاستقبال لاستنفار الموظفين. لكن ما من أحد في مكتب

الاستقبال. ويبدو لي سماع دويّ في الخارج، وعلى الفور تصلنا من نزيل ثمل في الفندق إشارات تتعلّق بقزم بالبيجاما، تقودنا إلى ما وراء المسرح. إذ نعثر عليه هناك، مستيقظاً، والقطيطة بين يديه، عند الراقصة التي ارتدت من جديد ملابسها المدنية.

يحمل رجل الجسر الصغير، وأحمل أنا القطيطة، إذ يجب نقل الطائر إلى موطنه. وما إن ندخل الغرفة 10 حتى نلاحظ أن الأشياء على ما لا يجب أن تكون، فالباب موارب، والنافذة مفتوحة على مصراعيها والستارة ترفرف وهي مُخَرّمة أكثر من قبل. لكن الصندوق على الطاولة بالتأكيد، وما من حياة في داخله، إذ مات الطائر في قفصه، من أزمة قلبية، يؤكد المتخصص. ولا يظهر على ريشه أي شيء غير عادي على كل حال. فننتقل إلى الغرفة 13، تاركين الصندوق حتى الغد.

ولا تتمكن موظفة الاستقبال من تفسير الخردق الذي دخل من النافذة المفتوحة، وأعضاء الكورال الذكوري جالسون إلى مائدة الفطور وهم واجمون.

- لابد أن تكون صواريخ، ألعاباً نارية، أقول. ولكن ماذا عن الخردق الذي مزّق ستارة النافذة؟

- قد يكونون أطلقوا بعض العيارات النارية هذه الليلة، الزبائن الذين يعملون في السد، تقول أخيراً بتأنٍّ، إذ يحاولون اصطياد بعض الطيور لشيّها، كما يفعلون عادة في بلادهم.

40

أسـوّي كـل شيء بالهـاتف، فـأتفق مـع الوكيـل أن يعيـدوا الـسيارة القديمـة إلى ريكيافيك، وأن يرسل البائع علبة الشوكولاتة، هدية الوكالة، إلى صديقتي الموجـودة في مصلحة الولادة 22 ب.

وننتظر وصول السيارة الجديدة إلينا للانطلاق من جديـد قبـل المـساء، مـع قنينـة ترموس مملوءة بالكاكاو الساخن.

يعملون لي حسم 35 بالمئة من فاتورة الفندق بسبب الخـردق والـستارة المخرّمـة، و15 بالمئة إضافية بسبب الإزعاج الصوتي للحفلة الليلية الراقصة زيادة عـن 15 بالمئـة أخرى كتعويض عن إهمال عمال الفندق الذين كان عليهم أن يغـيّروا لي الغرفـة وهـو ما أجبرني على الانتقال إلى غرفة الطبيب البيطري.

- وما كـان هـذا ليغـيّر الـشيء الكثـير، تقـول موظفـة الاسـتقبال، فالفنـدق يغـصّ بالنزلاء.

وتقترح إدارة آلة لنا أثناء انتظارنا. أما مدير الفندق فلم يظهر بعـد مـع أن الظهـر ليس بعيداً.

يبدي الصغير اهتماماً كبيراً بالسيارة الجيب لدى وصولها، ويختلط بالرجـال الـذين يحيطون بها ويضرب العجلات بقدمه بينما أنقل أمتعتنا من سـيارة إلى أخـرى. واضـعاً كلتا يديه في جيب أفروله. وقد تأثر عمال الفندق كثيراً باستبدال الـسيارة هـذا وسـط الصحراء، ولم يبق أمامنا مسافة طويلة، فسننام هـذه الليلـة في الـشاليه الـصيفي عـلى حافة التل.

- شكراً لأمسية البارحة.

وقد لُفظت هذه الجملة قريباً جداً من أذني.

- لقد كانت معرفتي بك من دواعي سروري، يضيف البيطري. هل تغادرين.

إنهم يقولون الشيء ذاته، شكراً لهذا الوقت السار الذي قضيناه معاً.

- أمر مؤسف للطائر، أقول.

- ولخردق الصيد.

- أجل.

- لكنني لا آسف على الباقي.

- كلا، لا أسف على الباقي.

يودّع بعضنا بعضاً رسمياً قرب السيارة، ويصطف عمال الفندق في نصف دائرة أسفل الدرج، كخدم قصر لدى مغادرة ضيف مهم، ويقف الصغير إلى جانبي، وعيناه تتنقلان بيننا كلاً بدوره؛ ويبدو عليه القلق وهو يشترك في الحديث.

- هل يمكن للحيوانات أن تكون معوَّقة؟

ولكوني مترجمة شخصية مُحَلَّفة، أترجم لصغيري أجوبة المحترف.

- إنها تموت أكثر الأحيان بعد ولادتها، وإذا لم يحصل هذا، تُقتل مباشرة. وبعض الحيوانات تُحنَّط لتنتهي إلى متحف التاريخ الطبيعي. إذ يرى البعض في الحِملان السامية برأسين وفي الخنازير بخمسة قوائم قِطعاً مثيرة للاهتمام في متحف.

وأترجم إجمالاً.

- ولكن الجياد الصم، هل تُحنَّط أيضاً.

- لا أتذكّر أنني صادفت حالات كهذه في حياتي المهنية. لكن لدى أصدقاء لي كلبين معوَّقين، الأم وابنتها، فالكلبة عمياء وابنتها قزمة، وهم يحبونهما كثيراً، وقد كان ابن أصدقائي معي هنا البارحة.

- هل جرى تبنّي الابن؟ يبدو لي أنني سألت عندئذ.

لكن من دون شك أنني لم أسأل عن أي شيء، لأن البيطري شرع في الكلام عن الالتقاء ثانية.

- لا أدري إذا ما كان الأمر معقولاً، لأنني ظننت أن أكون وحيدة خلال الأشهر القادمة. وحيدة مع تومي، أوضحت.

- إذا ما غيّرت رأيك، سأكون سعيداً، فزوجتي أكثر الأحيان غائبة بسبب عملها.

وقبل أن يودّعني، ينحني على كتفي، كأنه يتأمّل الرمال أمامه ويقول بصوت خفيض في أذني:

- لقد فهمت جيداً عَمَّ تبحثين، ولكنني لو كنت مكانك فلن أمسّ أي شيء. وينبغي ترك الماضي كما هو، لكن أستطيع القول، فيما بيننا، إن صديقي الفتى يحصد كل الجوائز في اللغات الحيّة وهو معرّض للدوار، ويرغب في متابعة دراسته في الخارج فيما بعد.

41

الصغير مستغرق في النوم على المقعد الخلفي تحت بطانيتين، والقطيطة مستيقظة - على غير العادة. ويبدو عليها الضعف، فربما مرضت من أثر السيارة، وربما أساءت شطيرة الطون المنتهي الصلاحية إلى صحتها. ومن جهتي، أنا سعيدة بحظي، وبسيارتي الجديدة، وبالظلام وجهاز التدفئة الذي يعمل بأقصى طاقته.

أضع قرص CD في الجهاز الجديد le Mandarin merveileux، لبيلا بارتوك، وأدخل الفاتورة المطوية ثماني طيات في جيب بنطالي المطرّز.

لقد كنتِ أحد الأولاد، تقول جدتي.

أقصّ شعري مثلهم، وألبس مثلهم، الكنزة البنيّة المزركشة الجاكار فوق التي شيرت، ولا أتذكر إذا ما كانت تُغسَل في الخريف، عندما أعود إلى المدينة، أو تُرمى. وفي الدكاكين، لدى عودتي، كانوا يزجرونني بصيغة المذكّر.

كان هناك دائماً مدعوون عند جدتي وجدي ومكان للجميع، مهما كان الضيق، حتى إنهما كانا يعيران غرفة نومهما عند الحاجة؛ فالناس لم يكونوا يذهبون للفندق، لأنّه مهيّأ للأجانب، وفي شهر آب، كنّا نجتمع، أبناء المزارع المتقاربة، حيث كنّا نشتغل ابتغاءً للحياة الصحيّة ونظراً لأصلنا الريفي؛ وكنّا نقضي الأسبوع الأخير في منزل جدتي الأزرق على الشاطئ، كنت هناك مع أبناء عمي، الذين لم يكونوا بالضرورة أبناء عمي بل قد يكونون أحفاداً لصديقات جدتي - فلا أحد كان يعرف بالفعل ما روابط الدم بين هؤلاء

وأولئك. وعلى كلٍ فقد كنت أناديهم بأبناء العم وينادونني ببنت العم؛ ولم يكن أغلب الضيوف بالطبع اقارب. وبقدر ما كان المنزل يمتلأ، كنا ننحشر أكثر فأكثر، وننتقل من غرفة إلى أخرى، أو إلى السقيفة حسب الحاجة، حاملين ألحفتنا التركيبية ملفوفة بين ذراعينا. ولم يكن الأطفال دون الخامسة عشرة ينامون تحت لحاف من الريش الحقيقي. وكانت تحصل أكثر الأحيان معارك نتماسك فيها إلى ساعة متأخرة من الليل. وكان المهم في النهاية أن نلتف متلاصقين جيداً تحت اللحاف حتى لا يدخل الهواء.

تعهدت يوماً أن أكون أول من يستيقظ صباحاً كي أسخّن الكاكاو وأدهن الخبز بالزبدة؛ وكان عليّ لهذا أن أنتصب وسط الأفرشة الكبيرة، وتلمس الأيدي الممدودة، واستخدامها للمحافظة على توازني على الألحفة المنتفخة، والخروج من دون أن أدوس على بطة ساق، أو السقوط على ركبة، أو - وهو الأسوأ - أهوي على جسم بكامله.

وفي لحظة وقوفي، ويداي في الهواء، أنتبه إلى أن مطاطة بنطال بيجامتي قد انقطعت ولا أرتدي شيئاً تحت البنطال لأن جدتي تقوم بغسل ملابسي. فأقبض على زمام البنطال أملاً في إنقاذ ماء وجهي وتسلسل أفكاري، باذلة جهدي في عدم إيقاظ أبناء عمي لألاحظ أنهما مستيقظان كلاهما، ينهضان كل من جانبه، من دون حراك، يتابعان الحادث بأعين الرجال الجديدة.

أسير بسرعة منخفضة، لا تتجاوز الأربعين كيلومتراً في الساعة هذا المساء؛ فالطريق صاعد ومتعرّج وهاهي كومة من الأنقاض أمامنا، انفصلت عن الجبل وانزلقت مباشرة إلى البحر. وتنزلق السيارة فأشعر بالخوف؛ ما من شك في أن انزلاقاً أرضياً غطّى الطريق بطبقة من الحصى والطين، وما من إنسان في الأفق، ولا وسيلة لتحويل المسار، وطفل

مستغرق في النوم على المقعد الخلفي وقطيطة مستيقظة على المقعد الأمامي. عندما كنت أُحَمّل السيارة يبدو لي أنني رأيت مجرفة في الصندوق الخلفي. فما عليّ إلا إزاحة بعض الحجارة الكبيرة وإبعاد كل هذا الطين جانباً حتى أتوصّل إلى التسلّل بالالتفاف حول الأنقاض على حافة الهاوية. وإذا مازلّت قدمي مع القطيطة، فسيكون لديّ ما يؤنسني حتى الأبد؛ لكن تذكّر المسافر الصغير على المقعد الخلفي تضنيني وتشلّ حركتي.

ومع أنني لا أتمتع بأية قوة خارقة، إلا أن رجلاً يظهر بغتة من الظلمة والضباب - ثالث رجل في طريقي إلى الشرق - خارجاً من أي مكان، مندفعاً إلى أنوار المصابيح كالخروف، فيما عدا أن السيارة واقفة هذه المرة. وكان حقيقياً إلى الحد الذي شعرت فيه أن من الطبيعي أن ينزع المجرفة من يدي ويجنبني عناء إزالة العوائق عن الطريق. فهل تتمكن قوة الخيال من تضليل امرأة إلى هذه الدرجة.

والصوت خفيض بالأحرى لرجل من هذا العالم.

- هل تذهبين نحو الشرق؟

من الواضح أنني ذاهبة إلى الشرق، فالطريق يتجه من الغرب إلى الشرق، مثل تابوت على بلاط كنيسة.

- هل تأخذينني معك لبعض الطريق؟ فأنا محصور هنا.

ما إن يصعد إلى السيارة حتى يخرج بطحة من الفضة يقدّمها لي أولاً كمراعاة للياقة قبل أن يشرب جرعة أولى. ويحكي لي أثناء الطريق قصصاً عن سكّان الريف؛ يتعلّق أكثرها بموضوعات خارقة للطبيعة، والأشباح، والملائكة الحارسة، والتطيّر، وحوادث الغرق، وفي هذه الأثناء، يهنئني على قيادتي ويقول إنه كان يحلم وهو طفل أن يصير شيئاً آخر غير ما هو عليه اليوم.

- هل أنت صياد سمك؟ سألته.

- أنا لا أتدرّب على إلقاء الصنارة في الشتاء ولا على صنع الطعوم، إذا كان هذا ما تعنين. فأنا أمقت الدم والأحشاء، لكنني أحسن مع ذلك تفريغ سمكة وحشو طائر. ومن المؤكّد أن أعيَّن بالأحرى على أجهزة الاتصال في الحرب، داخل مخبأ آمن بعيداً عن القيادة العامة. كلا، كنت أساعد فقط صديقاً يزرع حديقة في الأعلى، قريباً من السد. لمتعته الخاصة. كنا نغرس أشجار تفاح قزمة أثناء الليل.

وبينما هو جالس هنا، بجانبي، يبدو لي أننا مرتبطان بصلة القرابة، وأنني بصدد استعادته وكأن الجسم يتذكره.

وما إن تخطينا انزلاق التربة، حتى أخذت أصغي له باهتمام. فصوته شديد الإقناع.

- تعالي معي، وسأريك شيئاً.

أوقف السيارة، والصغير مستغرق في النوم على المقعد الخلفي وسينام حتى الصباح، وفي جزء من الطريق، تلعب مصابيح السيارة دور الأضواء الكاشفة في حقل الحمم. والرجل يرتدي حذاءً للمشي، ونعلاه يجعلان شظايا زرقاء من الحمم تصر وتبرق، فليس من الملائم إذن ارتداء حذاء بكعب عالٍ للحاق به. وأتبعه بصورة عمياء بين الحمم، من دون أن أغادر بعيني السيارة على حافة الطريق، إنه يرتدي قميصاً أحمر تحت معطفه.

صفا الطقس ويرتفع البخار من الثغرات هنا وهناك، وقمم من الحمم تبرز من الطحالب في كل مكان. والقمر كالكرة يتبعنا، واثباً من قمة إلى أخرى على حافة الفوهات، ينعكس نوره على أعقابنا، ممتداً على كثبان

الحمم ويكبر لدى كل تغيير في الاتجاه مثل بؤبؤ عين يستقر ضياؤه الأصفر على رقبتينا. وفجأة، يختفي وراء الغيوم ويُظلِم العالم من جديد.

- لا أستطيع البقاء طويلاً، سبع دقائق على الأكثر، إذ لا أستطيع ترك الطفل وحيداً وقتاً أطول.

- لقد وصلنا تقريباً.

ويبحث عن صخرة، يريح خلفها مثانته لأنه شرب كثيراً خلال الطريق.

نضع رجلاً أمام الأخرى، قاطعين خمسين متراً تقريباً. وما كنت أظن الليل بهذا السواد، وكأنني كنت أمشي على عارضة قاعة الرياضة القديمة حتى منتصفها لأقف متوازنة على يديَّ أمام أنظار الفتيات الأخريات الصامتات. فمقتضيات القلب التي يُنكرها العقل يمكن لها أن تدفع بامرأة بعيداً. فلم أعد أرى شيئاً ولا أحس إلا بالنفس الدافئ، وأتلمس أمامي لكن يديَّ لا تلقيان إلا الفراغ؛ وكأن ثمّة حائطاً سميكاً أمامنا، أزرق داكناً، لا يمكننا السير بمحاذاته لأنه لا يحدد شيئاً، ولا يقدّم أية حماية؛ وما من وسيلة نعرف بها شكل العالم أو حدوده، ولا رائحة للحمم الشائكة. ومع ذلك، أعرف أن هناك شيئاً عظيماً أمامنا، ولكن ما هو؟

- ماذا تريد أن تريني؟

- هذا.

- هذا، أي شيء؟

- الظلام.

- الظلام؟

- أجل، ألست من أبناء المدينة؟

أحس بوجود بناء هائل ضمن الظلام. ما هو بالضبط؟ كأنه كاتدرائية غوطية بارتفاع سماوي تنتصب فجأة في حي قديم لبنات الهوى في الخارج، عند مخرج أزقة ضيقة في زوايا معتمة وكريهة الرائحة. أنا على حافة المخيلة، على حافة الخوف من الظلمة والفعل الوحيد الممكن هو البحث على غير هدى عن كائن بشري آخر. وبغتة أجد من الطبيعي تماماً أن يأخذني بين ذراعيه وأضع رأسي على كتفه.

وبدأ في تجريدي من ملابسي وسط الضباب؛ بسرعة ولكن بإتقان، فالسحّابات وفتحة الرأس الضيقة لا تشكّل عقبة، ويبطئ في نزع السروال الذي يتلوّى بين أصابعه. أشعر بالبرد لكنه يضع تحتي المعطف ويلفّني به. ويمكن لرمل الحمم أن يكوِّن سريراً غريباً، ومع ذلك فقد شكّل الرجل على طريقته ملاذاً آمناً حولي. السماء فوقنا والأرض من تحتنا، صورة للعالم، اثنان يكونان كلاً، فهل يمكن التماس أمن أكثر من هذا؟

ونظل بعد هذا جالسين هنيهة وسط حقل الحمم، ويضع رأسه على كتفي فأقبله كطفل على وشك النوم. وعندما ينهض يناولني حجراً صغيراً في وسطه بروز من صخر فاتح على شكل حدوة حصان.

- سيكون في المرة القادمة حزام جنية أو ملعقة فضية، يقول مبتسماً.

وما إن عدنا أدراجنا، حتى يضيف:

- سأتدبّر أمري للذهاب من هنا لكنني سآتي لرؤيتك فيما بعد. فلقاؤك أفضل ما حدث لي هذا اليوم.

42

كثير من الأحداث الهامة قد تحصل لامرأة في أقل من يوم. وغالبية الأخطاء تحصل في لحظة، خلال ثوانٍ، كمنعطف خطير، ورِجل على المُسرِّع عوضاً عن الكابح، أو العكس. فالأخطاء نادراً ما تكون نتيجة لسلسلة قرارات منطقية؛ إذ قد تحب امرأة أن تكون على أقصى الحافة، من دون أن تفكّر في هذا دقيقة واحدة.

لم تعد الصحراء السوداء أمامنا بل وراءنا، والشاليه الصيفي في متناول اليد، بالضبط بعد خليج صغير وأرض جدباء. وفجأة، وبينما أجتاز غيمة واطئة ثانية تهبط حتى الحمم المحترقة، تخطر لي فكرة إنني موجودة على مسافة واحدة منذ البداية وحتى النهاية ولا أستطيع في هذه اللحظة تصوّر ما إذا كان عليّ قياس هذه المسافة بالسنوات أو بالكيلومترات، فأمامي على كل حال مُتَّسَع من المكان وما يكفي من الزمان، ما يكفي من الزمان الماضي أيضاً. وبعدم اتباع سير العقربين على ساعة الطلاق، وبالدوران حول الجزيرة في الاتجاه المعاكس لعقارب الساعة، لا أكسب فقط وقتاً، بل آخذ نفسي دائماً على حين غرة، وأنتهي حتى إلى استرجاع نفسي.

بإيجاز مغامراتي منذ بداية السفر، أستطيع القول إنني تسببت في موت أربعة حيوانات - خمسة إذا شملت إوزّة المدينة -، كما أنني عبرت من دون عائق أربعين جسراً وحيد الاتجاه، وثمانية انهيارات صعبة وكانت لي علاقات حميمة مع ثلاثة رجال على المرحلة الأولى من طريق يتجاوز الثلاثمئة كيلومتر بقليل، غير مسفلت في أكثره، شُقَّ حرفياً بين الجبل

والشاطئ، وحتى لو كانت المئة كيلومتر الأولى من دون مشكلات بهذا الشأن وحتى لو لم أكن أتوقع مفاجآت أخرى خلال المئة الأخيرة، فإن هذا يمثّل في المجموع، نشاطاً بمثل الشدّة التي أستطيع الافتخار بها خلال العشرية الماضية. ترى هل يدل هذا على قوتي الأخلاقية: وأنا لا أستطيع تذكّر عدد الكنائس التي مررت بها في طريقي. والدمية المثبتة على لوحة القيادة غير محسوبة، لأنني كنت سأشتريها حتى لو مثَّلت مخفراً للشرطة أو مصرفاً.

وإذا ما نظرت إلى حياتي من وجهة نظر إحصائية، فإن هذا يعني إلى الآن رجلاً كل مئة وستين كيلومتراً، وهو يستحق الذكر في بلاد يتقاسم فيها كل ساكن كيلومتراً مربعاً مع جاره. ومع بعض المثابرة، سأحصي سبعة عشر رجلاً فاصلة سبعة، في الألف والأربعمئة والعشرين كيلومتراً التي تكوِّن الطريق الدائري، قبل نهاية السفر. وهذا يعادل بالكيلومترات المربعة مساحة واسعة من حقول الحمم لكل شخص، وأراضٍ فسيحة خاوية إلا من السدود، والتعرية، وعدداً لا يحصى من الجسور، ومن طيور البحر الصخابة، والعديد من أكشاك البطاطا المقلية عند الاقتراب من الشاطئ.

ثم، أقول في نفسي الشيء التالي، إذا ما كنت أنتظر طفلاً، فسيكون هناك حتى الآن ثلاثة آباء ظنيون، وسبعة عشر فاصلة سبعة، بالنظر إلى السفر في مجموعة. وهو أعلى بقليل من المعدّل الوطني، بناء على عدد عشاق امرأة طوال حياتها الغرامية. لكن يمكن دائماً التأسّي بالواقع الثابت وراثياً أنه لن يكون هناك في النهاية إلا أب واحد. وأنا متأكدة من أنني في العديد من البلدان في هذا العالم، كنت سأُعدم أكثر من مرة لشيء أقل من هذا.

لكنني عندما أنظر في مرآة السيارة، هذا ما أرى: امـرأة شـابة ذات شـعر كـستنائي قصير تنزل خصلة منه على الجبهة، وعينـين خـضراوين، ليـست قـذرة البتـة، مـن دون ماكياج يسيل على الوجنتين، امرأة يصفها شخص أتى من مكان آخر بأنهـا نقيـة، بريئـة وعفيفة. إنني أراها تنظر إلى العالم بتصميم عبر الخصلة التي تبعـدها فـيما بعـد عـن وجهها، متخيلة أن لها القدرة على التحكّم بالظروف، وأن لديها الحدس بما يجب عليها أن تفعل وأنها تتبع سواء السبيل، وكأنها تعرف على وجه التقريب من تكون.

أما الآن فهي تشعل الضوء الغمّاز قبل الدخول إلى فناء محطة للوقود، إنها تبحث هنيهة في الواجهة المبرّدة للدكان وتختـار مرطبانـاً صـغيراً مـن الجـبن الأبـيض وشـطيرة باللحم المُدَخّن مع سلطة الفاصولياء عـلى الطريقـة الإيطاليـة وتـضعها عـلى المنـضدة بالقرب من الصندوق، والطفل لا يزال مستغرقاً في النوم.

43

إن الأرض الجرداء وعرة في هذه الفترة من السنة بسبب الثلج، ولكن لم يعد أي شيء كما في الماضي.

لدى وصولي، أتحقّق من أن الكوخ قد وصل إلى غايته، وأتعرّف كل شيء، مع أنني لم أطأ المكان هنا منذ سبعة عشر عاماً، والقرية عبارة عن تجمع لمنازل شديدة النظافة، من دون مركز ولا ساحة، شوارعها متوازية ومتدرجة، تتشابه كلها، أربعة أو خمسة شوارع فقط، حتى نهاية الشريط الساحلي، مذكّرة بالأثلام التي تتركها مذراة على حقل بطاطا بعد تقليبه. وفي الثلم الأسفل، قريباً من الشاطئ، تظهر السقوف الملوّنة لأقدم المنازل، والمغطّاة بالصفيح المتموّج، كما تظهر البقالية والتعاونية وصندوق التوفير؛ وفوقها، شارعان من المنازل الفردية ذات الطابق الواحد، وفوق ذلك، ركام من الحصى البني، وبعض نباتات الخلنج في الصيف، وفوق كل هذا أيضاً حوض للماء على الأرض القاحلة. وقد ابتنى أغلب السكان حائطاً صغيراً حول مساكنهم حماية من رشاش الموج والملح على النوافذ، وقريباً من البحر، ما من شجيرة تنمو وما من نبات، خارج المنازل على كل حال. أما في داخلها، فلا يظهر المحيط الأسود من النوافذ، وراء الغابة العذراء من النباتات الخضراء. ويُلاحَظ في هذه الفترة من السنة على كل نافذة نبتة ذات زهور حمراء - تسمّى نجمة نويل - وشمعدان ذو سبعة أفرع.

أرى المنزل من الشاليه. لقد بني في سنوات الأربعينيات، وربما من قبل. أرى كل شيء من جديد، في الداخل التأم جماعة من الناس، وكأن ستاراً

من الحرير الأبيض يغطّي كل شيء، أو كأنّ هالة تعطي لما نراه حدوداً عذبة وباهتة، كالصفحات المهترئة لكتاب مقدّس قديم أو لصورة فوتوغرافية تعرّضت للضوء أكثر من اللازم، يبدو لي أنني أرتدي كنزة صوفية بيضاء، كما يرتدي أبناء عمّي ملابس بيضاء، بذلات سموكينغ، مع الغرابة التي قد يبدو عليها هذا الأمر وبعده عن الواقع واقترابه من الذكرى، وجدّتي بملابس فاتحة، فهي في الواقع نور الشمس. هناك جمع من الناس حول مأدبة الدفن وكلهم بملابس بيضاء، ملابس بيضاء متنوّعة؛ فهذا القماش أخف من الآخر، وبعضه أكثر رقة، وبعضه الآخر أكثر سماكة، من صوف وقطن وبوبلين وكتّان وتويد وبولستر وكريب - لكن بيضاء، كلّها بيضاء.

لا أرى إلا حدوداً مبهمة تتحرّك ببطء، وجدّتي أكثر إبهاماً، إذ تختفي من أمام عينيَّ.

لقد وضعوا الشاليه عند مخرج القرية تماماً، حسب رغبتي، على قطعة عارية على حافة الوادي؛ إذ ينتصب هنا وحيداً، خارج المخطّط العمراني. وقد يرى الناس من دون شك أنه ليس المكان المناسب للذكريات والعطلات الكبرى المشمسة. وأنا نفسي لن أصعد إليه حتماً على قدميَّ، وبالكعب العالي، بعد حفلة نويل الراقصة. لكنه أفضل من السكن في الأسفل على الشاطئ، حيث الكثير من الزوّار والتعرّض لخطر أن يَقرَع الباب، نهاراً أو ليلاً، أحد المجهولين المختفين في البحر تاركاً وراءه بركة من الماء في المدخل. إن الكوخ في غربي القرية، وحيداً، على الحافة الأخرى من الوادي، وتظهر على بابه كلمة Seeuritas وسأكتشف عمّا قريب أنه مُدَفّأ ما قبل عيد الميلاد.

تبدو القرية كأنها مهجورة في المساء، إلا من صياح طيور البحر؛ حيث يـرين عليهـا صمت الصحراء، كما في الساعات القائظة في بلدان الجنوب. ومـا مـن صـوت خطـوات ورائي، مع إنني أعلم أنني لست وحيدة، لأن عيوناً يقظـة تتـابعني، هنـا وهنـاك، مـن وراء الشمعدانات ذوات الأفرع السبعة في النوافذ المحفوفـة بـالملح، ولا ينبغـي للمـرء التوهّم، حتى لو لم يكن أي إنـسان في الـشوارع، فالحيـاة هنـا تجـري في البيـوت، وراء أبواب مقفلة، ويستقبله الناس من دون فخفخة، كما هم، بملابـس البيـت الفـضفاضة والناعمة.

نحن في اليـوم الخـامس والعـشرين مـن تـشرين الثـاني وحيـنما نـصل مـن الأرض الجرداء، في الظلام وتحت المطر، كانت القرية تتألّق كتحفـة سـماوية مزيّنـة بالأحجـار الكريمة وسط الرمال؛ حتى يمكن الظنّ أن القرية ترى نفسها من الفضاء. وتبرق حبـال زينة نويل المتعددة الألوان في النوافذ وعلى الشرفات، وفي مداخل البيوت، والمـراسي في الحدائق مغطّاة بحبال زينة نويل المضاءة.

يستيقظ الصغير عندما أطفئ المحرّك.

- نحن نضيء ليل الشتاء، يقول صـاحب الـدكّان الـذي أبتـاع منـه الحليـب والخبز والشموع قبل الإغلاق بالضبط، وغالبيّة الناس يضيفون حبلاً لكـل عـام، وهكذا من عدد الحبال يمكن رؤية منذ متى يـسكنون هنـا. مثـل قـرون الرنـة التي تدلّ على سنّها.

أسأله عمّا إذا كان لديه حبل زينة يعمل بالبطارية.

- كلا للأسف، ولكنك ستجدين منه في التعاونية غداً.

ويحرص على معرفة إذا ما كنت أنا صاحبه الشاليه الصيفي بالفعل.

- وهل تنوين قضاء نويل هنا، من دون كهرباء، وحدك مع الطفل؟ لقد سمعنا أنك تركت منشأة مفلسة وزوجاً يتخبّط في المشكلات، وما يشبه ذلك. وقد يكون الوضع معتماً وكئيباً فوق في الشاليه، على حافة الوادي. لقد كنّا ننتظرك منذ ثلاثة أيام.

أبيّن له أننا استفدنا من الوقت لزيارة البلاد، وأننا في عطلة، وأضيف:

- جدتي وجدّي كانا يسكنان هنا من قبل.

لكنه لم يعرفهما.

- هناك منازل للبيع في القرية، ولم تكوني بحاجة إلى الإتيان بالشاليه معك، فقد كان بإمكاني أن أعثر لك على أربعة على الأقل، وحتى على منزل فردي مع حمّام بُلِّط حديثاً.

- كنت أرغب في البقاء خارجاً، إذ لا أنوي الإقامة هنا.

يشير الصغير بأصبعه إلى إعلان مكتوب باليد، وهو عرض لبيع لُعَب خشبية في منزل المتقاعدين. موضح برسم ساذج لشاحنة زرقاء بعجلات من الكاوتشوك. فأسأل عن المكان الذي أستطيع الحصول فيه على اللعب.

ويعتمد الرجل بمرفقيه على المنضدة.

- لا تجري ربما أشياء كثيرة هنا بالنسبة لمن يأتي من الخارج، ولكن لا يمكن القول أن لا شيء يجري البتّة. صحيح أن الطبيعة رائعة، لكن الناس يُطلّقون ويخون بعضهم بعضاً ويبددون حياتهم هنا كما في أي مكان آخر. وتحصل، من وقت لآخر، مآسٍ عائلية لا تفسَّر تماماً. على سبيل المثال هذان الشقيقان اللذان كانا يسكنان وحيدين معاً، وقد حُكِم على الذي بقي منهما

مع وقف التنفيذ لأن ظروف وملابسات القضية لم تكن واضحة؛ فالمسألة في تقرير الشرطة تتصل بقتل خطأ، مع أن الجيران يصفون مشهد المأساة بالفظاعة، إذ كانت سبع طلقات أطلقت، والشقيق الباقي هو الذي يصنع اللُّعب الخشبية التي تباع في منزل المتقاعدين، في مصلحة أمراض الشيخوخة كما تسمّى؛ فهناك بعض الأماكن المخصّصة للمسنّين، وهو يسكن هناك، وتستطيعين شراء الشاحنة منه.

وعندما أضع قبّوعتي للخروج تحت المطر، يصحبني الرجل حتى الباب، وألمحه في المرآة العاكسة في الفناء إلى جانب مضخة البنزين، وهو يتابع الجيب بعينيه أثناء صعودها إلى الشاليه ويبدو لي أنه يتكلّم في جوّاله.

أحمل الصغير بين ذراعيَّ إلى البيت الريفي، ثم ننزل إلى الوادي لتنظيف أسناننا، ويلتصق أحدنا بالآخر في الظلام، على ضفة المياه الباردة، وفمنا مملوء بالرغوة التي نبصقها لتأمّل الخيط الأبيض وهو يبتعد مع التيّار.

44

إن مشترياتنا كثيرة، إذ نحتاج إلى لحافين وأثاث للمنزل؛ فينتقي الصغير الأغطية، غابة عذراء خضراء مع حيوانات متوحشة له وأرضية من الزهور البنفسجيّة اللون لي، بحيث ينفتح حقل من البنفسج الليلي بين ذراعيَّ في الصبح، وينداح على بطني ونهديَّ عندما أترك المخدّة للتساؤل كيف أبدأ يومي: هل بالذهاب إلى حوض السباحة أم إلى مكتبة المدرسة.

ونشتري أيضاً لباساً واقياً من الماء جديداً للتزلّج، وجوارب صوفيّة وبنطالين للصغير، ودميتي باربي وكِن من قاطرتهما، وطعاماً للقطة ولعبة من الكاوتشوك زهرية اللون للقطيطة، وكرة قدم، ومجموعة صور للتلوين وأقلام ملونة، وألغوزة صور تركيبية، ومجموعات للكلمات المتقاطعة، وبعض المجلات الأجنبية، وبعض المناشف وسروالاً للسباحة، إضافة إلى حبل زينة نويل أحمر اللون لوضعه على الشرفة. وأجعله يجرّب حذاء للمشي أزرق برباط يُسمح له بالمشي به في المحل. وهو غير موجود إلا بقياس ست وعشرين فيستعمله طويلاً إذن.

وفي زاوية الألعاب، ألقي له بالكرة بلطف، مستهدفة ذراعيه، فيتهيّأ لتلقّيها، ومرفقاه مضمومان إلى بطنه وساعداه ممدودتان إلى الأمام. وأقدّر المسافة والقوة التي عليّ استخدامها حتى يتمكّن من التقاطها. وأرسل عندئذ الكرة التي ترسم قوساً صغيراً، لكنه يخطئ الكرة التي تتدحرج إلى رف الملابس الداخلية والجوارب، سأتقن الرمية في المرّة القادمة، وسأجثو على ركبتيَّ. فأنا قادرة على تدبّر أمري للعب مع طفل، أما هو فلا يزال غير قادر على اللعب مع بالغ.

أسأل عمّا إذا كانت لديهم درّاجة مع عجلتين جانبيتين: إذ يمكن لدرّاجة حمراء أن تكون بقيت في المخزن منذ الصيف.

- إنه الشتاء في القرية، يشرح البائع وكأنه يتحدّث إلى أبله.

أستغلّ الفرصة وأوصي على ثلاث مدافئ للكوخ.

ويبدي الصغير اهتماماً جلياً بلباس بابا نويل المعلّق في ركن الملابس؛ فيطرح عليّ أسئلة لا أدري كيف أجيب عنها، واللباس من القياس الملائم تقريباً ونضيفه إلى السلّة.

- تستطيع أن تكون مساعداً لبابا نويل، أقول، وأنا غير متأكدة من أنه فهم.

وبما أن كتب البابا نويل وصلت، أكدسها في العربة: أشتريها كلها تقريباً، فيما عدا كتب الرعب، وسير رجال السياسة، ومؤلّفات التنمية الشخصية والدراسات حول تاريخ الحصان الإيسلندي، وأضع على الكدسة رواية تجري أحداثها تحت المطر، غلاف الكتاب جميل لكنني لا أعرف المؤلّف، ولا يعرفه مدير المحل أيضاً بالطبع؛ فلم يطلب منه إلا نسختين موضوعتين على المنضدة بين الكتب الرائجة المُنتظرة. أشتري أيضاً كتاباً حول ثوران بركان لاكي في القرن الثامن عشر، إضافة إلى مجموعة كتب للأطفال سهلة القراءة وبعض الدفاتر حتى يكتب عليها الكلمات التي كان يكتبها على بخار النافذة.

وبمساعدة مدير المحل، أعثر على كتاب حول تربية الأولاد، ويكفيني تصفّحه بسرعة، والمرور على العناوين الثانوية والرسوم التوضيحية وصفحة الغلاف الأخيرة حتى أفهم أن ما ينقص الصغير، هو نموذج يحتذي به من الجنس القوي، إذ سأتمكّن من تعليمه كيف يلتقط كرة

ويمتطي درّاجته، ويصنع الكريب، وكيف يعقد رباط حذائه، وسأتمكّن من تعليمه القراءة إذا لم يكن تعلّمها من قبل، والعد حتى الخمسة باللغة الهنغارية، لكنني لن أستطيع إفهامه قيمة الكلمات في فم رجل، ولا كيف يكون قوياً عند الخوف، ولا تعليمه كيف يقاتل جيشاً عدوّاً.

نحن قريبون من ملء عربتين؛ فيدفع واحدة أمامه، وأنا أدفع الأخرى. إنه يتكفّل بمسؤولية البيت مبدياً اهتماماً شديداً بي، مشيراً بأصبعه إلى هذه السلعة أو تلك مما ينقصنا، من زبيب، وأرز ومعكرونة، وجبن أبيض، وبيض، وسمك الرنكة المملّح، زيتون، وسمك السلمون المدخّن، وزيت كبد المورة، فذوقه متنوّع بالنسبة لطفل في الرابعة. ويجمع الفيتامينات الموضوعة في زجاجات صغيرة ويساعدني في العثور على الخضار اللازمة لسَليقة الخروف وهناك أربعة أنواع منها: الملفوف والجزر واللفت والبطاطا، واللفت أغلى بألف مرة منه في خاركوف. وهاهو يأتي بزجاجة عطر كهدية يضعها في العربة. أتركه يفعل ما يشاء وأتخذ مكاني في طابور الجزارة.

ويبطئ الناس في وتيرة تسوّقهم للنظر إليّ، وإلى الصغير، ثم إلينا نحن الاثنين معاً. فيوجّه تومي إليّ نظرة قلقة؛ يريد أن يقول فيها إنه ليس عليّ أن أحدّق في الناس بالمقابل، ولا الاكتراث. وقد سألني ثلاثة منهم عمّا إذا كنت سيّدة الشاليه، والعديد منهم ودودون، يشيرون لأطفالهم بتقاسم الملبّس مع الصغير، فينحنون فوق أكياس السيللوفان الخضراء وينتقون بأسف شيئاً أقوى من اللازم أو أكثر حموضة من اللازم، حتى يقدّموه له رسمياً بأصابعهم الدبقة.

عندما يحين دوري، يتدحرج شيء ما على الأرض فيتحوّل اهتمام الحضور منا ليشكلوا نصف دائرة حول ما يلمع، إنه زرّ بنّي.

ويحاول البائع مناولة قطعة الحشوة التي وزنها إلى زبونة من فوق المنضدة، لكنها مشغولة بشيء آخر. فمن أضاع زرّاً؟ ويبدو على الوجوه اهتمام بقلق. ويتفحّص الجميع بعضهم بعضاً، ثمّ يتفحّصونني، إذ لا يرتدي أحد ملابس بأزرار، بل ملابس واسعة ومريحة بمطّاط حول الخصر والكعبين. والكثيرون تربط بينهم صلة القرابة في القرية، ومع ذلك فليس من اللائق أن يُظهر المرء الألفة أكثر من اللازم لجاره في التعاونية، وما من حاجة هنا على الأقل إلى معانقة صديق الطفولة أو ابن العم كلما تلتقيهما.

ويجعل عامل الجزار من نفسه الناطق باسم الآخرين فيسألني عمّا إذا كنت سيدة الشاليه الصيفي.

- إنه يتكلّم بصراحة، توشوش امرأة، وينتمي إلى فرقة مسرح الهواة، وقد مثّل كل أعمال يوهان سيغور جونسون، لكن دوره الأكثر شهرة كان شخصية ليني في **فئران ورجال**. ومنذئذ، انقلبت زبوناته رأساً على عقب ويحلمن بأن يلمس شعورهن برفق ويجسهنّ من كل مكان.

يسألني عامل الجزار عمّا إذا كنت أنوي فعلاً الإقامة مع الطفل في الظروف الصعبة لشاليه غير مزوّد حتى بالكهرباء، أثناء أعياد الميلاد.

- بالمناسبة، يردف قائلاً: ما نوع الشركة التي أفلست؟ استيراد وتصدير؟

وتخطر لي فكرة تذكيره بأن أشهر الطهاة في العالم يحضّرون وجبة نويل على الغاز، لكن يخيّل لي، للحظة، رؤية مرور رجل الانهيار أمامي، وبينما نتحدّث يتوقّف الزبائن عن تفقّد الرفوف للاستماع إلى الحديث والمشاركة

فيه شيئاً فشيئاً. فيخبروننني بأن الناس يذهبون في العادة إلى أماكن أخرى من أجل مشتريات بهذه الضخامة؛ لأن ما من شخص يشتري مخدّات وثياباً، ودراجة لطفله من تعاونية قريته.

غداً، تقول إحدى النساء، سيجتمع بعض الأمهات في مقر الأبرشيّة لصنع دمى من خبز الأبازير مع الأطفال، وسيكون ابنك مُرحَّباً به، وعلى كل طفل أن يأتي بعجينته.

- وعلى كل فستبقين محصورة هنا حتى ينخفض منسوب مياه الأنهار، يختم الممثل وهو يناولني لحم السليقة.

قائمة المشتريات طويلة، وقطع النقود المذهبة بعدد كافٍ، أضع على بساط الصندوق الدوّار، القرنفل والخميرة، والشراب والزنجبيل. فمن غير الممكن التملّص من واجباتي كأم.

- هكذا، سنتمكّن من عمل عجينة خبز الأبازير هذه الليلة، أقول لعامل الصندوق، وقد يكون في السابعة عشرة من عمره، مع الكثير من الجِل في شعره ذي الخصلات الطويلة على الصدغين والفرق المعمول بإتقان، ويبدو لي أن عدداً من شباب القرية لهم التسريحة ذاتها.

- يقضي النساء لياليهن في اللهو كما يستطعن.

وبالنسبة لشاب بهذه السن، يمكن القول إن الجرأة لا تنقصه. أعدّ الأوراق المالية من فئة الألف وأخطف رجلي إلى صندوق السيارة الداخلي لجلب المزيد منها. وأتذكّر عندئذ أنني نسيت بوط الطفل القديم في ركن الأحذية فأعود لأخذه. ولدى عودتي لا أجد الصغير.

- لقد خرج لملاقاة أبيه، يبلغني المراهق المكلّف بالصندوق.

وفي الخارج يقف في الساحة رجل هيئته مألوفة لي، وكيس كبير في يده، إنه صديق الانهيار، وتعكس أنوار نويل ألوانها في البِرك. يلتصق الصغير به، متمسكاً بملابسه الجد غالية وأسمعه يقول مرة أخرى «بابا» بصوت أجش. ولا ينبس الرجل ببنت شفة، كأنه كان ينتظر بالفعل ابنه الصغير وزوجته التي تخرج راكضة نحو الطفل. أراه يداعب رأس الصغير، ويبعده عنه قليلاً ويقرفص لكي يتكلّم معه بلغة الإشارات. فينتفض الصغير لأنه معتاد على أناس يجهلون لغة الصم والبكم. وفجأة، لديه ما يقوله باليدين والوجه والجسم كله، وما كنت لأتصوّر أن تجد مثل هذه الصور مكاناً في جسم بهذا الصغر والشحوب.

- طاب يومك، كيف حالك، هل ظننت أنني عفريت؟

- أجل، فقد خطرت الفكرة ببالي.

- سأكون مستعداً لعيش حكايات أخرى معك.

وفي اللحظة نفسها يظهر البائع مع دراجة الطفل، مستعداً لحملها إلى السيارة. وقد ثبّت فيها العجلتين الجانبيتين، ونظلّ أنا ورجل الانهيار صامتين جنباً إلى جنب ننظر إلى الصغير وهو يصعد إلى المقعد ويأخذ في الضغط على الدوّاسة على الساحة بين البِرك في شفق الظهيرة، كأبوين فخورين وقلقين قليلاً لترك يد ابنهما في العالم الواسع.

ما إن وُضعت مشترياتنا في الجيب، وبينما أستعد للانطلاق، حتى يقول:

- إذا شئت، يمكنني تعليمك لغة الإشارات، وإعطاءك دروساً خصوصية؛ فشقيقتي صمّاء. ويمكنه في غضون ذلك اللعب مع كلبتي، وهي لطيفة جداً مع الأطفال، ومتسامحة. وسيكون لها صغار في القريب

العاجل وهو ما يجعلها حسّاسة قليلاً، ولا رغبة لديها في الصخب هذه الفترة.

وفتح كيسه قليلاً، بابتسامة ساخرة، ليريني ما فيه. ما من شك: أحمر، أبيض، أسود، معطف، لحية، حزام، وزينة من الفرو، وطقم آخر.

- لقد أتيت به لتوّي من المصبغة. إذ سيبدأ الموسم، وهي ثاني مرة أُستخدم كبابا نويل، بالتأكيد لأنني لست من القرية. فالأطفال الذين يواجهون آباءهم المتنكّرين يصبحون مرتابين ويموتون خجلاً من رؤيتهم يقومون بدور المهرّج على الملأ. وهناك ما يكفي من المشكلات في البيوت. أما بالنسبة لي، فهي تسلية مثل غيرها تخرجني من الرتابة. وسيكون آخر نويل لي هنا، لأن من المفترض أن أكون أحدثت التغيير اللازم في حياتي.

ويمر بيده على شعره المشعث ناظراً صوب الأرض القاحلة، وكأنما للاهتداء إلى الطريق الذي سيأخذه بعيداً.

ويقول وهو يودّعني، إنه سيقوم بزيارة لنا في الشاليه إحدى الأمسيات، عندما يكون الصغير في سريره، مستعداً للالتحاق ببلاد الأحلام.

- سأعلن عن قدومي من النافذة وسأغنّي لحناً قصيراً أو أحكي قصة. فما أمتاز به عن بقيّة زملائي، هو عزفي على الأكورديون، وسأستطيع على الأقل وضع هدية صغيرة في حذائه.

45

ثمّة غرفتان للنوم في الشاليه وننام في إحداهما مع مدفأتين على الغاز. ويبدي الصغير شعوراً بالمسؤولية: إذ نتعاون معاً لترتيب الشاليه الصيفي المركّب حديثاً الذي يفوح برائحة الغابة النرويجية، ويسيل الماء من الحنفية عندما نفتحها. ونشرف على الطريق الوطني 1.

نلهو على الشرفة، ضمن موجة الحر البالغة عشر درجات، ويشكّل السقف المائل ظلّة تقينا من المطر.

يرسم بمهارة، على دراجته، خطّاً منحنياً، وقد أدرك كيف يقوم بمنعطفات حادة على العجلات الصغيرة، وكلّما مرّ أمام الأريكة التي أستلقي عليها متدثّرة جيداً بالأغطية وأنا أقرأ صفحة عن تصريف الأفعال بلغة الإشارات، يقرع جرس الدراجة منصتاً إلى صوته. فأشير له بيدي. ويقول إنه سيعلّمني الكلام ويدرّبني، لكنه محتاج هذه الآونة إلى يديه من أجل شيء آخر.

وأرتشف الشاي الساخن.

من المهم توجيه الفعل إلى الشخص المناسب، وهذا ما يبدو لي منطقياً.

إنه يهزّ رأسه كأنه يفهم، وكأنني أحرز تقدّماً؛ فهو معلّم جيد. لكن لا وقت لديه الآن للتحدّث معي، إذ لا يمكن الاستمرار في الحديث كلّ الوقت، لأن عليه استعمال يديه في شيء آخر، وقد أخذ يرسم.

أقترح أن نذهب في رحلة وأملأ التيرموس بالكاكاو الساخن، ونأخذ معنا فنجاناً إضافياً.

إن القاتل الذي قتل شقيقه يشيخ ويعتريه الضعف بسرعة حيث هـو الآن، في دار المسنين. ويقطّع خشيبات يصنع منها ألعاباً للأطفال كي يسرّي عن نفسه؛ والوقت الذي بقي له قبل أن يلقى أخاه ثانية يتناقص يوماً بعد يوم. وقد اصطحبونا إلى الممر الـذي يفضي إلى غرفته التي تشرف على السهل، تفوح منها رائحـة غريبـة، خلـيط مـن مـواد التنظيف قويّة جـداً وأمتعـة شخـصية باليـة سُـحبت مـن بيئتهـا الأصـلية: صـوان ملابس، كرسي، ساعة مطبخ حائطيـة، صـور عائليـة قديمـة ضـمن إطـارات فـضية. وصورة كبيرة للشقيق المتوفى معلّقة فوق السرير، فيستقبلنا الرجـل العجـوز وهـو بالبابوج.

طاولة الغرفة مغطّاة بشخوص نحتت من الخشب بأعين مـن رؤوس المـسامير، طويلة نحيلة ولكن من دون آذان. وقد مَسمر الأعين - يخرج المـسمار أحيانـاً مـن الرقبة - ويرسم ملابس على الجسم المنحوت ويطليهـا بـالأحمر والأزرق والأخـضر. وعلى طاولة السرير تتعانق يدان من الخزف لتشكّلا ما يشبه شعلة شمعة. وفـيما بعد، ستسنح لي الفرصة لرؤية العديد من هـذه المـصابيح في القريـة. أفـتح غطـاء الترمـوس وأصـبّ الكاكـاو للـرجلين. إنهـما جالـسان جنبـاً إلى جنـب عـلى الـسرير؛ وثمانون عاماً تفصل بينهما.

- أتذكّر جيداً جدتك، لقد كانت شديدة اللطف وخجولة، وكنت أنـا وأخـي نعرِّج عليها في بيتهـا فنحتـسي قهـوة مـع قطعـة سـكر واحـدة ونأكـل الجـاتو بالمربّى.

يرتشف جرعة من الشوكولاته بحذر ويصمت طويلاً.

- كانـت متّزنـة الفكـر جـداً، جـدتك، وتـستقبلنا بحـرارة، ولم تكـن تحكـم على أحد قط. لقد كان حادثاً، مع شقيقي داغفينـور، وقـد كانـت امـرأة طيبـة

جداً، التي أخذت الطفل. فانزعجت جدتك قليلاً، لأن الأمر حصل بينما كانت الصبيّة في بيتها.

يرتشف جرعة ويصمت من جديد، فليس لديه ما يضيفه.

أقول له إنني أتيت لرؤية اللُّعب، وليس لديه الكثير منها الآن، لكنه يسحب مع ذلك شاحنة بمقصورة حمراء وعجلات من الكاوتشوك من تحت السرير - إلى جانب النونية.

- ليس من المفروض وجود هذا النوع من المرحاض هنا، يقول.

لكنه يحتاج إلى التبوّل خمس مرّات في الليلة، وبعض جيرانه يتوفّرون مع ذلك على مغسلة في غرفهم كي يبولوا فيها. فحتى الشؤون الخاصة الصغيرة لكل فرد أصبحت من الصالح العام.

يربط بيديه المرتجفتين قطعة خيط بالشاحنة ذات العجلات الكاوتشوكية حتى يتمكن الصغير من جرّها وراءه في الممر المغطّى بالشمع.

46

الليلة مظلمة كالكحل وأستيقظ على صوت ضعيف جداً، رقيق جداً، معلّق في الهواء كشريط نحاسي مُذَهّب. أنهض لتحديد مكان الصوت. ما من شك في أن الصغير يغنّي أثناء نومه، بصوت مختلف عن صوته في الحياة اليومية. واللحاف ساقط على الأرضية، وفي اللحظة التي أمدّه عليه، ينقطع الصوت. وهو الآن جالس، مستيقظ.

- أنا أعمى.

ويبحث متردداً عن نظّارته السميكة. وأشعل الضوء من جانبي كي يراني أكلّمه.

- إنه الليل، أقول، وهو مظلم. ولا أرى شيئاً، أنا أيضاً. أترغب في أن أحكي لك حكاية؟ ماذا لو اخترعنا واحدة معاً؟

وأحاول تأليف قصة له، فأتكلّم ببطء ووضوح مع استخدامي للإشارات التي تعلّمتها. ويقول، كلا، ليس هكذا. وفي كلّ مرة أحاول استئناف الحكاية، يحتج، إذ يريد أن تكون القصة بشكل آخر.

في النهاية، يخفي رأسه تحت المخدّة، ولا يريد قصة، بل يريد أن أتركه، فأرفع المخدّة.

- ألا تودّ أن تعرف عمّ تحكي القصة؟

- كلا.

- ولكن غداً؟

- ربما، يقول على مضض.

- هل تريد النوم في سريري؟ أتريد أن تكون معي في السرير؟

ولم يكن الطفل ينتظر إلا هذا الإذن؛ فينهض سريعاً تاركاً قدميه تنزلقان إلى الأرض. يحمل مخدّته ويضعها إلى جانب مخدّتي، ثم يأتي بالحيوانات النسيجية الثلاثة ويصفها بعناية، جنباً إلى جنب، في سريري، والأصغر بين الاثنين الآخرين. وآتي له بلحافه.

- غداً، سننزل معاً إلى الوادي مع الشاحنة والمجرفة لنبني سدّاً على الساقية، أقول وأنا أفسح المكان لكل هؤلاء الصغار. ثم نصنع القطايف ونذهب إلى حوض السباحة.

وعندما أستيقظ، في الصباح، لم يعد الطفل في السرير، ولا أراه في أي مكان. ولا يزال لحافه دافئاً. أبحث عنه في كل مكان وأهرع إلى الخارج لأناديه، لكنه بالطبع لا يسمع، أجري يمنة ويُسرة وقد ارتديت كنزة صوفية فوق قميص نومي، لأنزل أخيراً إلى الوادي. وهناك ألمحه في ضوء الصباح الخافت، كأنه جزء من التضاريس، حافي القدمين، ببيجامته السوبرمان، على حجر في حافة الساقية. ولا يتحرّك على الرغم من وصولي إليه.

عندما أهاتف أودور، تعترف لي بأن البحث عن أبيه بدأ أحد الأيام لدى خروجه من الحضانة، إذ سألها عندئذ عن أبيه ولِمَ لا يأتي لأخذه من المدرسة.

- إنها قصة طويلة، سأرويها لك عند بلوغك سن الخامسة، شرحت له، وسيكون ذلك في الخريف القادم، وهو ما يترك لي مهلة عام. وبعد أيام، وفي مكتبة بالمدينة، إذا به يلقي بنفسه على رجل أمامنا في طابور الانتظار، ويحيط بذراعيه إحدى ساقيه صائحاً بابا، بابا، من دون توقّف. وكان ذلك محرجاً، ولاسيما أن الرجل كان صحافياً رياضياً في التلفزة، طالما أثار

أعصابي. ومنذئذ، عمل تومي الشيء ذاته عدّة مرات مع رجال آخرين، مختلفين جميعاً، وهو أمر لا يمكن توقّعه، مثل المشي أثناء النوم.

ولا نطيل الحديث في هذا الأمر، ولكنها تطلب منّي مساعدتها في العثور على كلمة، لوصف شيء يقع على بني الإنسان، ليس من طبيعة جوية بالضرورة، كالأمطار، بل كلمة مقترنة بنهاية العالم في أرواح وقلوب الناس، ولكن ليست بصفة مباشرة بل من طريق التورية كالأمطار على الأرواح، والطبيعة التي تذرف الدموع. شيئاً كرائحة شجر السَّندَر تحت المطر، ولكن بكلمة واحدة، ويدّعي الطبيب المُولِّد أن ما من كلمة وحيدة بهذه السعة. فهل بإمكانك البحث ومهاتفتي غداً؟ وربما، لو كان لديك وقت، أن تتصفّحي من أجلي اللغة الإغريقية القديمة، عندما يستغرق تومي في النوم هذا المساء؟

المكالمة متقطعة وكأن صوت أودور يأتي عبر مئة وخمسين ميلاً على الأقل، وأفهم على الرغم من كل شيء أنها نشيطة ومغتبطة بالحياة وبعذوبة الطقس.

- لقد خلعت كل ملابسي تقريباً، تواصل، وأتهيّأ للخروج تحت المطر لأتمرّغ في العشب وقلب المنظر الرتيب الذي يراه المرضى، ولا أهتم لكون الموظّفين في مصلحة الولادة لم يروا قط أمّاً عزباء لثلاثة أطفال سعيدة. وعليك أن تعملي مثلي. وهم الآن في اجتماع لتقرير ما إذا كان عليهم نقلي من مصلحة الحمل تحت الخطر إلى مصلحة الأمراض العقلية. بسبب السعادة فقط. وإذا متّ هذا المساء، فسأموت سعيدة. ثم إن هناك دائماً احتمال موتي مع طفليّ.

وانطفأ الصوت تقريباً في الهاتف، وعادت أودور إلى البكاء.

- إن أكثر ما أخشاه هو أن يمشي أثناء النوم، ويتخبّط في الوحل، أود أن أطلب منك ألا تقضي الليل قريبة جداً من البحر، فقد رأيت مناماً، لا تقتربي من البحر ولا من الماء وأنت معه.

ثم، ومن دون مقدّمات، تصرّح:

- هل تعلمين أن في الكتاب المقدّس مئة وثلاثة وخمسون إشارة إلى الماضي، بينما لا يذكر المستقبل إلا خمس عشرة مرة؟

47

السماء قاتمة فوق حوض السباحة، والبخار بلون القشدة يتصاعد في عتمة تشرين الثاني الرطبة؛ ووجوه تظهر ثم تختفي، وتطفو خشبة الغوص إلى نصفها في الضباب.

قدر المياه الساخنة، تلك هي الوسيلة المضمونة للقاء المرء جاره وهو شبه عارٍ، وأفضل وسيلة للتقارب الحقيقي مع السكان الأصليين. فأنا جالسة في جاكوزي ضيّق، وركبتاي ملتصقتان بصدري، أشعر بالحرارة اللاهبة لجسم مجهول في البخار الكبريتي، كما أنا، وكما خلقني الله تقريباً منذ ثلاثة وثلاثين عاماً، إضافة للباس السباحة، والنوازع الجنسية، والخبرة بالحياة والذكريات المتسلّطة.

الناس يعودون من أعمالهم، متعبين، وقد هجر لون الصيف أجسامهم التي عادت إلى لونها الوردي وإلى نعومتها، تفوح منهم جميعاً رائحة الخليط المُكَلور ذاته. فلا يمكن لهم أن يكونوا أكثر مساواة. ويتخبّط العديد من الأطفال الصغار بسلام في الحوض المخصّص لهم. وبعض الذين لا يزالون يضعون الحفاضات على اليابسة، يتمكّنون من تدبّر أمر أنفسهم للطفو. ومن المقرر، في الصيف القادم، توسيع حوض السباحة وإنشاء مزلقة للأطفال ولآبائهم.

وبينما يرتدي تومي سروال السباحة الجديد تحت الدوش، يقول إنه يريد أن يكون مثلي. أن يكون مثلي، هذا بالفعل ما فهمته.

- كيف ذلك، مثلي؟

وأظن أنه لفظ كلمة امرأة.

أتركه يتجهّز بعوّامتين، حتى يطفو باستمرار على السطح.

- لن تتحرك من هنا، أقول وأنا أرسم بيدي صورة صفة غير المتحرّك، لا تتحرّك، تخبّط فقط في الحوض الصغير.

إنه يقفز ويكرّر القفز في الماء، حيث الموضع الأقل عمقاً، مصدراً كل شكل من أصوات السرور التي لا يسمعها هو نفسه. ومن دون الجهاز السمعي ولا النظّارة، يعطي الانطباع بأنه أصغر مما هو عليه وأكثر نحولاً؛ إذ ينقص وجهه ذلك الوضوح الذي يعطيه إياه إطار النظارة، والأشكال تندمج بعضها مع بعض، أتذكّر أن عليّ المرور بالبقالية في طريق العودة لشراء بروتينات مسحوقة لمزجها له مع الكاكاو.

لم أره قط مسروراً هكذا، إذ يتخبّط ويترشش بالماء فرحاً، مرسلاً رشّات فوق رؤوس الأطفال الآخرين الذين يرصّون صفوفهم في الجانب الآخر من الحوض وهم يراقبون حركاته فاغرين أفواههم صامتين، متسائلين عما يجب عليهم أن يفعلوا معه؛ لكن لا تبدو عليه قابلية الاندماج في أشكال أخرى من المخالطة، على كل حال.

وقد لفت نظري عدد الموشومين في الحوض الساخن، من الرجال والنساء - فلدى الجميع تقريباً وشم حول الذراع -، وقد تزيّن الكثير من الرجال بقرون رنة في الموضع ذاته. وفي حوض السباحة، في الجانب الآخر من الرجال، على مسافة مئة وخمسين كيلومتراً من هنا، كان الكثير من الناس موشومين أيضاً، ولكن بأشكال أخرى، حيوانات وورود، الأكثر انتشاراً.

- ماذا لو نذهب إلى قلب القطبين، يقول أحد المستحمّين في الحوض الساخن، فينبغي عندئذ إعادة تعيين الشمال والجنوب، ولن تعود البوصلات صالحة.

- عوضاً عن القشدة الطازجة، نستعمل فقط مرق لحم الخنزير الجاهز، تقول امرأة في الحوض ذاته، ويمكن أن آتي لك بالوصفة غداً.

- إن من لا يحاول شيئاً جديداً، تفوته فرصة للتسلية، تَدخَّل رجل مسنّ.

- لا تتاح لنا الفرصة دائماً للتسلية، حتى لو جرّبنا شيئاً جديداً، تردّ امرأة.

- لا أقول إن علينا تجربة شيء جديد دائماً، يصحّح الرجل المسن.

- لكن، من الصحيح تماماً أننا إذا لم نذهب إلى أي مكان، فإننا لا نرى أبداً شيئاً جديداً، تواصل المرأة.

- بالضبط، فمن الضروري جداً الذهاب إلى مكان ما لرؤية العالم والترويح عن النفس، يقول الرجل موافقاً.

- أجل، تقول المرأة، معرفة أناس آخرين يفكّرون مثلنا.

- بالضبط.

ولدى انتقالي في الجاكوزي نحو نافورة التدليك، ألامس سهواً فخذ رجل. فترشقني امرأة بنظرة انزعاج، وكدت أعتذر بأنها ليست غلطتي.

من الواضح أن هنا بعض العيّنات من الجنس الآخر. ولكن من الخطأ الاعتقاد بأنني أفكّر بالإغواء. فليس الأمر كأنني أقوم بالفرز بين الذين يستحقّون الاهتمام والذين قد يستحقّونه، كما توحي به النظرة التي رشقتني

بها المرأة. وليس لأحد أن يتخيّل أنني أبحث عن شيء خاص في هـذه الـضيعة. إذ لا أريد إلا الراحة والترويح عن نفسي. وأخذ عطلـة طويلـة متـأخرة في شـهر تشرين الثاني.

وبالكاد أقارن زوجي السابق بمن هم تحت نظري في الحوض، في الخطوط الكـبرى وحسب - ذلك أنـه بـدأ في الـتلاشي. وعـليّ أن أركّـز فكـري منـذ الآن حتـى يـتراءى في ذهني.

لابد أنهم لم يفهموا الإعلان المكتوب بخمس لغات الذي يُوصي كـل شـخص بخلـع سروال الاستحمام والاغتسال قبـل الـدخول إلى حـوض الـسباحة: إذ نـزل خمـسة مـن الأجانب من الـسد، وهـم متخصـصون بـالمتفجرات، ودخلـوا إلى الحـوض عـراة تماماً. فينطلّق معلّم السباحة على إثرهم بنشاط مـع صـفارته بيـنما كـانوا يـصعدون الـدرج واحداً بعد الآخر. وبينما يتأمّلهم الجميع من الحوض، من الأمام ومن الخلف، يتوقّـف الحديث.

- منذ أن بدأت الأشـغال، ينبغـي أن يُكتـب كـل شيء بـأربعين لغـة، تقـول المـرأة باشمئزاز.

وقد توقفت عن النظر إلي. أغلق عينيَّ، وعنـدما أفـتحهما، أجـد رهطـاً جديـداً في حوض الماء الساخن.

في البخـار، قبـالتي، جلـس رجـل أنظـر إليـه مطـوّلاً دون أن أراه عـبر خصلة شـعر مبتلّـة، بعينـي المغمـضتين نـصف إغماضـة، حيـنما أكتـشف أنـه هو، رجل الانهيار، الموجود هنا. فينظر إليّ بابتسامة سـاخرة، كأنـه كـان ينتظـر أن أصـحّح المـسار وأبـدي الانـدهاش لرؤيتـه. يظهـر عليـه التـوتّر وشيء مـن

الحرج، بل والخجل، أبتسم له وأنتفض في الوقت ذاته تحت تدفّق الماء الساخن من أنبوب متجاوز.

يبتسم لي بدوره ويشرع في الكلام مع امرأة كانت تنتظر هذه اللحظة لتقول له شيئاً عاجلاً. أغمض عينيّ ثانية وأنا أستلقي، ورأسي مستند إلى حافة الحوض. وأبدأ في تخيّل معيشتي هنا في الظلمة، وطريق السهل غير سالك ولا شيء يحدث في الظاهر لشخص آتٍ من مكان آخر.

خرجت المرأة التي كانت تتحدّث إلى رجل الانهيار من الحوض حيث لم نبق إلا ستة أشخاص.

- كنت آمل في زيارتكِ، يقول أخيراً. ولكنت حضَّرت طعاماً طيباً، فمن النادر أن تكون لدى المرء الرغبة في الطبخ لنفسه وحده.

لديه وشم غريب مُدَوّر على الكتف، يشبه متاهة، ويُذَكّر أيضاً بشبكة عنكبوت.

وفيما عدا حديثنا، يرين صمت الهضاب العليا على الحوض المستدير، إذ توقّف الناس عن تبادل الوصفات، ينتقل صوبي ونحن جالسون جنباً إلى جنب، بينما ينسحب الآخرون إلى الطرف الآخر، إلى أبعد ما يمكن، أربعة أشخاص صامتون، رجلان وامرأتان يحاولون ألا يلفتوا النظر إليهم بالغطس في البخار حتى الذقن. وبما أن الدرج من جانبنا فلن يخطر ببال أحد صعوده لمغادرة الحوض والظهور في مرحلة شديدة الدقة من حديثنا، ويستعرض الاحتمالات فيما يخصّني.

- سأكون مستعداً لرؤيتكِ من جديد، إذ يمكن إيجاد شيء نعمله.

ثم ينحني كأنه سيغادر الحوض، ويميل إليَّ قائلاً وهو يلمس كتفي مساً رفيقاً:

- مايزال عرض الدروس الخاصّة قائماً.

ينهض للخروج، والماء يسيل على جسمه، ويسرع الآخرون في إثره كما يحصل لدى استقالة جماعية في مجلس، وهو ما يخفض مستوى الماء في الحوض. ولا يبقى سواي.

بعد تركي لنظارة السباحة على الحافة، أغطس في حوض السباحة وأختفي تحت الماء؛ أفتح فمي للمياه التي تملؤه، وبهزّة أصعد إلى السطح - والحق أن عمق الحوض لا يتجاوز السبعة عشر متراً، كما يخبرني معلّم السباحة فيما بعد.

- وهذا يعني إذن خمسمئة وواحداً وستين متراً، يضيف، بعد حساب سريع بالورق والقلم.

كان ذلك في المساء الذي نزعت الزهرة من شعري، ولكنني أبقيت على الحلقات فيه. وكان الخميس المقدّس عندئذ وكل المحلات مغلقة. أفرد بقدر استطاعتي بمساعدة مشط حلقات شعري المضمّخة بالمثبّت لأجمع شعري في ذيل حصان بشريط مطّاطي أصفر. كنت أرتدي سترة جديدة وأشعر في نفسي أني جديدة وغريبة؛ ولديّ الرغبة في المغادرة. وعوضاً عن ذلك ذهبت إلى حوض السباحة مع أعزّ صديقاتي.

وكان شعري أكثر ثقلاً من المعتاد، فلأنه كان ملتصقاً بعضه ببعض، كنت أحسّ به على ظهري كعضو جديد لا أستطيع منه فكاكاً. وكان ذلك بسبب المواد التي وُضعت عليه.

سمعت عندئذ صوت غطس جد قريب منّي. وكان أحد الناس يبتعد، سابحاً تحت الماء في القسم العميق من الحوض؛ شعرت فجأة بموجة تنكسر على فخذيَّ وبأن أحداً يُمسك بساقي ويسحبني إلى القاع. أغرق وأشعر بأني أختنق. وأعود إلى السطح، محاولة أن أسعل، لكن صديقتي لا تزال ممسكة بساقي وتجرّني ضاحكة بعيداً عن الحافة، فأحاول التخلّص وأضربها بقدمي، لكنها تظنّ بالتأكيد أن هذا جزء من اللعبة وتضيِّق عليّ الخناق. أشرب الكأس وأحس بالماء المُكَلور يجتاح بحريّة المجاري التنفسيّة. وتظلم الدنيا في عيني، وأنا في سبيلي لخسارة اللعبة، ولمّا أذهب مرة واحدة إلى الخارج، ولم تكن صديقتي قد فهمت بعد، حينما أتوصّل أخيراً إلى الإفلات منها والتمسّك بالحافة، أسعل وأسعل، بينما تتساقط الدموع على وجنتيَّ، وأحاول إفراغ البلغم الممزوج بالدم في قناة التصريف لكنني أخطئ الرمي وأرى الشيء يبتعد، طافياً على السطح، صوب صديقتي المبتسمة دائماً.

لدى عودتنا إلى المنزل، صمّمت على أن تتنبأ لي بالمستقبل وسحبت بعض أوراق اللعب من علبتها لتنشرها على الطاولة. وأخبرتني بأني سأبلغ سن الثالثة والثلاثين، من دون ذكر لزوج ولا لأطفال. كنت في الثالثة عشرة وأنظر إلى سن الثالثة والثلاثين كسنّ متقدّمة بالأحرى؛ وكنت أجهل عندئذ أن جدّتها تكلّمت مؤخراً عن امرأة ماتت في الثالثة والثلاثين من عمرها وأن صديقتي أرادت ولاشك أن تتكلّم بلهجة تنبّؤية. بعد وقت قصير، باعدت بيننا الأيام ولا أدري ما صارت إليه.

حتى هذا اليوم، حيث بدا لي فجأة أنني أراها بطرف عيني تصعد من أعماق الحوض وتتجه نحوي مباشرة.

48

لا يرغب الصغير في اللـهو مـع الأطفـال الآخـرين، ولا يريـد اللعـب بكـرة القدم التي اشتريناها، بل يفضّل البقاء معي، جالـساً في الـشرفة ينظـر إليّ وأنـا أقرأ أو يتفرّج معي على قصص الآلهة الإغريقية. ويريـد الاسـتلقاء عـلى الأرض قرب المدفأة لكتابة كلمات أو عمل رسـومات؛ وتمثّـل إحـدى هـذه الرسـومات ولداً صغيراً يمسك بيديه امرأتين، إحداهما حبلى. ويرسم بعد هذا مباشرة صـفاً من ثلاثين صورة لهرقل.

- أترين، إن الفحولة لا تكمـن ربمـا بـالعمق الـذي تبـدو عليـه، أقـول في الهـاتف لأستاذة الموسيقا وأم الطفل الأصم.

«أتخافين من الأطفال، أتخافين من الموجود في الخارج؟» لم أقل له شيئاً كهذا، إذ لا تقال هذه الأشياء لطفل.

ويظلّ الصغير أحياناً جالساً من دون حراك، كأنه في مكان بعيد، بعيد جداً. أو يهـزّ جذعه من الأمام إلى الوراء مثل رجل عجوز. وهو، بين هذين الوضعين، شبيه بالأطفـال الآخرين، هائج كالبحر. إذ يذكّرني تارة بممثّل بارد الأعصاب من زمن السينما الـصامتة، وتارة أخرى بممثّل إيمائي محترف من بلد جنوبي، وهو يغيّر تعبيراتـه مئـة مـرة في فـترة وجيزة، صانعاً بيديه صوراً مفهومة إلى حدّ ما.

يقرع أحد البـاب صـباح أحـد الأيـام، في العـاشرة وأربعـين دقيقـة. والزائـر مصحوب بطفل في سن تومي تقريبـاً، حـاملاً بيـده قـرص DVD محظـور عـلى

من هم دون الثانية عشرة، ويشتعل بصيص أمل في عيني الصغير الواقف بجانبي، منتظراً النتيجة، إذ يبعث تلقّي الزيارات السرور في نفسه.

- لقد رأيتكِ في التعاونيّة واعتقدت أنهما قد يتّفقان.

ويدفع ابنه إلى الداخل ويحاول إغلاق الباب وراءه، لكن الولد يضع قدمه في شق الباب.

- أليس لديكِ جهازاً قارئاً لـDVD؟ ولا جهاز تلفزة؟

وبنظرة سريعة يقوّم بيتنا، الذي زيّنّاه بالكنيسة الصغيرة المنحوتة، وبرسم خروف، وبالكلمات التي كتبت على الورق وبرسومات هرقل الثلاثين على الحائط، ثم يجول في الصالون ويضرب الحائط بيده، وابنه يتبعه كظلّه.

- حسناً، لا يمكن للأمور أن تجري على ما يرام، يقول الأب.

ويسحب كُمّ الطفل الذي يبدو مأخوذاً بالنار في الموقد، ويصحبه إلى العتبة. ثم يقول متردداً:

- أتذكّر جيداً جدّتك، لقد نمت أحياناً في المنزل الأزرق عندما كنت طفلاً. لقد كنت أعزف قليلاً على الغيتار وأؤلّف ألحاناً ذلك الوقت. ويحدث أن أكتب كلمات حتى اليوم.

يصمت فجأة، ثم يقول وكأنه يتذكّر شيئاً عاجلاً.

- هل جئت للتظاهر ضد أشغال السد؟

وأسمعه يقول إلى اللقاء وهو يغلق بهدوء الباب وراءه. ولا أستطيع تبيّن ما إذا كان ثمّة أسف على وجه الصغير بينما نعمل الكاكاو وندهن شطائر الخبز بالزبدة.

49

غروب الشمس في الميناء، وسط النهار، عندما تُفرغ المراكب صيدها. ما من شيء يستحق الرؤية، ربما يقول المسافرون الذين قد يمرّون هنا، مرتكبين خطأ فادحاً، إذ لا يدرون بما يحدث داخل البيوت.

أبدأ في تخيّل نفسي وأنا أسكن هنا مع صغيري، وأنني أعيش هنا في الواقع منذ ثلاث وثلاثين سنة، ما عدا فترات الهروب القصيرة من وقت لآخر، وأن حياتي هنا بالاختصار. فيولد في نفسي عندئذ إحساس جديد ينضاف إلى البيئة لمحيطة بي.

أنتظر وقدماي عاريتان في حذائي الرياضي صيّادي على الأخشاب الزلقة للجسر العائم. أراه في كنزة البحّار الزرقاء في مقصورة المركب المتوجّه صوب اليابسة. أسماك المورة الصفراء تلمع، وماء البحر ملوّث بالمازوت، إنه يقف في المقدمة عندما يرسو المركب، ويعود دَبقاً وقد غطّته الحراشف.

ينظر إليّ الرجال مندهشين، فالنساء الأخريات في المنزل، بصدد رفع المائدة وأخذ الأطفال للنوم، لكنني لست بحاجة إلى أخذ طفلي إلى النوم، فهو كبير الآن، ويجري الآن تمارين مع فرقته الموسيقية، على ما أظن.

- إنك محظوظة مع زوجك، تقول لي امرأة صيّاد أخرى، فعندما لا يكون زوجي في البحر، يقضي كل وقته على الشاطئ.

وهكذا أتمثّل الأشياء.

ويغادر رجلٌ المركب من على الجسر الصغير الذي يعبره في فشختين. تفوح منه رائحة السمك وأصابعه مملحة عندما يضعها في فمي، واحداً بعد

الآخر لألعق أطرافها. وهي طريقة فيها غرابة بالنسبة لمشاهد لا يكون من هنا، ولكن الأمر يجري هكذا.

بعد ذلك، نسحب أمام النافذة الستائر التي خاطتها أمه. ولا يزال المراهق يتمرّن على الغيتار في مرآب السيارة، كما أتخيّل، ولهذا نسمح لأنفسنا بإغلاق الستائر.

وما إن نجلس إلى المائدة مع سمك القاروس الطازج المقلي، حتى أبادر رجل حياتي قائلة:

- هل ستأكل وأنت عاري الصدر؟

- وما الضير في هذا؟ ألسنا وحدنا، أنا وأنت؟

وقد نسي هو أيضاً المراهق.

- بلى، ولكنني رُبّيت هكذا، نأتي إلى الطعام مرتدين ثيابنا وممشطي الشعر ونتحدّث جميعاً، فقد كان أبي أكثر الأحيان يحكي لنا قصة على المائدة، أنا وأمي وأخي، وكنّا نحكي أيضاً، كلّ بدوره أيضاً، ما فعلناه في النهار. وقد روى أبي مرّة لنا قصة عازف بيانو عاطل عن العمل كان يعاني من الأرق، وفي إحدى ليالي الأرق اخترع، وهو في سريره، مسماراً ملولباً لمروحة الطائرة، أو برغياً أو شيئاً بسيطاً، جعله ثرياً جداً. وليس وحده فقط، بل ثلاثة أجيال من عائلة جاك ويلسون.

- لست بحاجة إلى أن تحكي لي كل قصص العالم حتى أرتدي قميصاً.

- وكانت أمي تتزين أيضاً، قبل أن يعود ساعة العشاء، إذ كانت تصبغ شفتيها باللون الأحمر، ثم توقفني أمامها حتى أجري للقائه. أما أخي، فكانت تتركه وشأنه. وكنت أستمتع أحياناً بأن أُنتزَع من وسط اللعب

لأكون عضواً في لجنة الاستقبال. لكن متعتي لم تكن مصطنعة؛ فلم تكن تجري أشياء كثيرة في النهار.

- تودّين ربما أن نقرأ الكتاب المقدّس في البيت؟

أول مشاجرة، إذ إن التعارضات النشيطة هي التي تغذّي الحياة. وأعترف بأنني أجد صعوبة في جعل المراهق يأكل معنا، ومع ذلك أضع طبقاً قريباً وأحتفظ بعشائه ساخناً، إذا ما خطرت له العودة من المرآب قبل أن نخلد إلى النوم.

يُخرج زوجي الغسيل من الغسالة الآلية، يمطّ الجوارب ويُمَلّس قمصاني التي شيرت قبل أن يعلّقها على الحبل. ونمارس مع ذلك الحب كثيراً، كل مساء تقريباً وأحياناً في ساعة متأخرة من الليل. هكذا تجري الأمور، ولا يهم إن عدنا للنوم مساءً في سرير مخربط. لم يكن الفتى قد عاد عندما نذهب إلى السرير. وقد نلهو أحياناً أيضاً في الصباح، ويندهش دائماً لمقدار القلق الذي أشعر به عندما أودّعه صباحاً، إذ يقول «سنلتقي في المساء، في السابعة والنصف» لمحاولة التخفيف من ألم الفراق، ولم يظهر الفتى بعد، وأنا لست متأكدة حتى من أنه عاد من المرآب أمس مساء.

أستند إلى ظهر كرسيي الطويل على الشرفة وأضع كتابي جانباً. إنها الرابعة بعد الظهر وقد بدأ النهار يُظلم. والصغير ظاهر لي وهو يملأ بالوحل أربعة قوالب للمعجّنات، بأفروله الواقي من المطر، وقبّوعته على رأسه. أنا مستعدة للتدخّل، وبنطال رابع جاف تحت يدي، وعند عودته تفوح منه رائحة التراب البارد المبتل، رائحة أرض جرداء. محيط فمه بني اللون، لكنه يهزّ رأسه بالنفي عندما أسأله عمّا إذا كان أكل تراباً، ويفتح

فكّيه لتأييد ذلك. لكنني أرى رملاً على أضراسه؛ فربما ينقصه الحديد أو المغنيزيوم؟ عليّ أن أتذكّر هذا عندما أقوم بالتسوّق.

وأشرع في الحلم بأنني عدت للإقامة هنا بعد سبعة عشر عاماً من الغياب، وأنني أسكن هنا، وأن حياتي هنا، أنا وحيدة وسأنتقل إلى بيت صيّادي يوم الاثنين.

كل شيء في بيته أصفر وأسمر ولا تزال قلادة يوم البحارة معلّقة منذ عامين على ستارة المطبخ؛ التي خاطتها أمه له لدى بدء إقامته في البيت، هناك على أرضية الصالون أرومة خشبية وعليها قنينة وأربعة كؤوس. ودون أن يظهر ذلك، وشيئاً فشيئاً، أجري بعض التغييرات، وأنقل أشياء من مكانها، واضعة بعضها في الصناديق، وأستغل الفرصة عندما يأتي أطفال طالبين جوائز ليانصيب، لإعطائهم هدايا أمه في عيد الميلاد، وانصرفوا في نهاية المطاف مع المصباح ذي اليدين الخزفيتين المتعانقتين اللتين تسندان شعلة، ولكنني لم أجرؤ بعد على إسقاط السفينة في القنينة.

إنه يمتنع عن أي تعليق مدة طويلة، لكنه في إحدى الأمسيات، بعد ثلاثة أشهر، وبينما كنّا نأكل دجاجة بحليب جوز الهند مع الذرة والأرز - لعلمي بكرهه للسمك - ، يصرّح بين لقمتين قائلاً:

- يبدو لي البيت فارغاً، هل غيّرت شيئاً ما؟

بعد أربعة أشهر، أجازف بالحديث عن ستائر المطبخ، ولكن بحذر شديد.

- ما المشكلة مع هذه الستائر؟ صاح متعجباً، إنها أمّي التي عانت الأمرّين في عملها وتعليقها. فقد ركبت الطائرة من أجل الذهاب لشراء القماش من راكيافيك، واضطر أخي ديدي لمرافقتها يومين إضافيين كي تجد

القماش. وصمّمت، لدى عودتها، على تفصيلها وخياطتها هنا، وانتقلت مع آلة الخياطة واحتلّت كل الصالون؛ وجاءت صديقتان لها لمعاونتها في تركيبها. فما المشكلة مع هذه الستائر؟

وبينما ألاطفه كقط صغير، وأترك أصابعي تداعب بطنه، يأخذه الحنان. ويقول بعد هذا إن بإمكاني تغيير الستائر إذا شئت، لكن ينبغي عليّ تفسير ذلك لأمّه. إذ تشعر بما يكفي من الريبة إزائي، لأنني نحيلة وأشبه بالغلام، كما أنني مطلَّقة وأعمل في تصحيح أوراق.

- لا أرى جدوى من الستائر في المطبخ، أقول، فلا شيء أمامنا على كل حال، فيما عدا البحر، ولديّ انطباع بأنني أفقد الأفق بسببها.

- هل تريدين أن يكون المنزل وكأنه قيد الإنشاء؟ يقول.

وشيئاً فشيئاً يتغيّر مع ذلك.

- ماذا تقرئين؟ يسأل.

فأشرح له محتوى الكتاب وهو ينظر إليّ بنظرة مبهمة.

- أرى أنه لا لزوم لقراءة كتاب كنت قرأتِه قبلي، لأنني سأعيشه عندئذ بعدكِ، لكنني سأكون مستعداً لمحاولة أن أكون امرأة لوضع طفل، إذ لابد أن تكون تجربة مختلفة عن كل التجارب، أن ينقسم المرء إلى شخصين، يقول صيّادي البحّار، الفحل والمتين البنية.

ويرتدي كنزته الزرقاء المتصلّبة بفعل الملح التي حاكتها أمه ولا يجب غسلها، متجهاً إلى البحر.

50

ينتصب المنزل في الأسفل، على الشاطئ تقريباً، وبالكاد يمكن التعرّف عليه. فسقفه منخفض ولا يكاد رجل طويل القامة يتمكّن من الوقوف فيه. أمام الفرن في المطبخ، مرتدياً قميصاً أبيض مكويّاً لتوّه، يمسك طبقاً مملوءاً بجراد البحر الوردي الطازج. وفي الأفق، ستّة مراكب صيد مضاءة تعود إلى الميناء. إنها تبدو ساكنة وكأنها تتهيّأ للجلبة التي ترافق وصولها إلى الأرض المأهولة، بُعيْد نشرة الأخبار المسائية بالضبط.

- لقد فُتِنت بالموقع، يقول، فلا شيء إلا البحر من النافذة. كان المنزل فارغاً ولم تكن لديّ أية فكرة في أن له أدنى علاقة معك. وعلى كل، فلم أكن أعرفك عندئذ. ولم أكن بدأت التفكير فيك، والحق يقال.

أمر، والصغير على إثري، من غرفة إلى غرفة في هذا المنزل المألوف والجديد، وألمس بأطراف أصابعي بقايا ورق الجدران المزهرة.

- لقد صقلت الأرضية وطليتها بالورنيش، إن الأخشاب أصلية.

وقد زالت رائحة العفونة، أحاول الاستلقاء على السرير.

- لم يكن هناك أي شيء في الداخل، فيما عدا حوض الاستحمام في القبو وبعض صناديق الكرتون في السقيفة، أمتعة قديمة لم تكن لديّ الشجاعة لرميها، ولا الوقت لتفحّصها. أدعوك للاطلاع عليها، إذا شئت.

تصفّحت سريعاً الدفاتر، المملوءة كلها بالكتابة المتقنة لجدّتي. وهو شهر أيار، ولا يكاد التاريخ يظهر - إذ أتت الرطوبة على غالبية الصفحات.

نسيم جنوبي لطيف بعد الأمطار هذا الصباح، وقد وُلِدَ طفل في الساعة السادسة عشرة وأربعين دقيقة، وجاء الزوجان لأخذه في الساعة السادسة وعشر دقائق، الرياح بصدد الاتجاه إلى الغرب. كل شيء على ما يرام.

- آمل أن تكوني جائعة، يقول، عندما أنزل ثانية، فلدينا ثلاثة كيلوغرامات على الأقل.

يضع الصغير ثلاثة أطباق على المائدة ويصنع مروحة ومنظارين بالفُوَط التي يدخلها في الكؤوس وهاهو يخرج بالكنزة إلى الحديقة مع الكلبة الحامل.

- أنا الذي أخذتها، عند الطلاق، يقول. وستضع خلال ثلاثة أسابيع - وستكون هديتي لعيد الميلاد مع جوارب أمي وما تصنعه بنتاي في المدرسة. ففي السنة الماضية، أعطتني الصغرى جوالاً والكبرى بطانية للكلبة. إنهما تشتاقان إليها؛ إذ لم نكن أنا وهي إلا واحداً بالنسبة للصغيرتين.

على الرف، إلى جانب الكتب، صورة فوتوغرافية لمراهقتين، الكبرى قلقة نوعاً ما وتشبهه؛ والأخرى شقراء، بفرق في شعرها، رقيقة الملامح، مبتسمة كالمرأة في لباس التزلّج الواقفة بين ابنتيها، وتحيطهما بذراعيها.

- كانت هذه الصورة في العطلة الأخيرة، قبل أن تَمَلّ منّي وتختفي مع صديقي. فأنا لا أطاق.

ومع هذه الكلمات، يأتي ليلتصق بي، فأتعرّف عطر صابون حلاقته، إنه «الطبيعة للرجال»، تركيز خالص للفحولة.

- وأنا الذي اهتممت بالبنتين على وجه الخصوص بينما كانت أمهما تقضي شهر العسل. أحاول الآن الذهاب لرؤيتهما في المدينة كل خمسة عشر يوماً على الأقل ونقيم عند أمي مؤقتاً، فتغسل وتكوي الملابس لنا جميعاً

وترتبها مطوية في حقيبتي وحقيبة البنتين. ولم أبدأ في ارتداء السراويل التحتية الطويلة المكوية إلا بعد طلاقي.

ربما لم يقل هذا؛ بل من غير المحتمل، نظراً للظروف، وهو منشغل بالطبخ، أن يكون لَفَظ هذه الكلمات بالذات: سراويل تحتية طويلة مكوية.

- سأصلح المنزل بنفسي، فقد بلّطت المطبخ أثناء عطلة الصيف، وأعترف بأن في تنسيق المربعات بعض الجرأة.

وألاحظ عندئذ أبعاد المربعات في أرضية المطبخ، إذ يترتب بلاط من الحجر المنحوت، الأسود والأبيض بالتناوب. وهو منشغل للحظة بالفرن، واقفاً على مربع أسود، بينما أقف على مربع أبيض: ونصف رقعة الشطرنج يفصل بيننا. بعدما خفف النار، يستدير وينتقل مربعاً إلى الأمام، من الأسود إلى الأبيض، بحيث نوجد نحن الاثنين على مربعين بيضاوين، وليس بيننا إلا مربع أسود ويكفي أحدنا أن يمد يده للمس الآخر. ويلزمني وقت إضافي للتفكير، فأقوم إذن بخطوات صغيرة، من الجانب أولاً، من الأبيض إلى الأسود، ثم إلى الأبيض من جديد، كأنني كنت أفكّر حتى بالخروج من المطبخ، ومغادرة المكان، ومع ذلك أقدّر تقديره لي. يندفع، من دون مواربة، كالمجنون، متجهاً إليّ. ويده تهبط على طول ظهري، فأحس في الوقت ذاته بشيء مبتل في راحة يدي: إنه لسان الكلبة الرطب التي يتبعها الصغير وهو في طرف المقود.

- لقد جئت في الوقت المناسب، يقول صديقي، ونحن على المائدة!

51

لدى ذهابي لمكتب البريد لأرسل آخر ترجماتي، أستغل الفرصة لمهاتفة أمي. من المؤكّد أنه ليس مقبولاً أن يكون المرء من دون جوّال، بسبب تومي. فماذا لو أصيب بالتهاب الأذن ويجب عليّ استدعاء الطبيب؟ كما أنه لن يتمكّن من تدبّر أمره إذا ما حصل لي شيء، فقد يجري وحيداً على السهل من دون أن يهتدي إلى طريقة للنزول إلى القرية. لذا أشتري جوالاً وأكتب في المساء ذاته رقم الطوارئ على ورقة أثبتها على الحائط، إلى جانب هرقل.

- ما شكل هذا الرجل؟

- أي رجل؟

- أنا لست مُغَفّلة، فأنت لم تهاتفيني منذ أسبوعين، وقد بدأت بالقلق عليك.

- مطلَّق، مع ابنتين.

- هل لا يزال يتكلّم عن زوجته السابقة؟

- كلا تقريباً، وقد أراني صورة فوتوغرافية لها.

- هل أراك صورة؟ من الواضح أنه ليس حراً.

- كانت بين ابنتيه، ولم يكن ممكناً إزالتها من الصورة.

- لقد جمعت لك بعض قصاصات الصحف.

- ماما، أنا لست في الخارج، وأجد كل الصحف هنا.

- أنت لا تقرئينها.

- نحن في إيسلندا؛ ولو لم تحدث الفيضانات، لتمكنت أن أكون عندك في موعد القهوة.

- لم أعد أشربها أبداً، وقد أحدثتُ تغييرات في حياتي.

- يكفيني على كل حال، أن أقرأ وأهتم بتومي، إنه بصدد تعلّم الرقص والتطريز.

- الرقص والتطريز؟ أهذا ما تعلمينه لولد من دون أب؟ فأنا لا أتذكّر أبداً أنني رأيتك تطرّزين، لا طفلة ولا بالغة.

- ليس إلا قطبة الصليب البسيطة؛ فأنا أتركه يجرّب ما يرغب به. وقد حصلنا على كانافاه مع رسمة حصان، وقد كانت لديه الرغبة في تطريز حصان أعمى.

- حصان أعمى.

- أجل، وقد عدّلنا قليلاً الرسم: العينان مغلقتان، بلون الشعر ذاته، وقد ابتعدنا عن النموذج بأربعة قُطَب، وهذا كل شيء.

- ولا لزوم أن أحكي لأمي أنه أراد أيضاً تغيير الألوان، كعمل الذيل أحمر فاقعاً واستخدام الأخضر العشبي لشعر الرقبة، وأنه تجوّل فيما بعد مع الخيط بين مختلف أجزاء الجسم، منتقلاً من الرأس غير المكتمل إلى العنق لعمل بعض القُطَب، ثم اجتاز الصدر ليغرز بعض القطب في الخاصرة، بلون الشمس الأصفر.

- نحن نتعلّم رقصات الصالون و**الرقص الحر**.

- ألست بحاجة إلى مواد غذائية؟

- نجد محلات هنا كما في أي مكان آخر، فنحن نعيش في الرخاء.

وثمة فترة من الصمت في الطرف الآخر من الخط. فيبدأ تومي بـالتحرّك في الزاويـة المخصصة لتركيب مكعبات الليغو بمكتب البريد، لأن احتمالات تركيب المكعبات الإثني عشر الدَّبقة الباقية استُغِلّت كلّها وهنـاك نيّـة في الـذهاب إلى المخبـز المجـاور، حيـث توجد طاولتان مستديرتان وكراسي ويمكن تناول معجنـات سـاخنة مـع الكاكـاو وجـبن لدهن شطائر الخبز.

- حسناً، يا أمي العزيزة، سنتحدّث قريباً. تومي يشير لـك بيـده، ونحـن في مكتـب البريد، وأتكلّم في الهاتف العمومي.

ويمتد الصمت في طرف الخط، وتستأنف الكلام أخيراً:

- أتتني أخبار عن ثورستين بالأمس، إنه في أسوأ حال وصحته ليست على مـا يـرام، وهو ليس سعيداً.

- ظننت أنك حصلت على أخباره، ولم تريه.

- لقد مرّ فقط، إذ يعترينا القلق عليك، لأنك تختفين من دون مقدمات...

- لا أفكّر هذه الساعة إلا بنفسي وبتومي، وتوقفت عن التفكير بثورستين.

- إنه محشور في وضعه الغريب، ويبدو أن هذه المرأة خدعته بمعسول الكلام.

52

لدى الصغير رغبة في تعلّم شغل الصنّارة كي يصنع جوارب لأختيه القادمتين. وقد عثرت على سيدة لتعلّمه القطبة البرغلية؛ وهي تسكن المنزل المجاور لمنزل أستاذي في لغة الإشارات. إنها في السادسة والثمانين وتُسلّم شهرياً كنزات صوفية مشغولة باليد ومزيّنة برسم رنة إلى التعاونية. ولم يكن أمامي بد من طلب إذن أودور لشراء الصوف والصنّارتين رقم ثلاثة. فمنذ وقت طويل لم ينل مشروع إعجابه كهذا المشروع.

- أعتقد أنه يكبر، أقول، فالملابس التي اشتريناها منذ شهر فقط ستضيق عليه قريباً؛ وقد طال سنتيمترين على ما أظن.

- إن الملابس الجديدة تنكمش لدى الغسيل. ولكن أنتِ، من جهتك، هل تعرّفت على أناس ظرفاء؟ هل أحييت ذكريات قديمة، مثل الصيد بالصنّارة من أعلى الجسر الصغير؟

- لست متأكدة من أنني أودّ أن أكون عبئاً على أحد، أقول.

- كيف ذلك، عبء على من؟

- إن الرجال مملوؤون بالتعاطف معي، وهم يودّون الاهتمام بي.

ينتقي الصغير كبة صوف أصفر وأخرى باللون الأخضر الفاتح. «حتى لا نخلط بينهما عندما تنامان معاً في السرير ويداهما متماسكتان»، يشرح لي بلغة الإشارة.

تستقبلنا السيدة العجوز، في وزرة منقّطة من الدرالون. «امرأة ممتازة، قال جارها. نبع من العلم حول التنبؤات والأرواح الحارسة». ندخل إلى

الصالون المدفّأ أكثر من اللازم ونوافذه مغلقة. وعلى الأرض أربع سجادات قصيرة ذات أوبار طويلة. وعلى طاولة غرفة الطعام كومة من الفطائر وطبق من الحلويات الصغيرة، فقد أنجزت لتوّها صنع حلويات عيد الميلاد. إذ أتعرّف على مختلف الأنواع التي كانت جدتي تحضّرها: القطع الهلالية الصغيرة، الحلقات بالفانيليا، الكاتو بالزبيب، وهناك أيضاً القطايف وزجاجات شراب الشعير والصودا بالبرتقال. جلبنا معنا علبة شوكولاته كبيرة غطاؤها مزيّن بصورة لشلالات ديتيفوس، فتتلقاها بأدب، وتقول إنه ما كان ذلك ضرورياً وتسارع إلى وضعها في مأمن ضمن خزانة الملابس، حيث لمحت شلالات ديتيفوس أخرى إلى جانب أغطية الوسائد المطويّة جيداً.

يحسن الصغير التصرّف؛ فبعد التحيّة، يتخذ مكاناً على الطاولة ويفرد فوطة نويل على ركبتيه. وتجلس السيدة العجوز قبالته مع الصنانير وكبّة الصوف الأخضر الفاتح، وكلاهما يضعان نظارات وجهازاً للسمع. ويتبيّن من خلال الحديث أن مفصلاً جديداً رُكّب لها في وركها، وأنها تشعر بتجدد نشاطها وقد سجلت اسمها في دورة الرقص الريفي. وتسألني عمّا إذا كنت أشعر بالبرد وبتيار الهواء، لأنها عانت من مشكلات مع التدفئة. وعندما أودّعها للذهاب إلى درسي الخاص في المنزل المجاور، كان الصغير يضع قطعة الكاتو الثالثة في صحنه بعدما أفرغ نصف زجاجة من شراب الشعير، بينما حاكت العجوز الصف الأول من قُطَب الجورب الأخضر الفاتح.

تفوح من لحاف الجار رائحة الغسيل العذبة. ولديّ انطباع بأنه لم ينم هنا إلا لليلة على الأكثر منذ التغيير الأخير للأغطية.

53

يرتفع بالون منفوخ إلى السماء فيطلق طفل صرخة حادة، كصرخة خنزير يُذبح. ويبدو لي أنهما أذنا أرنب اللتان تحلّقان صوب الهضاب العليا.

- يجري عيد الشتاء قبل عيد الميلاد، مع مناشط متنوعة الغاية منها حث كل الذين ذهبوا إلى العودة.

هكذا يفسّر بائع الملبّس الأشياء وهو يلوي عصية غزل البنات الوردية للصغير.

ومن المقرر استعمال رافعة عملاقة، تُستعمل عادة في تعميق الميناء، لعملية القفز بالحبل المطاطي، الطقس هادئ وتبلغ الحرارة عشر درجات. وهناك بعض الضباب، لكن الفتيات المتزيّنات، بصنادلهن ذات الكعوب العالية، يرتدين أجمل ملابسهن، ويتجوّلن جماعات من ست فتيات أو سبع - كقلعة حصينة تهتز بالضحك المتواصل. وقد غطّيت مصابيح النيون في الصف بالأوراق الملونة وزُيّن اللوح بالطباشير المتعددة الألوان: مريم، يوسف، بقرة وعدة خراف قصيرة الذيل، ولا ينقص إلا المسيح الطفل. يريد الصغير أن يكون ملاكاً كالبنات الصغيرات واللعب بالهارب الكرتوني. أما خبز الأباريز المصنوع على شكل أشخاص فينتظر في الأطباق الكرتونية على الموائد. وطبيب الأسنان هو الذي يحيي الحفلة الراقصة بعزفه على الأورغ، هذا المساء في المدرسة.

وعلى المدعوّين المهمّين الانتقال بالطائرة أو بالبحر، وكان من المقرر أن يأتي وزير الصناعة والبيئة معاً لتفقّد مصنع التجميد والمنضدة الشفافة التي

تستخدم في الكشف عن الديدان في هبر السمك، قبل أن يقوما بنزهة حتى السد، حيث ستتوقف المراكب البرمائية المخصصة للسياح في المستقبل. لكن وزير الصناعة مصاب بالأنفلونزا ووزير البيئة لا يركب الطائرة؛ «إذ هناك الكثير من الاضطرابات الجوية بالنسبة لمن يعاني من رهاب الأماكن المغلقة»، كما تقول نشرة الأخبار المحلية، إضافة إلى أنه يستجم في جزر الكاناري، ويثير هذا الاعتذار المزدوج الريبة، وهذا ما جعل النائب الأول عن الدائرة يقوم بدور الممثل البديل، فجدّته تنحدر من المنطقة وإليها يرجع الفضل في الأصوات العديدة والثمينة التي أدخلته إلى البرلمان.

يقف النائب، مباعداً بين ساقيه، في مدخل الخيمة التي يوجد بداخلها ممثلات الجمعية النسوية مع قدر كبير من الكاكاو السويسري، ويدّعي أنه لم يعد ينعم بالسلام في بيته: إذ يثير ولداه المراهقان مشكلة بسبب السد، وأمله الوحيد هو أن يستغرقا في ألعابهما الإلكترونية بحيث ينسيان النزول للعشاء.

ويرغب النائب في أن يكون أول من يصعد إلى لوح القفز، لكنه ثمل عندما يحين الوقت، واقتضى الأمر العثور على مكان آخر يقف عليه، وهو يواصل مع ذلك، بقدر استطاعته، تحية أصدقاء قدامى وأقارب بعيدين من جانب أمه ورفاق آخرين من حزبه. ويُرفع أمين عام البلدية عوضاً عنه بالرافعة بواسطة بكرة، وهو أوّل سكّان القرية في القفز والارتفاع والهبوط عدّة مرّات، ويكاد أنفه يمس سطح البحر.

أجد نفسي وسط جماعة صغيرة متراصّة في الميناء وأتأمّل السماء. أشعر بالارتياح بين الناس، يزاحمني مجهولون، وأنا أستمع إلى الموسيقى النحاسية

تحت المطر، مع أنني لا أميل إلى التجمّعات، وأدرك على كل حال ميزات عدم المجازفة بالخروج: إذ لا يبتل المرء تحت مظلات الآخرين. والشيء الجيد في الالتحام بجماعة ما، هو صيرورة المرء غير مرئي تقريباً، لقد نمت أحياناً وسط فرشة كبيرة على الأرض، لكن هذا لا يعني أنني لا أستطيع الخروج عن الصف عاجلاً أو آجلاً. وأفضّل بالتأكيد أن يجري اختياري على أن أقوم أنا بالاختيار، ولكنني أستطيع مع ذلك المجازفة بالاختيار.

أتفرّج على أمين البلدية وهو يسقط من الرافعة ورأسه إلى الأسفل، ليتوقّف بالضبط فوق دوائر المازوت المتعددة الألوان وبلغم السمك على سطح الماء، ثم ينتفض من أعلى إلى أسفل الحبل المطاطي قبل أن يؤخذ جانباً وساقاه ترتجفان. وفي غضون ذلك، يُرفع التالي بالسلة. والقفز بالحبل المطاطي أحد الأشياء التي ترعبني كثيراً، وآخر شيء تخطر لي فكرة تجربته؛ فهو يناقض مزاجي، بسبب الدوائر أولاً، ثم بسبب القفزة ذاتها، والرأس إلى الأسفل في الفراغ، بقطع النظر عن الشنق من أعلى مشنقة، أو صعود وهبوط حطام مركب جانح.

- إنها حقاً الفرصة لمواجهة العقبات وإزالة المرء لتناقضاته، يقول صوت عميق إلى جانبي.

ربما يكون هذا صحيحاً، وربما حان الوقت لي للانتهاء من الدوار وإثبات جدارتي بالمناسبة ذاتها، حتى لو تفجّرت الأوعية الشعرية في عينيَّ، أبتسم للرجل، وأوصيه بإمساك يد الصغير وأسجّل اسمي في القائمة، وأعطي اسم أمي من حيث إنها القريب الأقرب لي. والصعود إلى سبعين متراً فوق سطح البحر مرعب، وأكاد أموت من الهلع.

سطح المحيط بعيد جداً في الأسفل، تحلّق عليه بعض النوارس كحشرات صغيرة. ينشغل شاب وراء ظهري بالأربطة، ليضع لي في النهاية حلقة حول الكاحلين، فأسمع صوت إغلاق الخطافين المعدنيين وأنا في ضيق شديد أرتجف تحت المطر الخفيف؛ وحتى الأعشاب المصفرّة في السهل أكثر منّي حيويّة. سيقول الذين يعرفونني جيداً إنه ليس من شيمتي أن أتخلّى بهذا الشكل عن هذه الحياة التي بدأت لتوّها، ومع ذلك، فأفضل نساء ورجال هذا العالم تقريباً ساروا في هذا الطريق قبلي؛ وليس الموت أمراً فريداً ولا مثيراً للانتباه.

من المتعذر علي، في هذه اللحظة، تقدير عدد الذين سيتأثّرون لموتي - ذلك أني ظللت غائبة مدة طويلة - فربما يملؤون جميعاً أحد عشر مقعداً في كنيسة، ثم يتقدّم شخص ما مرتدياً ثياباً سوداء، يبدو عليه الحزن الشديد، لا يعرفه أحد. فهناك دائماً ما ليس بالحسبان، في الموت أيضاً. ولابدّ لي من الإقرار بأن زوجي السابق يتمتّع بروح الابتكار أكثر من أمي فيما يتعلّق بمأدبة العودة من مراسم الجنازة: فسيكون هناك السوشي؛ أما معها فيُتوقع أربع طبقات من الخبز تدهن الطبقة العليا بالمايونيز، مع أربع حلقات من البيض المسلوق في الوسط.

وبناءً على وضعي، أرى كل شيء من علٍ، فهل لامرأة أن تحلم بديكور أكثر بهاء، وبمنظر أكثر فخامة في نهاية حياتها؟

كلا، والحق يقال.

أبدأ بالشاليه الصيفي من دون ستائر الذي يرى في طرف القرية، منزلي مع الشرفة، وجهاز الشواء، ومطفأة الحريق، وكاشف الدخان، ثم مصب

النهر والرمال التي تتزيّن بزهور الخبازي في الربيع، عندما لا أعود موجودة على قيد الحياة - لأنني من الارتفاع الذي أوجد فيه، سأتمكّن حتى من تمييز لون الزهور، ويحلّق نظري فوق حقل الحمم المغطّى بالطحالب المبتل الذي يمتد في الضباب على مدى البصر، بلون بحر داكن، مع لسان الثلاجة الرمادي على البُعد، وفي الأعلى حوض السد، والشيء الوحيد الذي يصلني بحياتي الماضية هو هذا الرباط حول الكاحلين، وهو الخط الموصل الوحيد الذي سيقودني إلى أناي الجديد، إذا ما جرى كل شيء على ما يرام.

والشاب على سُطَيحة التنفيذ يربت على كتفي مشجعاً، ويعتمر قبعة زرقاء صوفية ويرتدي كنزة بقبة ملفوفة تحت سترته الجلدية.

- يفضّل غالبية الناس المشي ببساطة حتى الحافة من دون تفكير بما سيفعلونه.

أسأله عن سنّه، ثم، لربح بعض الوقت، عن تاريخ ميلاده، وبما أن مظهري لا يدلّ على الرغبة في القفز ما إن أبلغ الحافة، يقدّم لي سيجارة.

- أتريدين أن أدفعك؟ يقول عندما أنتهي من استنشاق الدخان فلا يجرؤ كل الناس على القفز بأنفسهم.

وبدأ الهرج ضمن الجمهور المتزاحم في الأسفل، ونحن معاً، أنا والجلاد، جاثمين على السَّطيحة وهو يستعدّ لسحب الكرسي من تحت المرأة التي ستُعلَّق على المشنقة.

- أتريدين أن أدفعك؟ يكرّر. إنها فرصة فريدة للقفز في الهواء، ولا يجب عليك أن تقلقي، لأنك سترتدّين ثانية. ألا ترغبين في أن تُعَلّقي في الفراغ؟ أتخافين من الحريّة؟

أجمع كل خبراتي في ذكرى واحدة أخيراً، ها هي:

كنت في السابعة وراعية للدجاج في الريف، وعلى كومة الزبل كانت تنمو الأعشاب الأشهى بالنسبة للطيور. فإذا نجحت في عدم الانغراز، فسأتمكّن، سريعاً، من التقاط حزمة من العشب الأخضر بالمقص الكبير الصدئ. وستبيض الدجاجات بعد يومين بيضاً ذا صفار برتقالي ضارب إلى الحمرة وليس شاحباً كما في السوبرماركت. وهناك تعلّمت المجازفة، والتقدّم إلى الطليعة. لكنني بالمقابل جازفت بالغوص حتى أذني في زبل البقر، وقد حدث لي فيما بعد، أن اخترقت القشرة العديد من المرّات لأجد نفسي في الغائط إلى عنقي. ومع ذلك، فعلى كومة الزبل يمكن لزهور أن تنمو. إذ يعطي نبات اللُّبَيْن الأبيض زهوراً جميلة، وطعمه حلو ولذيذ في السلطة.

في الواقع، لا أستطيع أن أكون أكثر سعادة، لأنني أبدأ بمعرفة من أنا، أبدأ بأن أصير امرأة أخرى، أن أصير أنا نفسي، وآخر شيء أراه قبل القفز هو الولد الصغير في الأسفل، بأذنيه البارزتين وفمه المفتوح بصرخة خرساء، إنه آخر شيء أتذكّره.

54

- لقد نالك سوء حظ لا يـصدّق، يقـول لي الطبيـب، ولا يمكـن تفـسيره تقريبـاً. إذ يبدو أنك قفزت إلى الجانب فنجحت بطريقة مـا في تحقيـق المـستحيل، ارتطـام يـدك بحافة مركب الصيد **غودفينا كريستيانسدوتير**.

إنه يشبه طبيباً في رواية، وسيم يوحي بالثقة، يداه صغيرتان - ومن النادر التعـرّض لليدين في الكتب التي تتحدّث عن أطباء.

- لقد استعرضنا إجراءات الأمان وكان كل شيء على ما يرام، فقد قفز أحد عشر شخـصاً قبلك، ولم يحدث شيء، ترى هل لديك ميول انتحارية؟ وما أنقذك هو الحبل المطاطي الذي ارتخى، وتسبّب نوعاً ما في الهزّة النهائية لـلـهبوط. ولقد كُسِر رسغ اليـد اليمنـى، وتخـرجين بأقل ضرر ممكن، نظراً للظروف.

وعندئذ أتذكّر.

- أين الصغير؟

- ابنك ينتظر في المدخل، إنه يُركِّب ألغوزة صور.

يؤتى به إلى غرفة المستوصف حيـث يَجلِـس مرتفعـاً أمـامي، عـلى طـرف الـسرير، فينظر إليّ بقلق.

يا للإهمال! لقد كاد ابني أن يـصير يتـيماً. بعـدما تعانقنـا حـسب الإمكـان، يفـتح الصغير فمه للطبيب ليريه سنّاً، إنها تتحرّك.

- إنه لا يزال صغيراً على فقد سن، لكن هذا قد يحدث، يقول الطبيب.

يغلق الصغير فمه، ويستدير الطبيب إليَّ.

- كيف تشعرين؟

- أنا بخير.

- ألا تتذكرينني؟

إنهم يقولون هذا دائماً، فليس في الأمر ابتكار؛ إذ هي المرة الثالثة في ثلاثة أيام التي أُسأل فيها هذا السؤال العويص.

- كلا، هل عليّ أن أتذكّرك؟

- كناً معاً في الثانوية، وأجرينا امتحان البكالوريا معاً، كنت أنظر إليكِ كثيراً، من دون أن أوجّه لك الكلام قط. فقد كان لديك مظهرٌ طفولي أكثر من اللازم في رأيي - لكنني أتذكّر أنه كانت لديك موهبة خاصة في اللغات، وتتكلّمين العديد منها، بما فيها لغات لم نكن نتعلّمها في المدرسة.

وأسترجع الذاكرة فجأة. فقد كان وجد سريعاً صديقة كان يجلس معها في زاوية ممسكاً بيدها؛ وكان هذان الاثنان منعزلين ولا يحضران حفلاتنا. وهما لا يزالان معاً في الواقع، فها هي تتقدّم إلى جانبه وتضع لي شريطاً على ذراعي لقياس الضغط فيقوم بالتقديم.

- أتذكرين غوغا؟ لقد درست في مدرسة التمريض.

وتحييني بأسلوب مهني، من دون أن تحيد عن مهمتها.

تدخل مساعدة ممرضة وتضع صينية طعام أمامي، وتقترح أخرى على الصغير فيرفض هازّاً رأسه. لست جائعة ولكنني معتادة على فعل ما يُطلب منّي، وأتوصّل إلى ازدراد نصف قطعة سجق تقريباً وشيئاً من المرق الأبيض باستخدام يدي السليمة، قبل أن أتقيّأ كلّ شيء.

ويعتريني ألم في الجانب الأيسر من الصدر؛ وقلبي ينتفض وأشعر كأن يداً تعتصره. يتوقّف عن النبض للحظة، منتظراً معرفة ما إذا كانت هذه اليد ستهرسه، وأجد صعوبة في التنفّس.

أقول إن قلبي يؤلمني.

- بعد هذا الإنذار، سيكون من الأفضل أن تفهمي بواعثك. لماذا قفزتِ؟

- ماذا تعني؟

- كان سجق الحصان هذا اختباراً لحريّة إرادتك، فقد كان بإمكانك رفضه، يقول الطبيب.

وينظر إلى الممرضة، فأشعر بأنهما من العالم ذاته وأنهما قريبان.

- ألم يكن من سجق العجل؟

- كلا، بل الحصان، لكن الأمر سيان، فقد وجدتها رديئة، كما يظهر.

يتبادل الدكتور والممرّضة نظرة تفاهم من جديد.

- أليس هذا ما يجب على المرضى الاكتفاء به؟ أقول.

- ماذا تحبّين في الحياة؟

يكلّمني كما يكلّم طفلاً في الرابعة، من دون أن يغادر زوجته بعينيه، وأردّ كامرأة بالغة.

- أحبّ جداً أن أكون مع ابني وأجري في الخارج. أقول وأنا أنظر إلى الأصابع المجهولة التي تتجاوز بياض الجبيرة الناصع، وأحب أيضاً التزلّج على الجليد.

ولا يبدو لي أن من اللائق إضافة شيء آخر.

- سيفيدك هذا، يقول موافقاً، عندما يتحسّن الطقس.

حينما نخرج من المستوصف، كان أستاذي الخاص في لغة الإشارة ينتظرنا في السيارة المُدَفّأة.

55

هو حزين بالفعل لأنه حثّني على القفز ويبدو عليه القلق حقاً.

- لم أكن أتوقّع أن تفعليها. ولم أكن أعني كلمة مما قلتـه، ومـا هـي إلا حماقـات، فلم أكن أظنّ أنّك طيّعة إلى هذا الحد.

ولأن عليه أن يمضي نهاية الأسبوع في ريكيافيك لرؤية ابنتيـه، يـصمّم عـلى إعارتنـا منزله لأستعيد صحتي. إذ يخشى أن يكون الشاليه الصيفي بارداً ورطباً هناك في الأعلى. ولا أزال شديدة الاضطراب بحيث أسـتطيع التعبـير عـن رفـض منطقـي، وإلا لأبـديت إرادتي الحرة قائلة:

- شكراً على اقتراحك، ولكنني خططت لكل شيء وكل شيء عـلى مـا يـرام بالنـسبة لي.

- إن الثلاجة مملوءة - على غير العادة، فقد تموّنت بكل شيء، وأتـرك لـك الكلبـة، ويكفي أن تقدّمي لها الأكل وتتركيها تخرج إلى الحديقة. ولا يـساورنك القلـق، يـضيف مبتسماً، فلن تضع قبل أسبوعين وسأعود الأحد مساء، أنا متأكد من أنكما سـتتفاهمان جيداً، فصحتها واهنة، هي أيضاً.

- أشكرك.

- والقطيطة لا تسبب مشكلة هي الأخرى، ليس للكلبة على كل حال.

وهكذا ننتقل لنهاية الأسـبوع، مـن أعـلى الـوادي إلى الـشاطئ في الأسـفل، ومعـي القطيطة.

في لحظة الوداع، يداعب الكلبة أولاً من الأعلى إلى الأسفل، فهو لطيف مع الحيوان، ويربت على رأس الصغير ويلاطفني أخيراً وهو يسوّي جبيرتي.

عندما يسكن امرؤ منزل شخص غائب، وينام في سريره، ويأكل في صحنه، ويلمس كتبه بفتحها أحياناً وقراءة شيء منها، يتولّد تفاهم غريب شيئاً فشيئاً، يَقْرُب من المودّة. وإلا فما نوع هذا الرجل الذي يُجَمِّع الكتب عن القديسين والحدائق اليابانية؟ إن القمصان معلّقة على مسافات منتظمة في خزانة من دون باب، وهي بيضاء، إلا واحداً، بلون فاقع، ولا يبدو أنه يملك ربطة عنق واحدة. والثلاجة مملوءة بالفعل، حتى إنه اشترى طعاماً محفوظاً للقطيطة. ومن دون أن أتحيّر حول ميول مضيفنا الغذائية، ألاحظ مع ذلك وجود أربعة أنواع مختلفة من زيت الزيتون في المطبخ، وأربعة أنواع من الخل.

- لقد شويت فخذ خروف لأجلكم، يقول وهو يغادر، آمل أن يكون لذيذاً، وما عليك إلا تسخينه، وستستطيعين فعل ذلك، فقد هُيّئ كل شيء خصيصاً لوحيدة الذراع، وطُهي اللحم على نار هادئة لأربع ساعات بطولها بحيث يمكن أكله بالملعقة.

إن أغطية السرير لدى الرجال المطلّقين جديدة على وجه العموم. فنادرون هم الذين يأخذون الأغطية والبطانيات معهم، ويفضّلون شراء زوجين من كل شيء في البداية، ثم بعد بضعة أسابيع، يشترون زوجين من كل صنف، بالنموذج ذاته ونادراً من اللون الأبيض، بل من المخطّط بالخطوط الزرقاء، كالشراشف التي ننام فيها، كما أن الصحون وطقم

القهوة منسجمة ولا تزال كاملة؛ فقد اشتُريت المجموعة دفعة واحدة ولم تُحدث فيها أية امرأة أي خدش حتى الآن.

تستقبل الكلبة القطيطة جيداً، مبدية لها شيئاً من الصداقة وحتى بعض العطف الأمومي، قبل أن تستلقي على جنبها للنوم، وبطنها وأثداؤها ظاهرة للعيان، وتختبئ القطيطة تحت الأريكة، ولا تريد الكلبة الأكل ولا الشرب ولا اللعب، فيستلقي الصغير إلى جانبها ويربت عليها قبل أن يغطّيها بلحاف.

ولا تريد من أحد أن يربت عليها، فتنهض بصعوبة على قوائمها وتتجوّل من دون هدف في المنزل، متفقّدة الزوايا والأركان قبل أن تتمدد أخيراً وراء باب الغرفة الأكثر بعداً عنّا، حيث الظلمة. الصغير يجلس على الأريكة وينهي حياكة حِز أصفر، أُحِس بالإنهاك وأظنّ أن لديّ الحمّى، وأن الكلبة متعبة، هي أيضاً، وخطمها ساخن - فلديها الحمّى من دون شك. وعندما أحمل لها الماء لتشرب وراء الباب، أرى أوّل الجراء وقد وُلد. وبينما تقوم بلعقه نبدأ في رؤية التالي. ستولد ثلاثة، كلّها مرقّطة بالأصفر، وفي غضون ذلك، لم تُصدر أيّ صوت.

56

إن المنخفضات الجويّة توشك على الانطلاق، قريباً منّا، إذ تتجمع الواحد تلو الآخر، قبل أن تجتاح الجزيرة. وقد هطلت الأمطار من دون توقّف تقريباً لستّة أسابيع، فسُدّت المجاري، وبدأت الأقبية تُغمَر بالمياه، ويتسرّب الماء إلى الأحذية ومن فتحات الثياب، ويحتاج الأطفال إلى جوارب وسراويل جافة عدّة مرّات في اليوم، ولا يتحسّن الطقس إلا بما يكفي ليسرع الناس إلى الدكاكين لتبديل أقراص الـDVD وشراء شيء يأكلونه؛ ويظلّ الكثيرون في المنازل من دون أن يلاحظوا فترة الهدوء الوجيزة التي كان من الممكن أن تسمح لهم برؤية هلال كانون الأول.

ويتأخّر النهار في البزوغ، فنحو الظهيرة أخيراً، يتشكّل ضوء ضعيف فوق الميناء، كحزوز من الضياء في الظلمة المُسمَرّة، وبينما نتكاسل تحت اللحاف، نقوم بملء شبكات الكلمات المتقاطعة، فيساعدني تومي في العثور على كلمة مؤنثة تبدأ بالحرف ب.

ثم ينهض لتنسيق هرم ثمار المندارين في الوعاء؛ حتى يصبح مرتفعاً وجميلاً، فيضيف إليه ثماراً من دون توقّف.

أما القطيطة المخططة فتجتاز الغرفة عدّة مرات بالورب، وقد توقفت عن السير بخط متعرّج، وعن القفز جانباً وشرعت مؤخراً في المشي على قوائمها الأربع في خط خيالي مستقيم. وتراقب بشغف حركات العصافير الصغيرة في الشرفة؛ وستتحوّل بخطىً وئيدة ولكنها ثابتة إلى قطّة صيد ماكرة.

وفي صباح أحد الأيام، كان عصفور ثلج صغير ملقى على الأرض ميتاً. وما كان من القطيطة إلا أن لاذت بالفرار. يلتقط الصغير العصفور ويضمّه بقوّة إلى صدره، فأفهمه بأننا سندفنه فيما بعد، لكنني أجد العصفور بعد ذلك في سرير الطفل، إلى جانب علبة مقتنياته العزيزة عليه.

عندما ارتدينا ملابسنا الواقية من المطر وتهيئنا أخيراً لمهمة الاستطلاع، عند الظهيرة تماماً، كان الغروب يقترب. مرحلتنا الأولى والأخيرة هي الملعب. وأنا ممسكة بالصغير بيدي السليمة. وهو يرتدي كنزته الجديدة الخضراء تحت أفرولة الواقي من المطر.

إنه يزن ثلاثة عشر كيلوغراماً، وأنا ثلاثة وخمسين: ولكي نكون كلانا في حالة توازن على الرجّاحة، يجب عليّ أن أجلس في منتصف القضيب تقريباً، وهو لا يريد تجربة الرجاحة ذات القضبان للتسلّق؛ وعندما يصعد أو ينزل الدرج، يبدأ دائماً بالرجل ذاتها؛ فثلاث درجات تمثّل هوّة سحيقة. بعد هذا، نجلس على الكراسي البلاستيكية البيضاء في البوفيه، ونطلب مثلّجات بالشوكولاته.

لقد انتهى من زركشة جبيرتي، إذ رسم عليها رفشاً، وأسماكاً أيضاً وبعض النباتات البحرية، ومن المقرر ألا نذهب للسباحة لمدة أسبوع. فاقترح صديقي اصطحاب الصغير إلى المسبح ساعة. وستكون تلك المرة الأولى التي يغيب فيها عن عيني لمدة بهذا الطول خلال ستة أسابيع.

- سأعتني به جيداً، يقول، لا تقلقي.

والصغير مسرور.

وبينما الاثنان في حوض السباحة، أستلقي على الشرفة وفي يدي كتاب رديء، ولفاع يلتف على عنقي لعدة مرّات. ترى كم من النساء يمكن لهن

التمتّع بمثل هذه الرفاهية في هذه الدقيقة بالذات؟ وهل لامرأة تحرّرت مؤخراً أن تطلب أكثر من هذه الغبطة الآنيّة؟

- انظري ما جلبت لك، يقول أبي، وسط كومة من الكتب.

نحن في زيارة لدى بائع الكتب القديمة.

- هاكِ، إنه لك، يقول وهو ينفخ الغبار من على الغلاف.

ويسارع هذا الرجل الذي يضع باخ في الذروة مضيفاً:

- هناك موسيقا في هذا النص، وإذا لم تسمعي الموسيقا، فلن تفهمي القصّة. تنقصه بعض الصفحات ويتوقّف السرد وسط جملة. فسيكون عليك إذن أن تبتكري النهاية، وتحيكي حل العقدة، ألا ترغبين في هذا؟ لقد قرأته منذ سنوات وأتذكّر أنني لم أكن راضياً عن النهاية. إذ كنت أتوقع شيئاً أمراً أكثر حسماً بين أبطال القصة، فلا تنفض امرأة الغبار عن كتف رجل في حفلة استقبال إلا إذا كانت على علاقة حميمة معه، أليس كذلك؟ والنهاية التي ستبتكرينها ستكون أفضل بالتأكيد.

ويربت على وجنتي مبتسماً.

57

لاجتياز الهوّة، هناك شبه قنطرة أو جسر حجري، وقد تفتّت كثيراً منذ عبوري له آخر مرة، لكنني أصمّم على محاولة المرور وأمطّ جسمي للأمام، دافعة إيّاه ومعتمدة على يدي. ولكن الجسر ينفتح عندئذ لوحده فوق الهاوية السحيقة - فمن الواضح أنه مزوّد بمفصلات. وأحدّث نفسي بأن هذا اختراع عبقري، ولكن في اللحظة التي أتساءل في قرارة نفسي عمّا إذا كان عليّ القفز من فوق الهوّة، يوقظني رنين. فأقفز من السرير لأبحث عن هاتفي الجوّال؛ وأعثر عليه في إحدى جيوب معطفي الواقي من المطر. إنها الساعة الرابعة وسبع دقائق.

هو زوجي السابق، الموجود في العاصمة في مكان يقول إنه احتسى فيه الجعة طوال الساعتين والنصف السابقتين، ويحاول منذ أربعين يوماً تقصّي أثري ليقول لي إنه رزق بطفلة، وقد أرسل إليّ صورة بالبريد الإلكتروني ولم يتلقّ جواباً منّي. فأعطته حماته السابقة أخيراً رقم هاتفي.

- إنها رائعة، صغيرة وعذبة، يقول.

- تهانيَّ.

- لا لزوم للهرب من الناس بهذه الطريقة، والاختفاء. فلديك الآن عنوان جديد، ورقم هاتف جديد، ما الجريمة التي ارتكبتها؟

- لست في حالة فرار، بل في عطلة.

- أن نكون مطلّقين لا يعني أن علينا قطع كل اتصال، أليس كذلك؟

يريد أن يعرف ما إذا كان أيقظني.

- علمت أنك قد جُرحتِ.

- من قال لك هذا؟

- أمك، في طريق عودتها من الهند.

- في الأمر مبالغة، فقد نزعوا عنّي الجبيرة بالأمس.

- كيف حالك، فيما عدا ذلك؟

- على ما يرام، شكراً.

- خطر لي أن أزورك، والمجيء لتحيّتك.

- كنت أظنّ أنك مشغول جداً، مع المرأة والطفلة.

- مشغول ولست مشغولاً.

- ماذا تريد مني؟

- أتريدين أن أقول لك بِمَ تتميّزين؟

- بماذا؟

- كنت دائماً رائعة هكذا، بصوتك الناعس، وكأنك استيقظت لتوّك.

- لست متأكّدة من صواب فكرة مجيئك.

- أخبرتني أمك أن الطريق غير سالك، وإذن فإن الطيار الهاوي هو الذي سيأتي لرؤيتك بطائرته الخاصة.

- ما تقول نيناليند في هذا؟

- من المستحيل الاقتراب منها أو من الطفلة بسبب صديقاتها، فالشقة تغصّ بهن، وإذا لم يكنَّ عندها، فهي والطفلة تكونان عندهن، وعندما أدخل الصالون في بيتي، يصمتن فجأة، ويبدو عليهن الانزعاج، فما من شك في هوية الشخص الذي يتكلّمن عنه، ولا في طبيعة المشكلة التي يحلّلنها.

58

يُسمع صوت الطائرة قبل نزولها صفراء من بين الغيوم الرمادية فوق السهل. ينظر الصغير إلى الطائرة وهي تميل بجناحيها فوق الشاليه الصيفي، وما من التباس حول هويّة الطيّار.

كنت أستخدم سيارة أمي وعندما خرجت من المطعم مع أودور، كان ثمّة صاروخ من الورق الأبيض تحت إحدى مسّاحتي الزجاج.

«في السماء السابعة، دروس خاصة في قيادة الطائرات، عرض خاص في عشر ساعات.

أنت أيضاً، حقّق الآن حلم إيكار!

الدرس الأول مجاناً، و11% حسم على الدرسين التاليين. طريقة الدفع قابلة للتداول».

إن الدوار لديّ أسطوري وليست الطائرات بالنسبة لي إلا وسيلة تسمح لي بالهروب من الجزيرة. ومع ذلك فإن ذكر إيكار يجذب انتباهي: أفليس حلمه هو الذي أودى به؟ وعلى الرغم من تحذيرات أودور التي لا تعير أي اهتمام للرسالة، أقرّر مهاتفة زوجي المستقبلي. وسيتبيّن أن الإعلان لم يكن موجّها إلا لي، ولم أضع رجلي قط في طائرته.

يتجه الطيف صوبي، في الشفق المُسْمَر لوسط النهار، سائراً على الأرض المحصبة صاعداً المرتفع. وهاهو على الشرفة، بأنوراك برتقالي. ما به يضيع الوقت، هل سيدخل أم لا؟ إنه يشعل عود ثقاب يكشف ضوءه الأحمر عن

طرف سيجار. أرى صورتي منعكسة على زجاج النافذة ولا أتحرّك. وكأنما لمحني لتوّه، يلقي بسيجاره أرضاً ويسير نحوي.

إنه واقف على الشرفة ويداه في جيبي الأنوراك، حيث يبدو لي مألوفاً ومجهولاً في الوقت ذاته. ففي ذاكرتي، كان مختلفاً، وأكبر سنّاً، أو أصغر سنّاً؟ وهل كانت له لحية؟ وهو أول شيء ألاحظه، غياب اللحية، وملامح الوجه الأكثر بروزاً لذلك، ألم يكن أطول قامة؟ إذ يبدو لي ذا قامة متوسطة بالأحرى في شق الباب. أهو حذاؤه؟ المجهول لدي. ويشهد بلاه على حياة أخرى، وحتى لون عينيه الرمادي يدهشني؛ فقد كنت متأكدة من أن عيني زوجي السابق كانتا بنّيتين.

- هذا من عند أمك، مع تحياتها. ينبغي وضعه في الثلاجة.

وفي الصندوق، أسماك السلمون والراقود والمشط إضافة إلى القريدس وكريّات السمك المقليّة. وهناك في القاع رزمة ملفوفة بورق الهدايا ومربوطة بشريط أزرق وعليها اسم الصغير. وألمح من نافذة المطبخ مصنع تبريد وتحضير القريدس الذي خرجت منه الأسماك بالتأكيد.

- ألا أدعى للدخول؟

والصغير إلى جانبي عند شق الباب يمسك بيدي، ويشير بأصبعه بإلحاح إلى الخيط الذي يخرج من أنوراك زوجي السابق الذي كان في الأوقات العادية شديد العناية بنفسه. فأقوم بالترجمة:

- ثمة زرّ ناقص.

- بسكويت، يقول طفلي بصوته الأجش، مشيراً بأصبعه نحو جيب الرجل الذي يتحسّس داخله.

- هل أستطيع الحصول على بسكوتة، أقول.

ويؤكد الصغير ترجمتي، بمدّ يده وإلحاح نظرته.

ويبدو الحرج على زوجي السابق؛ وينطفئ بريق عينيه لحظة مغادراً بنظره عنقي. يسحب من جيبه نصف رزمة من البسكويت بالشوكولاته بغلافها المكرمش، ويبتسم الصغير.

وعندئذ أدرك، كما لو أنني عثرت على قطعة مفقودة من ألغوزة صور قديمة، أنه يميل إلى الطعم الحلو للبسكويت المزدوج المحشو بالكريما، فلبشرته، ولجسمه كله، طعم الكريما بالفانيليا وسط البسكويت.

- أليس هو في الخارج للعب مع رفاقه الصغار، ألا تستطيعين أن تجدي له حاضنة؟

ويواصل أثناء كلامه إخراج أشياء من جيوبه كالمحكوم الذي يفرغها ويضع محتوياتها بعناية على الطاولة، أمام حارس السجن، بينما يمسك الصغير فرحاً برزمة البسكويت بكلتي يديه، ويُخرج طليقي أخيراً صورة لابنته ويريني إياها. إنها صغيرة، سمراء، حمراء الوجه وتشبه كل المولودين حديثاً، ثم يشرع في خلع ملابسه، فينزع الأنوراك، والحذاء، والكنزة وعندما يخلع جوربيه، أتساءل عما إذا كان سيخلد للنوم.

وبعد جلوسه، يخبرني بأنها تغار مني ويسألني عما إذا كنت، أنا أيضاً، أغار. فأقول إنني لا أغار. فيسأل لماذا، وعمّا إذا لم أعد أحبه. فأوافقه إلى حدّ ما، إذ يصبح مجهولاً بالنسبة لي، وقد توقفت عن رؤيته ورائي كالسراب ألمحه بطرف عيني عندما أنظّف أسناني أمام مرآة الحمام، كما توقف هو عن مراودة أفكاري وقراءاتي، وبدأ في الاختفاء والامحاء، ويتعذر عليّ من الآن وصاعداً تمثّل صورته، إذ بدأت في الخلط بينه وبين غيره من الرجال. وأؤكد له إنني لا أزال أكنّ له مشاعر حارة نسبياً، أكثر حرارة على كل حال

من مشاعري إزاء راعي الكنيسة القريبة الذي لم ألتقيه بعد وإزاء الطبيب البيطري الذي التقيته بالفعل.

وأثناء كلامي، يُخرج قصّاصة أظافره ويستغرق في العناية بأظافره.

أتركه يهضم هذه المعلومات وأسرع إلى المطبخ لتحضير الشوكولاته الساخنة، وقد تبعني الصغير؛ وهو يصف قطع البسكويت على صحن للزائر.

- لقد تغيّرت بطريقة ما، يقول لدى عودتي، ولا أتوصّل إلى فهم في أي شيء، الشعر ربما، أقصصته؟

- كلا، بل أتركه يطول.

يخبرني عندئذ أن حياته الزوجية ليست على ما يرام.

- في البداية، كانت مستعدّة للانصياع والطاعة.

- ستتمكّن من دون شك من تعليم ابنتك شيئاً في القريب العاجل.

- إذا لم تتحسن الأمور بيني وبين نينالينـد - وهو ما يبدو مرجّحاً -، سيمكننا محاولة تجربة جديدة؟

- كنت أعتقد أنك لم تعد تحبني.

- الحب، عدم الحب! لم تجيبي عن سؤالي.

- كلا، فهذا مستحيل.

منذ فترة كان يجب التوقّف، ليس لأن كل شيء انتهى بالضرورة، بل لأننا قررنا وضع كل هذا جانباً. ثم أقول له إنني تغيّرت وعشت أشياء كثيرة من دونه.

- في أربعين يوماً؟

- كلا، خلال عدة سنين.

فتبدو عليه خيبة الأمل.

- يمكن لنا مع ذلك الالتقاء، والذهاب إلى المطعم معاً.

- لا أظن.

- ألن نعود أصدقاء إذن؟

- هل لهذا فائدة حقاً، إذ ليس لدينا أطفال معاً؟

- انتظري قليلاً، من الذي لم يكن يريد أطفالاً؟

- أنا، كما أفترض.

- حقاً، لقد تغيّرتِ.

يصفق الباب وراءه، ولدى عودته بعد ربع ساعة، يقف من جديد على عتبة الباب، واجماً، ويداه في جيبه. يقول إنه لا يستطيع التحليق في الظلام ويسأل عمّا إذا كان يستطيع قضاء الليلة هنا. أجيبه بالموافقة، مع العلم أن المكان إلى جانبي مشغول.

- ألا يمكن إزاحة الصغير قليلاً، عندما يستغرق في النوم؟

- لا مجال لذلك البتّة.

ينظر الصغير إلى زوجي السابق نظرة انتصار وهو يرتدي بيجامته الزرقاء المزيّنة بالفِيَلة.

59

عندما أستيقظ صباح الغد، كان إلى نصفه خارج كيس النوم، تتدلّى ذراعه إلى الأرض كجسد حميمي ومجهول. ومن زاوية فمه وعلى ذقنه يسيل لعاب؛ بالتركيب الكيميائي ذاته للآلاف من أمواج البحر. فهناك محيط بيننا. وعندما يستدير يظهر أثر الجرح واضحاً على ظهره. فإذا لم تسعفنا موضوعات الحديث عند الفطور، سأتمكّن من سؤاله مرة أخرى كيف أصيب به، ولكن ما إن تحلّقنا حول المائدة، حتى أدرك أن الجواب لم يعد يهمني.

تدور فراشة فوق كيس النوم، مُشكّلة حلقات غير منتظمة. وتخونها قواها فجأة وتسقط، فتتحرّك بشدّة، محاولة النهوض على ذقن زوجي السابق الذي يُبعد الدغدغة بذراعه الشعرانية. وأتابع كفاح الفراشة في سبيل البقاء وأشعر فجأة بضرورة إنقاذها. أحاول أولاً أن أتلقّاها على ورقة من دون أن أوقظ النائم؛ وآخذ أخيراً مرطباناً من على الطاولة وأقلبه على وجنته، بشدّة ربما. فينتصب دفعة واحدة، ودائرة حمراء على وجنته.

- أتضربينني؟

- كنت أحاول إنقاذ الفراشة.

- آخر مرة ضربتني فيها، كانت ذبابة، في شهر تشرين الأول، والآن فراشة.

- لقد اختفت.

- أنت لست سويّة، إذ تضربينني كلما التقينا.

وعندئذ يلقي بنظرة على ساعة الحائط؛ فعليه أن يخرج لمكالمة هاتفية خاصة. وكالكنغر، يجرجر قدميه، وكيس النوم ملفوف حول جسمه، إلى الشرفة - فالمكالمة هناك أفضل.

وبينما يصحو من الصدمة، أحضر فطور الصباح، فأنتبه إلى أنني نسيت كيف يحب البيض: نصف مسلوق، متوسطاً، جامداً تقريباً فيما عدا الصفار، مقلياً؟ ترى ما الداعي لدعوة شخص بهذا التعقيد إلى الفطور! وبما أن الصغير يقف إلى جانبي، أتمكّن من معرفة زمن السلق على ساعة الطلاق التي يضعها على رسغه بعدما غيّرت سوارها. ويرى زوجي السابق أن سبع دقائق تكفي لبيضة دجاجة. أما الصغير فيتشاغل حول الضيف ناظراً إلى الساعة من وقت لآخر.

- انتظري! إنه يضع الساعة التي قدّمتها لك؟ كيف يحدث هذا؟

- نعم، إنها له.

- وقد استبدلت السوار الذهبي، والعبارة المنقوشة عليها؟

- هل كانت عليها عبارة منقوشة؟

- لن تجعليني أصدّق أنك لم تري العبارة!

ألاحظ فيما بعد بطرف عيني أنه يتصفّح مذكّراتي الخاصة، ويستعرضها بسرعة؛ ويلوح لي أنه يقول شيئاً في غرفة المعيشة، لكن صفير المغلاة يمنعني من فهم كلامه. ولدى عودتي، أجده جالساً على الأريكة، بسرواله التحتي الطويل وجواربه البيضاء. وقد طوى كيس النوم، ولديّ انطباع بأنه بكى.

- إن ما تتميزين به، هو أنك لم تكن لديك قط متطلبات.

أجلس عندئذ بجانبه وأربت ذراعه للحظة قبل أن أتنهّد:

- أجل، إني أفهمك جيداً، ولكن يأتي وقت يجب أن نتخذ فيه قراراً. ارجع الآن إلى نينالينـد.

- ربما أكون شخصاً تعيساً، ولكنني لست نذلاً.

يتجه إلى نافذة غرفة المعيشة ويبقى هناك دقائق طويلة، وظهره العريض إليّ، إذ يتأمّل الظلمة الصباحية.

- إن الظلام هنا لا يصدّق.

ولا يجد لحظة المغادرة لفاعه.

- إذا ما عثرت عليه، هو بنفسجي بحزوز صفراء وأهداب بنيّة؛ إنها نينالينـد التي حاكته.

وقبيل الانصراف، يسأل عما إذا كان هناك رجل آخر في حياتي، ولا أردّ على السؤال.

- أرى أنك تتسرّعين في الأمر، يقول. فما تكادين تغيبين عن عيني حتى أجدك وقد تزوّجتِ.

- في هذا مبالغة.

- يمكن لنا أن نمضي حياة جميلة نحن الاثنين، الذهاب إلى مكان ما وعمل أشياء كثيرة.

وعندما يصل إلى الشرفة، يستدير فجأة ويضمني بين ذراعيه بقوة، فألاحظ أن أنوراكه الواقي من المطر ذو نوعية جيدة ويعزل جيداً.

- أود أن أخـبرك فقـط أننـي أرسـلت لتـوّي رسـالة إلى نينالينـد لأطلـب منهـا أن تتزوجني.

ثم يسير بضع خطوات قبل أن يستدير مرة أخيرة ويسألني:

- هل لديك فكرة عن المكان الذي قد يوجد فيه صندوق زينة نويل؟

- ألم يبق في الغرفة الصغيرة؟

- انتظري! هل تركت كل الأغراض في الغرفة الصغيرة؟

- لقد نسيتها، أولم تأتِ لأخذها؟ أكياس النوم كانت هناك أيضاً.

- يا إلهي، لقد تركت للمالك الجديد احتياطياً من الورق الصحي لعام وكيـساً مـن أنياب فيل البحر من غروئينلاند وكل زينـات عيـد المـيلاد، بمـا فيهـا الرنـة التـي تغمـز وتغنّي؟

لدى دخولي إلى البيت ألاحظ أنه ترك مع ذلك كلمة صغيرة لي على الطاولة.

60

الطفل مشغول بالحياكة، فأخبره بـأنني سـأخطف رجـلي فقـط إلى الـدكان لـشراء بعض الخوخ المجفّف من أجل حساء سمك الراقود؛ وبدلاً مـن الـسيارة سـأنزل جريـاً، وأشرح له الأمر في ثلاث نقاط: إنني سأجري حتى الدكان فقط وأن عليه البقـاء هادئـاً ومواصلة الحياكة. فيهزّ رأسه ويُدخل الصنّارة في الـسَّردة، بيـنما يلتـفّ خـيط الـصوف على الإصبع الوسطى لفتين.

إنها المرة الأولى التي أتركه فيها وحيـداً، فأحـثّ الـسير، إن الخـوخ المجفّـف مخبـأ بعناية في الدكان؛ فأطلب من فتاة الصندوق أن تساعدني، لكن هناك زبونين قبلي.

وعندما أصعد المنحدر ثانية وأنا أركض، أراه مقبلاً إلى لقائي، بجوربين مبتلّين تماماً. يمدّ لي ذراعيه فأرفع وزن الريشة هذا. وقد تغيّر وجهه مـن القلـق، واعترتـه التجاعيـد كعجوز صغير، ولا تُرى عيناه وراء النظّارة التي تغشاها الدموع، وقلبه يخفـق بـسرعة كقلب عصفور صغير. وتعود إلى ذهني أوصاف أودورا لـه عنـد ولادتـه، في الحاضـنة - لقد كان شبه شفاف وجلده من الرقّة بحيث كانت الأعضاء الحمراء تُرى من تحته.

- كدت أموت، يقول، لقد ظننت أنك تركتني.

يحيط رقبتي المبتلّة بذراعيه، وأريه رزمة الخوخ المجفّف.

- هيا بنا، أقول، سنصنع الشاي، ثم نعمل الحساء كما تعمله أمك. وسنذهب، مـن بعد، إلى السينما. هل ذهبت يوماً إلى السينما؟

ولم يكـن يعلـم أننـي دعيـت إلى الـسينما وأننـي فكّـرت في وضـعه تحـت الرعايـة أثنـاء هـذا الوقـت. إذ يُقَـدّم مهرجـان للأفـلام الإيطاليـة في القريـة؛

فستعرض ثلاثة أفلام، على مدى ثلاثة أيام خميس على التوالي، وستجري مرافقتنا إلى الشاليه الساعة العاشرة، وهو وقت متأخر قليلاً من دون شك لطفل في الرابعة.

نذهب بالسيارة، ويطمئنني عامل شباك التذاكر الشاب على أن الطفل لن يصاب بأي ضرر، حتى ولو لم يعلن البرنامج أن الفيلم مخصّص للأطفال. ونتخذ مكاننا في الطابور وراء ثمانية متفرّجين آخرين. ويمسك الصغير البطاقات بيده الممدودة، والجميع ينظرون إلينا.

يُقبل صديقي علينا، ويقبّل وجنتي ويصافح الصغير - إذ يتبادلان التحيّة كالرجال. والناس الذين يقفون في الطابور يتابعون حركاتنا. أسأل تومي عما إذا كان يوافق على انضمام صديقي إلينا، وهو موافق. ندخل القاعة، حيث يختار الصف الثالث، في الوسط، ويجلس بيننا نحن الاثنين. إن الموضع قريب جداً من الشاشة، ولا أدري إلى أي حد يسمح له بصره برؤيتها. ومن المزعج على كل حال كونه لا يسمع الحوار ولا الموسيقا. أما المتفرّجون الآخرون فينتشرون في الصفّين الأخيرين، بحيث تفصل قاعة السينما كلها بيننا، ونحن على حدة إذن كما في الشاليه، ويبدأ عرض فيلم **الحياة جميلة**.

إن الذهاب مع الصغير إلى السينما لا يطرح أية مشكلة، إذ يظلّ جالساً، لا يتحرّك، أثناء العرض كلّه ويتابع أحداث القصّة على الشاشة. ولا يلمس علبة أقراص النعناع لأنه مستغرق تماماً في الفيلم.

وألقي عليه نظرة بين الفينة والفينة من دون أن أعرف إلى أي حد يفهم القصة، أو لمعرفة ما إذا كان يرغب في أن أترجم له، وأحكي له القصة. لكن يبدو مع ذلك أنه يقرأ الترجمة على الفيلم، وأحياناً ينظر إليّ مطوّلاً. وأحياناً أخرى، ينظران إليّ كلاهما. فأبتسم لهما.

في الاستراحة، يمصّ الصغير حبّة نعناع، ويقدّم لي واحدة وأخرى لصديقنا. ثم يغلق العلبة من جديد. ويعاني من عجزه عن القراءة من شفاه الممثلين، ورؤيته الأفواه تُفتح وتُغلق، والرؤوس تُعَبّر، والناس يُقطّبون أعينهم ويضحكون، من دون التوصّل إلى إدراك الكلمات.

ولخشيتي من ألا يرى الترجمة أسفل الشاشة، ولا يرى إلا شيئاً ما من فوق ظهر المقعد، أرفعه وأجلسه على ركبتي بعد الاستراحة، فلا يتجاوز حجم طفل في الثالثة من عمره وأتمكّن من رؤية الشاشة من فوق رأسه، وينتهز صديقنا الفرصة للانتقال إلى مقعده.

- هل كان ذلك للضحك؟ يسأل تومي عندما تضاء القاعة من جديد.

ترى هل يجب عليّ أن أشرح له أن كل شيء للضحك؟ وأن بالإمكان تبيّن انعكاس الأضواء في الدموع الاصطناعية؟

- كلا، فما نشعر به وما نتخيّله هو الواقع أيضاً، أقول.

- أنت لست بحاجة إلى رجل، يقول من المقعد الخلفي في السيارة بينما أربط حزامه. فأنا لك.

- من يقول إنني أبحث عن رجل.

- تنظرين إليه.

- آه، حقاً؟

- وهو ينظر إليكِ.

ولا أقول له إنني أنتظر زيارة عندما يستغرق في النوم.

61

ما من أحد إلا ويتلقّى زيارة ليلية عاجلاً أو آجلاً.

ولا ستائر على النوافذ - إذ من الحماقة منع دخول الظلمات التي لا تُخفي إلا الحصى ونبات الخلنج في الأمام والأرض القاحلة على مدى البصر في الخلف.

إنه هدوء الليل المعتم في الخارج، مع خمس درجات للحرارة؛ وقد صفا الطقس. وللمرة الأولى منذ وقت طويل، هناك نور جميل للقمر يسقط مائلاً كضوء لطيف لمصباح القراءة. بعد هذا النهار الممطر، تُعلّق ثياب على الحبل في مأمن من المطر في الشرفة. في الداخل، كان المشهد كالتالي: انتهيت من قراءة قصة للصغير الذي استغرق في النوم مع القطيطة. وأكتفي بضوء الشموع في غرفة المعيشة، إضافة إلى ضوء القمر، إضاءة يسقطها العليّ القدير من العالم الآخر. وعلى رفّ النافذة بوط أزرق ذو حافة صفراء، قياس ستة وعشرين، وفراشتنا المنزلية تقوم بالدوران - كم من الوقت ستبقى حيّة؟ إنها الساعة الصفر، والدقيقة الصفر، وسبع عشرة ثانية، والحصى يخشخش تحت بوطه.

ذلك لأني لست في اتصال وحب مع القمر، ومع العليّ القدير والنجوم، بل في اتصال حميم وشديد مع بابا نويل الذي يأتي لزيارتي كل ليلة، ليس من المدخنة، ولكن من فوق درابزين الشرفة، إنه يقترب، صاعداً المنحدر بسرعة، وضوء القمر خلفه وتحيط برأسه هالة ورديّة، يقفز فوق حبال الزينة، ويمرّ بوثبة احترافية من الظلمة إلى ضوء الشموع، أولاً، القدمان

بالبوط الجلدي الأسود، ثم المعطف الأحمر بقبّته من الفرو الأبيض والحزام الأسود.

يحمل بيديه ثياب حبل الغسيل وينقر بلطف على النافذة، ثم ينتزع قبعته الحمراء، والرزمة التي يجلبها معه أكبر حجماً من أن تدخل في بوط الصغير.

- لديّ متسع من الوقت لأحكي لك قصة طويلة، يقول.

ألمس أولاً بنطاله مسّاً خفيفاً بحيث لا يشعر بشيء تقريباً، ثم أدلّكه بقوة ليشعر بشيء ما، وأخيراً أدعكه حتى تتشكّل مساحات من البلى عليه. وألتفت بعد هذا إلى الشعر الأبيض، إذ ألفّه حول أصبعي لأجعل منه شلة.

أفك بكلة الحزام الأسود وأدخل يدي إلى الداخل، الجلد دافئ، وأجتهد عند كل وقفة، وأنا أهتم بالتفصيلات، ساعية إلى فم دافئ وإلى نظرة. وليس لخيال الزائر الليلي حدود، فلا لزوم للإسهاب في هذا الموضوع.

ونسمع فجأة صوتاً كأنه صفير مكتوم بينما تنطفئ الشمعة على الطاولة مطلقة دخاناً. وألمح من طرف عيني حبال الزينة تنطفئ هي أيضاً. ويبدو لي، في الظلام الدامس، أن عليّ قطع الصمت، فأتكلّم إذن، واضعة قيد الاختبار المعارف التقنيّة للزائر الليلي.

- هل تستطيع مساعدتي، فيما بعد، مع حبال زينة عيد الميلاد؟

فأسرع إلى حل المشكلة في الحال إذ يكفي إعادة الوصل في العلبة. ويشعل الشمعة في طريقه.

- أنتِ لست واقعيّة ربما.

- أحقاً؟

- لابد لي من الانصراف، لكنني سأعود غداً.

وقبل أن ينصرف، أسأله كيف يكتب كلمة **pléthore** *.

- لا أتخيّل في أي سياق تأتيني فكرة استخدام هذه الكلمة. فلن أكتبها على كل حال، وهذا ليس أسلوبي.

عندما كنت أكنس الرماد أمام المدخنة وبقايا الليلة الأخرى، وأجمع ملابس من هنا وهناك في غرفة المعيشة، أزيل آثار زيارته. فأجد بقعة صغيرة جداً، لكنها كافية لاتهام الشخص المعني.

* وتعني النضارة والوفرة. (المترجم)

62

يبدو أن ما من شخص يعرف بالضبط من أين أتى كل هذا الماء، ولكن الناس بالطبع لا يتكلمون عن شيء آخر في السوبر ماركت، فهناك رمل وطين أسود في كل القرية، والأقبية مملوءة بهما، وغالبية حبال زينة عيد الميلاد تلفت وكذلك زينة الحدائق التي تفتّتت. وفي كل مكان، ينشط رجال بملابس برتقالية في تنظيف الشوارع ورفع الأنقاض وضخ المياه من الأقبية. ويبدو أن الماء انحدر من الوادي شرقي المنطقة السكنية جارفاً معه الكنيسة، لكنه لم يتعرّض للقرية على كل حال.

- كان من المقرر على كل حال بناء كنيسة جديدة، يقول الناس الإيجابيون، فلم تعد القديمة إلا كومة من الحطام المهترئ.

والوضع مماثل في البلدات المجاورة، ولا يُفهم أي شيء، فلا شيء كما في السابق. إذ يظهر أن عدداً من الأنهار في الهضاب العليا خرجت فجأة عن مجاريها لتتدفّق في كل الاتجاهات ومجارٍ غير معروفة بحيث أصبحت الأراضي التي كان السكان يزرعونها غارقة تماماً. ومع أن الأنهار لم تعد تجري حيث يتوقعها الناس، فإن شيئاً واحداً لم يتغيّر: إذ لازالت تصبّ في البحر. ويصاب الناس بالعجز أمام هذه النزوات التي تعتري مجاري المياه التي لا يمكن لأمطار الأربعين يوماً الأخيرة تفسيرها لوحدها.

لكن أصعب الأعمال بالنسبة للناس هو الحوت. فلأنه جنح على أرض صندوق التوفير، يفترض أنه وصل إلى هنا بطريقة ما. ومن المحتمل أنه ببساطة انحدر مع مياه الهضاب العليا.

ومن الشاليه يمكن رؤية كتلته السوداء الضخمة. وهو حوت بـالغ، بطـول خمـسة عشر متراً وحامل بحوت صغير كما سيظهر فيما بعد.

- لا يهم من أين أتى، يصرخ رجل من البلدة، فسنقطعه بعد الظهر لتوزيع لحمه.

وقد جنحت حيوانات بحرية هنا وهناك، كأسـماك المـورة عـلى اليابـسة، وقـاروس الأطلسي. لكن المهم أن السكان جميعهم بخير.

أهاتف أمي لأخبرها بألا تقلق، فنحن نتهيأ للعودة إلى العاصمة.

- من حسن الحظ أن ما من شخص قد أصيب.

- ثلاثة كلاب اختفت، والحق يقال.

- هل تمطر السماء؟

- كلا، يا أمي، فالطقس صفا مثلما هي الحال عندك، وفي كل البلاد، حسب النـشرة الجوية.

- هل انتهيت من ترتيب أمتعتك؟

- أجل، فنحن بصدد الترتيب، ولم يبق لدينا إلا لف هدايا عيد الميلاد.

- كيف حال الصغير، هل يأكل؟

- أجل، يأكل جيداً.

- وهل تستطيعان التخاطب.

- طبعاً، إذ يوجد عالم فيما وراء الكلمات.

- وأنتِ، كيف حالك؟

- على ما يرام، سنحتفل بعيد المـيلاد في المدينـة، وبعـد ذلـك سأمـضي إلى الخـارج لعدة أشهر.

- وعملك؟

- أستطيع إنجازه في أي مكان. وسيأتي تومي معي. فقد تكلّمت بشأنه مع أودور، وهي موافقة. إذ ستنشغل تماماً بالأختين الصغيرتين وأخشى أن يُترك جانباً.

- لكن ألا يشتاق لأمه؟

- بلى بالطبع، لكن له رغبة في اكتشاف العالم، وزيارة الآثار.

- هل ستصحبينه إلى البلدان العربية؟

- كلا، فهو يرغب في رؤية قصور ومعابد وكنائس - ونحن بصدد البحث في أدلّة السفر. وهو يودّ أيضاً رؤية شجرة كمثرى، وزرافة ورمل ذهبي. وأستطيع تعليمه أشياء عديدة، إذ شرع في القراءة ويُحسن تحضير فطائر صغيرة.

- والتطريز والحياكة؟

- على حد سواء.

تبدو سعيدة بالحديث معي؛ وفي صوتها عذوبة ملحوظة. فتتكلّم بصوت خفيض وهي تفصل جيداً بين الكلمات.

- أعتقد أن هذا الزواج كان على عجل أكثر من اللازم، وهو ليس رجلاً سيئاً لكنه لا يصلح لك.

ولم تعد تذكر اسم ثورستين.

وثمة فترة صمت.

- حسناً، يا أمي، سأقول لك إلى اللقاء.

صمتت من جديد.

- إذا لم يكن لديك اعتراض، أفكّر بهبة صغيرة للأعمال الخيرية بعد موتي. فقد قرأت شيئاً في موضوع مدرسة في البوسنة للنساء اللواتي تعذبن من الحرب. أنت بالطبع لا تقرئين الصحف؟

- ليس لدي أي اعتراض، على كل حال.

- كنت متأكدة من هذا. وستتدبّرين أمر نفسك بالتأكيد. وأخوكِ من الرأي ذاته، إذ يقول إن لديه ما يكفيه، هو أيضاً، وقد دخل توائمه الثلاثة إلى الحضانة لتوّهم.

- حسناً، يا أمي العزيزة، نحن الآن بصدد الترتيب. وقد أنهى تومي لتوّه حياكة جوارب لأختيه الصغيرتين، ويجب إيصالهما إلى وجهتها. سنكون غداً مساء في المدينة، إذا سارت الأمور على ما يرام.

وتتذكر شيئاً مفرحاً فجأة.

- تصوّري أن براعم خضراء فاتحة ظهرت على نبتتك، تلك التي كنت أظن أنها من الحرير.

- حسناً، يا أمي، سيكون هذا كل شيء هذه الساعة.

- سأنتظر أن تكوني هنا إذن لتزيين الشجرة.

63

وهكذا يبدأ النهار الأكثر ظلاماً في السنة. فالسماء الشاحبة بالأمطار خلال أسابيع انتعشت بضياء مبهم مع سحابة بشكل إكليل.

- مثل سن كبيرة، يقول الصغير مشيراً بأصبعه إلى فمه المفتوح.

وتلك هي العلامة السحرية لطلوع النهار الأكثر قصراً في السنة. فقبيل الظهر، يرفع العالم غطاءه الأسود وتدخل الشمس أفقية من النافذة، كحز وردي رقيق، وخط دقيق بين جفني امرأة ناعسة. وأتأمّل انعكاس صورتي وصورة بيتنا على زجاج النافذة. إن هدايا عيد الميلاد المشتراة من التعاونية جاهزة، وملفوفة على الطاولة. وأتبيّن آثار اليدين الصغيرتين على الزجاج، أثراً فوق الآخر، والعديد من الأصابع الدبقة طُبعت على الزجاج. وقريباً يعود كل شيء إلى طبيعته، البرد، والثلج الشبيه بالمسحوق الذي يتطاير، والجليد، وتساقط الثلوج، والأرض غير السالكة، وسيصير المنظر الشتائي من جديد أبيض وعديم الرائحة كالمعتاد. نجلس هنيهة على الشرفة لاحتساء الشوكولاته الساخنة وتأمّل أول شعاع للشمس منذ شهرين.

ولا حاجة في الواقع إلى الدوران حول البلاد، فنصف دائرة تكفي جيداً.

- ثلاثة أشخاص، يقول الصغير.

- ثلاثة أشخاص أين هم؟

- حول المائدة.

ويشير بأصبعه إلى الرسم الـذي انتهـى منـه. امـرأة ذات عينـين خـضراوين وشـعر كستنائي قصير تجلس في الوسط.

- لقد طال شعري، أقول ضـاحكة، وتغـيّرت، فأنـا أنظـر الآن إلى العـالم مـن خـلال خصلة شعر طويلة.

عند الظهيرة يظهر بابا نويل، بلباسه المدني هذه المرة. وقد عثر على الكلبة، سـليمة ولكن في حالة صدمة انفعالية. الأكورديون تحت إبطه، ويسأل عما إذا كنـت أسـتطيع أخذه إلى المدينة لإصلاحه - وسيأتي قريباً لاسـتعادته. فـأخبره عـن نيتـي في الـسفر إلى الخارج.

- لوقت غير محدد.

- لا أريد أن أفقدك، يقول، لا أريد البتة.

- سـأكون مـشغولة قلـيلاً في البدايـة، ولكننـي سأتـصل بـك بالتأكيـد فـيما بعـد، وسنلتقي من جديد.

لا شيء يدعو إلى العجلة في الواقع، فلدينا متـسع مـن الوقـت، ورمـال عـلى مـدى البصر.

ثم أضيف - وأنا أشعر بخفقان قلبي بجلاء:

- سأسافر في البداية لوحدي، ثم يمكننا السفر فيما بعد معاً، إذا ما ظلّت الرغبة في ذلك.

64

لدى نزولي إلى مفترق الطرق، ألاحظ أن الحوت شُقّ طولياً حتى جنينه الممـدّد إلى جانب أمه، بلونه الأسود ذاته، ويبلغ طوله المترين.

قبل أن نغادر، أطلب من الشاب، في مضخة البنزين، التقاط صورة لنا.

- هـل تعلمـين، يقـول، أن خفقـان قلـب الحـوت يُـسمَع عـلى مـدى خمـسة كيلومترات؟

أقرّ بأنني كنت أجهل ذلك، بينما يعيد إليّ آلة التصوير بحذر.

- فأنت لا تعلمين إذن من دون شك أن خفقان قلب حوت يمكن أن يـشوّش عـلى الاتصالات اللاسلكية لغواصة ويمنع حرباً؟

يأخذني المنعطف في المرتفع على حـين غـرّة، ولم أكـن أسـير بـسرعة، لكننـي كـدت أخرج عن الطريق مع ذلك، فتنزلق السيارة على الحصى وينفتح الخليج أمامي، شـاطئاً فسيحاً من الرمل الأسود في أدنى الجزر. يرى عليه حشد من حيوانـات الفقمـة تغطّـي الرمل بأجسامها الدافئة اللامعة، زعنفة إلى جانب الأخرى.

إنها تتنقل ببطء، بالعشرات، أما صـغارها فكأنهـا مقمطـة بجلـدها. أتوقـف عـلى جانب الطريق، وأسحب مكبح اليد، ونخرج.

كان الصغير يرغـب في المـشي حـافي القـدمين عـلى الرمـل فنخلـع أحـذيتنا، ويرغـب أيـضاً في العثـور عـلى حـصاة تـستجيب للأمنيـات، أمـا أنـا فأرغـب

بمداعبة رأس فقمة من دون أذنين. وليس هناك إلا الحيرة في الاختيار على الشاطئ: آلاف من الحصى لتجربة أمنياته واختبار ما تلتقطه يده منها، واحدةً بعد الأخرى. وبعد جلوسي أخذت في ترتيب حصواتي بشكل دائرة صغيرة، بينما يكدّس هو حصواته عمودياً، إذ ينشئ مَعلماً، نصباً تذكارياً.

لقد أنهيت تقريباً دائرتي، فأسرع إلى السيارة لآتي بآلة التصوير. وإذا بالصغير لدى عودتي وقد خلع كل ملابسه، الكنزة والقبوعة، والبنطال والتي شيرت والألبسة التحتية، أراه يركض عارياً تماماً وأبيض كالثلج على الرمال السوداء والحصى، صوب عجول البحر. يتجه نحو الأمواج، في البحر، وثيابه تشكّل كومة صغيرة وسط الرمال. وبلغ من بياضه أن جسمه يختلط بالزَبَد وبسماء عشيّة عيد الميلاد الشاحبة. يفزع قطيع عجول البحر ويشرع في التحرّك بصعوبة. فأجري وراء الصغير وأنا أحس بالقواقع الحادة وبالطحالب الباردة تحت قدمي؛ وبالوحل بين أصابع قدميّ، وبالماء المالح يبلّل كاحليَّ، فأمسك به بين الطحالب الطافية، وألفّه بكنزتي، وأرفع الجسم الصغير وأركبه على كتفيَّ، ورمل أسود بين أصابع رجليه، يدغدغ شحمتي أذنيّ. ألقي بنظرة أخيرة على المحيط قبل أن أعود جرياً.

- بحر كبير، يقول الصغير بصوت جلي.

إنها الساعة الرابعة عشرة وأربع عشرة دقيقة، تقول ساعتي.

الغرب تقول البوصلة في السيارة.

ارتدى الصغير ملابسه وجلس على المقعد الخلفي، كرجل صغير صامت، وذقنه داخل فتحة أفرولـه، ورأسه في القبوعة على مستوى النافذة.

أقفل له حزام الأمان وأضع قرص CD لعازف الأكورديون أستور بيازولا. وأشـغِّل جهـاز التدفئة إلى أقصاه. ومن فوق كتفي، أناول الصغير شـطيرة وعلبـة حليـب بالـشوكولاته مع قشّتها، وفي المقابل يمدّ لي يده المقفلة مع ابتسامة دامية. وعندئذ تظهـر، في بـاطن يده، سنّ لبنيّة، السن الأماميّة.

أمطار الخريف

إنها القصّة الشيّقة لامـرأة حـرّة ولطفل مستعار، خلال رحلة شتائية حول إيسلندا. ففي شهر تشرين الثاني المعتم هذا، يهجر الراويةَ زوجها من دون سابق إنذار وتكلّفها أعزّ صديقاتها بالاعتناء بابنها ذي الأربعة أعوام. فتذهب، غير عابئة، في جولة على جزيرتها السوداء، وحدها مع تومي، الطفل الغريب الأصم تقريباً، بنظّارته السميكة.

إن (أمطار الخريف) بظرفها وطرافتها لا تلبث أن تمتعنا بهذه العلاقة الغريبة المؤثرة، بين المسافرة ومرافقها الصغير، وبأسلوبها الحر والمرح في النظر إلى مجريات الحياة، والحياة العاطفية، على خلفية جرح قديم.

إن لدى الروائية الإيسلندية البارعة - التي لا زالت روايتها الرائعة (روزا كانديدا) في الذاكرة - احتداداً ساخراً وطرافة في المواقف كما في الأفكار المتعلّقة بها إلى حد يجعلنا نستسلم إلى مرحها النبيل. ولأن رواياتها نفحة حقيقية من الشباب الأدبي، فهي تشابه الحياة.

بعد نجاح روايتها (روزا كانديدا) الكبير، تقدم أودور آفا أولافسدوتير (أمطار الخريف) التي تترجم للعربية لأول مرة.

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح

ISBN 978-9933-536-59-6

9789933536596

نينوى
للدراسات
والنشر
والتوزيع